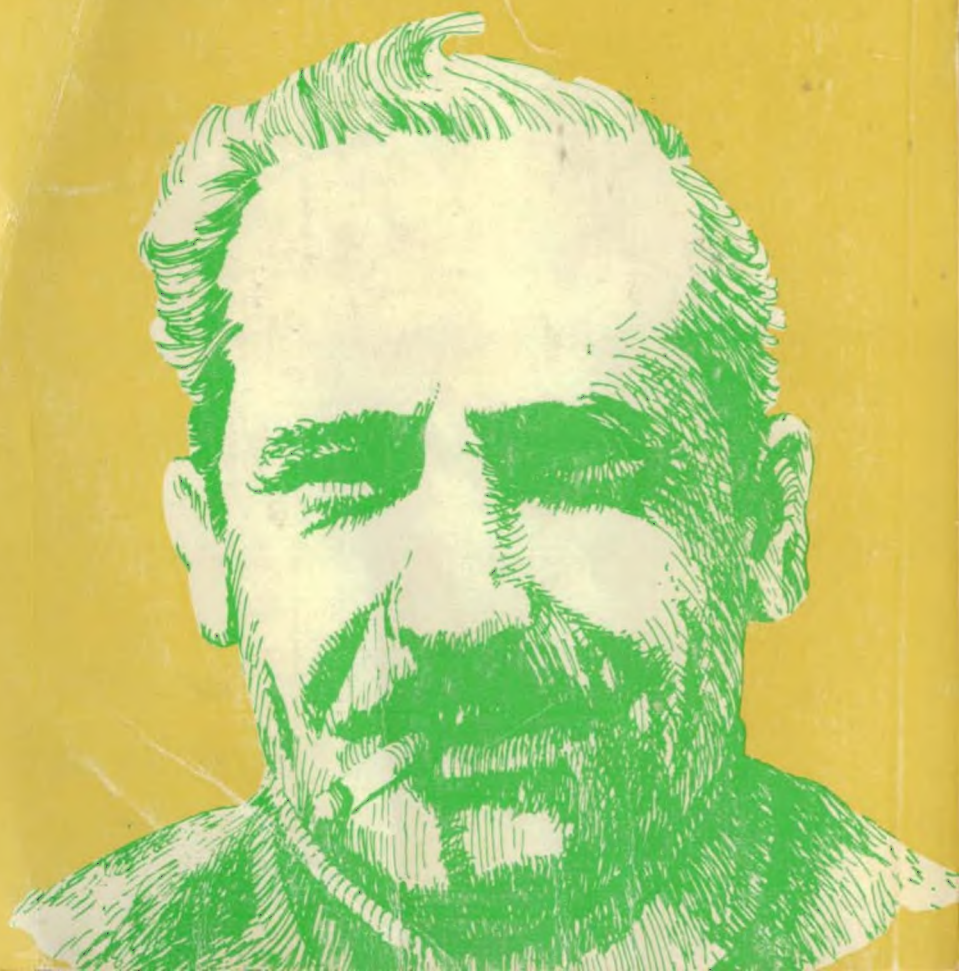


دار الآداب

حنان مينة

السنزاع والماصفت



حنا مينه

الشرايم والحاصفة

رواية

دار الألعاب - بيروت

مقدمة

لا ازال اذكر ذلك المساء الشتوي السوري عندما تعرفت
بحنا ! اضطررنا شوقي وانا ، ان نخترق مستنقعات واحياء
واقفة بيوتها بفضل ارث من كبرياء ، وان ندخل ازقة رطبة
تكاد مصابيحها تتجمد ، وكنت اقول في سري : يا لها من
بداية دراماتيكية لكاتب شعبي عرف بحملته على جماعة الفن
للفن ، وكنت اضحك في عبي وانا افقه اللعبة : حنا مينة الان
منغمس في فراش المرض ، يسعل سعال جافة ، ويستقلبنا
بأبوة بين ديكور بانس اعد بعناية فائقة ، ليقول لنا : هذه هي
الحياة التي تتناسونها ، انها ليست حياة مقهى الهافانا ومطعم
سقراط ، انها حياة الشعب المسحوق الذي اتشرف بأن اكون
منه ، وكنت اهيب نفسي بسلبية لصدمة الشفقة هذه .

ووصلنا اخيرا الى بيت بابه مفتوح ، واجتزنا دهليزا
طويلا مظلما تحنو عليه عدة مشمشات نحيلات عاريات ليطالعا
ضوء غرفة وحيدة ، وعندما دققنا الباب فتحت لنا زوجته
الفارعة ، تمسك بثوبها طفلتان سمراوان صينيتا التقاطيع ،
وفي صدر الغرفة كان انسان نحيل الى حد لا يصدق ، جالسا
امام منقل فحم ، على رأسه طاوية بحار لاذقي ، وعلى كتفيه
معطف عتيق سميك . وقفز كما صفة .

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

دمشق

الطبعة الثانية

تشرين الاول ١٩٧٧

الطبعة الثالثة

حزيران (يونيو) ١٩٧٩

الطبعة الرابعة

آذار (مارس) ١٩٨٢

— اهلا ابو الشوق ، اهلا سعيد ، عرفتك من صورتك
واضاءت عيناه وتوهجتا بمرح خارق في وجهه الشاحب
المنفعل فكأنهما منارتان في بحر هائج ، وكان يمسد شاربه
الصفير ويضحك بزقزة طفل . وفي دقائق ذاب الجليد بيننا
وصرنا نضحك بضاوة . كان رأسه مليئا بحكايات شعبية تأخذ
طابع الحنان الدافئ وهي تنطلق من شفثيه :

— اتعرفون جارنا ابو عمر ؟ ستينسي اشترك بثلاث
ثورات ، ذات يوم سأعرفكم به ، لقد قرر اخيرا لقاء السلاح
واللحاق بركب المدينة : سمع البارحة في الراديو ان الاسنان
يجب ان تنظف بفرشاة ، ولقد دق اليوم بابنا بخجل يطلب منا
ان نعيده فرشاة الاسنان ليومين حتى يجربها ..

والى شوقي : كيف حال الشعر ؟ لا افهم كثيرا فيه ،
ولكنني احب الياس ابي شبكة ، انه بركان من كبريت ونار، انه
يكتب بكرامة ، ومتى فقد الاديب الرجولة الشخصية قأدبه
مخصي ... نعم مخصي . اراكم تحذقون في الحائط ، لا
تنفشوا ، انها ليست ليسانس ، انها شهادة السرتيفكا ! وهي
شهادتي الاولى والاخيرة ، اضعها هنا اكراما لوالدتي لانها
تعتقد انها اعلى شهادة في سوريا ، تصوروا انها دعت جيرانها
ذات يوم الى حفلة طيرت معاشي لتريهم الشهادة وتحتفل بها
« اسم الله حنا نال الشهادة العالية » وهربت من الدعوة خوفا من
الفضيحة ، ولكن الله سلم فلم يكن بينهم من يعرف الفرنسية ،
واكتفوا بالتحديق بالصورة ، ثم وضعوها تحت ايقونة العذراء .

حنا مينه كان معلما ، كانت حياته الاسطورة تلهمنا ، لقد
قرأ كثيرا ولكنه عاش اكثر ، وكانت الحياة على حد تعبير
احد الادباء « تنضج من جلده » هذا الرجل الذي عاش المأساة
اكثر مما عاشها اي اديب سوري كان اكثرنا فرحا وانتصارا
واملا . وكان يقول ابدا : « يجب ان نفرح والا انهزم الانسان
فيينا » .

على شاطئ « اللاذقية » المدينة السورية الخضراء التي
تستحم في البحر ، وتندى ضفائرها بصنوبر جبال العلويين ،
ولد حنا سنة ١٩٢٤ من عائلة فقيرة جدا ، وكان ابواه قد
هاجرا من « مرسين » سنة ١٩٢٢ ، وبعد ولادته مرض ابوه
مرضا شديدا فغادرت العائلة اللاذقية الى قرية « السويدية »
في لواء اسكندرون ، ثم هاجرت بعد ثلاث سنوات الى اسكندرون
ومنها الى قرية « الاكبر » احدى نواحيها حيث مكثت ثلاث
سنوات في الريف ، ثم عادت الى المدينة حيث دخل حنا المدرسة
الابتدائية الفرنسية فلما نال السرتيفكا ، تقلب في مهن متعددة
وعوده طري ، فهو الذكر الوحيد في العائلة ، والافواه الجامعة
بحاجة الى جنى يديه ، فعمل مستخدما في بقالية ومساعد
لصيدلي وصانعا في دكان حلاق مدة طويلة حتى اتقن الصنعة
« لم يكن الموسى والمقص لينسياني المطالعة ، فكنت لا اترك
جريدة ولا كتابا يقع بين يدي ، وكانت زوجة الصيدلي تزودني
بالكتب وكنت احلم بالبحر والسفر والمعارك والثورة » وفي
سنة ١٩٣٩ حدثت مأساة اللواء الدامية حيث اغتصب الاتراك
اللواء العربي بمعاونة فرنسا ، فهاجرت العائلة الى اللاذقية
حيث افتتح حنا دكانا للحلاقة . وكان زبائنه من الفقراء
والبجارة فاخترن في اعماقه كثيرا من قصصهم الاسطورية
عن صراعهم اليومي مع الخطر ، وكانت الحرب العالمية الثانية
ومعارك الاستقلال قد تركت سورية في دوامة من الاضطرابات ،
واشترك حنا في مظاهرة تطالب بالاستقلال فقبض عليه وزج به
في السجن « لقد كان السجن المعلم الاول لي ، لقد قرأت فيه
كثيرا من الكتب ، وكنت ارتعش امام كل كلمة جديدة ، وكان
سجين مثقف يشرح لي معاني الكلمات الصعبة ، وكنت ابكي
من الفرح » .

تعرف حنا على دنيا النشر وهو حلاق ، صار يرسل
بعض القصص الى الصحف الدمشقية وصار اسمه معروفا

ومحبوبا لدى القراء الذين افتتنوا بهذا النفس الجديد الحنون، وهذا الروح الشعبي الاخاذ، لقد كان يكره صناعته ويحلم بالرحيل ولكن كيف؟ « ذات يوم من سنة ١٩٤٦ وقف على باب الدكان كهل واخذ يحرق في بامعان، كان قسي عينيه شفقة لا حد لها. تفضل يا عم.. تردد قليلا ثم دخل وعيناه لا تزالان تحدقان بكل شيء وقال فجأة: - هل لا تزال هنا؟ - ماذا تعني انني لا ازال هنا؟.. - الا تذكرني؟ لقد حلقت عندك منذ ذهبت وجبت الدنيا: تطوعت في جيش الحلفاء وحاربت في كل مكان وانتصرت في العلمين على رومل ١٩٤٠. آه لشد ما رايت من اشياء وها انا اعود لاراك لا تزال هنا، نفس الوقفة تمسك بالمقص والمشط..» واحس حنا بطعنة سيف ونظر الى الرجل وهو يبتعد ثم سرح معاونه ونقده اجرته « كنت احس وانا اغلق الدكان انني افتح ابواب روعي، واعطيت امي اكثر ما ادخرته طوال عملي في الدكان وحملت متاعي وذهبت الى بيروت.

وفي بيروت يبدأ بالتسكع للبحث عن عمل، ويقضي الوقت بالكتابة متأثرا «بفوري» ويترجم له هناك قصة «فرنكا او ليسوفا» ويراسل جريدة «الانشاء» في دمشق ويدعى للعمل فيها، فيأتي الى دمشق ويستقر فيها سنة ١٩٤٧.

ويتقدم حنا حتى يصبح رئيس تحرير جريدة الانشاء، ومحرر الصفحة الادبية وصفحة السياسة الخارجية في عدة جرائد «تقد كنت اعمل كلاله، لقد تزوجت واصبح لي اولاد، وكنت بحاجة الى اللقمة». ولم يكن نشاطه في الحركة الادبية باقل من نشاطه الكتابي فساهم بتأسيس «رابطة الكتاب السوريين» ثم في «رابطة الكتاب العرب» التي كانت تضم نخبة من خيرة الادباء التقدميين في كل البلاد العربية. رواية حنا الاولى «المصاييح الزرق» كانت شيئا جديدا

في الادب السوري، خط فيها الاسس الواقعية للرواية السورية وقد اثارت مناقشات حامية في سورية ولبنان ومصر. لقد كانت روحها الشعبية الاسرة واسلوبها الحي البسيط يعطيانها نكهة خاصة، ولكن ما فيها من انقطاع النفس حينا، وتقصد السخرية احيانا اخرى، والاندفاع في وصف الطبيعة بشكل يقطع حيوية الحوادث، ثم بعض اللوحات التقريرية التي تأثر فيها حنا من عدائه لنظرية الفن للفن، فانصرف فيها الى تأكيد التزامه السياسي دون كبير نجاح.. كل هذه الاشياء كان انتقادها تجربة ثمينة لحنا الذي اكتشف ابعادها بصورة اعمق.

لم تكن «المصاييح الزرق» لتمثل حنا الحقيقي، لم تكن لتجسد حقا ما يعرفه حنا عن اللاذقية: بحرها واحلامها وصيادها وطبقاتها الشعبية، فانصرف لكتابة روايته التي يبين ايدي القراء «الشرع والعاصفة».

انها قصة رجال البحر المردة، في صراعهم اليومي المرير مع الموت المتمثل في البحر الهائج، والعواصف الغادرة، يقابلونها بأشعرتهم الممزقة، وقواربهم العتيقة، وعزمهم المستمد من صخور الشيطان. ان فيها لروحا اسطوريا حنونا، ولكنه غائص الجذور بالارض.

«البحر ملك» تلك هي صيحة الاحترام العميقة التي يطلقها كل بحار، والطروسي، بطل القصة الاول يؤمن بسلطنة البحر كما يؤمن بسلطنة المرأة، ولكنه، في عنفوان شعوره برجولته، يعرف كيف يكون ترويض النمر. ان البحر، صديقه اللدود، ليجتذبه بعيونه الرمادية الباردة ليجر نحو جزر مهجورة، يفتض عذريتها بفتوة الفارس، لقد اكتشف معنى حياته، ولذلك احس بثقل وقع اقدامه على الارض.

الشرع والعاصفة ، قصة مدينة سورية ساحلية اثناء
الحرب العالمية الثانية ، لقد صور حنا ، ببراعة مذهشة ، اثر
هذه الحرب وما تركته من عواصف في بلاد يحتلها الفرنسيون ،
وابرز التناقضات التي كانت تفترس مجتمعا غير متجانس ،
ولكنها اولا قصة رجال البحر ، قصة الانتصار على عوامل
الطبيعة القاسية ، قصة الارادة البشرية والمغامرة .

البلاد العربية بمجملها واقعة على اطراف البحار ،
ولكننا ، منذ الف ليلة وليلة ، لم يعرف البحر سبيله الى
ادبنا ! لماذا ؟ ذلك أننا لا نزال عبيد الجاهلية كما كان
اسلافنا ، لا نزال نتحدث عن الصحراء والخييل والابل
والسيوف والرماح ونعيش في عبودية مواضيع اتى عليها
الزمن ، نعيش تاريخا ولا نعيش حياة ، نعيش الفارس
العربي الفاتح لنعوض عن ذل الحاضر ، ولكن شعبنا ايضا
يجترح المعجزات ، انه لا يحتاج الا الى عين بصيرة محبة ،
منزهة عن زجاجة الرؤية ، وعن التطلع الى السموات بينما
امتداد شعاعها الارض .

ان حنا مينة من رواد البحر في الادب العربي ، وفي
رواياته كل فتوة الريادة وكل تعجلها ايضا وحسبه هذا
العطاء الرائع .

سعيد حورانيه

المقسم الاول

المسافة بين العين ومرمى البصر ليست المسافة الوحيدة للرؤية ، وليست كذلك المسافة الأكثر طولاً أو بهجة .

الماشوقون مثلاً ، والمغتربون ، والمحزونون ، وكل الذين نأت بهم الدار عن الدار ، هؤلاء ، جميعاً ، لا يرون بهيونهم فحسب ، بل بقلوبهم أيضاً .

القلب هو الذي يتلفت الى الاشياء مذ تغيب الاشياء ، وحين يتلفت القلب تتبدى له التهاويل صوراً مجسدة على لوحة الفضاء ، وتتداعى الرؤى التي ناداها بيوح الشوق ، وتنبعث الذكريات مدفوعة بالحنين الذي لا يقاوم ، فيغيب عن واقعه . . ينسلخ عن الزمان والمكان ، ويحاق بأجنحة جيريل نحو عالم عاشه في المواضي من ليلائه ، والغابر من اصباحه واماسيه .

وقد وجد على شاطئ اللاذقية يوماً قلب كهذا القلب ، تلفت ورجا وعاش على الرجاء ، ثم تلفت ورجا وعاش على الرجاء ، وبقي وفياً لرجائه ، مخلصاً لامانيه .

وشاطئ اللاذقية هذا ليس بالشاطئ الغريب : انه نصف هالة قمر على منبسط في سفح جبل ، وفي وسع المرء ، وهو عليه ، أن يمضي مع منحنياته الممتدة من الطابيات الى المنارة ، وان يسير رويداً على الصخور ، او يقفز فوقها ، او يدور معها ، فاذا مل هذا التسيار ، وتعب من القفز والدوران ، فبإمكانه ان يجلس على اية صخرة ، او يقف فوق اي مطل ،

او يتخيل نفسه في شبه جزيرة ، فيستريح على طرف الشاطئ ، ويضع قدميه في الماء ويلهو باحتقان الزبد ، حتى اذا صار رغاء في كفيه ، واصر هو على امساكه ، تقاطر منسريا من اصابعه . اما اذا وجد فسحة من رمل ، وجرب ان يكتب عليها اسما يعود او حصة ، قلن يعود ثانية ويجد الاسم ، ذلك ان البحر يعد لسانه ويلحسه . . ان البحر سر ، وابدا لا يحب افشاء الاسرار ، ولو بهذه الطريقة من الدعاب .

ومع هذا يكتب الناس اسماءهم على رمل الشاطئ . . لماذا ؟ هم انفسهم لا يعرفون ، بل لا يفكرون . . يكتبون عفو خاطر ، او لمجرد الكتابة ، فهذه المجينة الرملية تفري المرء بان ينقش عليها شيئا ، ان يترك فيها اثرا ، ان يخط اسمه او اسم من يهوى ، فاذا لم يفعل ، واكتفى بالسير فوقها ، اخذت منه بصمات قدميه ، وقال الرمل للبحر : « انظر ! من هنا مر الانسان ! » فيرسل البحر الغيور امواجه لتمحو اثار الانسان .

اما في الصيف ، حين يتمدد المستحمون على الشاطئ ، ويتقلبون ظهرا الى بطن ، ويكومون الرمل ، او ينخلونه ، او يفتحون فيه الانفاق ، فان البحر يفتح احدى عينيه ، ويرسل نظرة طويلة اسيفة ، ويفضي انتظارا للشتاء .

ويمضي المستحمون في لهوهم ، راكضين على رملهم ، راكبين على ظهره ، ناثرين ماءه ، مدغدغين خاصرتيه ، ممسكين بلحيته وشاربيه ، كأطفال تعبت اناملهم بلحية جدهم ، حتى اذا ملوا ، ورغبوا في العودة ، انتزعوا انفسهم من الشاطئ انتزاعا لانهم لم يشبعوا ، ولا ادركوا كنه هذه الصحراء الزرقاء المعتدة الى ما لا نهاية .

لكن البحر الوداع ، المتوج في هدوء ، المبتسم على استحياء لا يظل هادئا مبتسما دائما . ان للصبر نهاية ، وحين يفرغ صبر البحر فاحذره ، احتط اذا كنت على متنه ، وانتبه

اذا كنت على شاطئه ، فانه سيمد كفه ويرشقك بمائه .

ولقد اعتاد الناس ان يهربوا حين يرشقهم البحر ، ان يتراجعوا ، ان يغادروا الشاطئ متفادين البلل . . اما محمد بن زهدي الطروسي فلم يكن يفعل ذلك قط . انه لا يتراجع ، ولا يهرب ، ولا يخشى البلل ، وحين تأتبه الموجة يكتفي بالقفز من مكانه ، مستثيرا البحر ليتابع لميته بعنف اشد .

وحتى اذا اشتدت الانواء فانه لا يبرح الشاطئ . هنا مقره هنا بيته ، هنا ماضيه ومستقبله كلاهما . هنا يجلس وينظر الى بعيد ، الى الافاق وما وراءها ، الى عوالم حبيبة ، وموانئ كثيرة ، زارها على مركبه « المنصورة » الذي حطمته العاصفة واستقر اشلاء في الاعماق .

ثم هنا مقهاه . فبين هذه الصخور التي طوف فيها كثيرا ، وسار عليها طويلا ، افتتح مقهاه ليبقى على صلة دائمة بالبحر ، ليكون جاره في الفصول الاربعة ، فيما تبقى من سني العمر .

ومع ان الشاطيء يقفر في الشتاء ، فانه يظل على صحوره حالما حلمه الخاص ، ناظرا الى الافق البعيد في الاماسي واوقات الفراغ : ماذا في البعد يا طروسي ؟ اية رؤى وراء الغيب ؟ اي سر دفين فيه ؟ اي نداء مجهول ياتيكم من اللجة ؟ اية صورة تطالعك من وراء التخوم ؟

لا احد يدري . وحتى ابو محمد الذي اصبح ملازما له لم يكن يدري . واما ساله البحارة او الزبائن : « اين الطروسي ؟ » اشار الى الشاطيء وقال : هناك !

ويعرف السائلون عندئذ ماذا تعني اشارة ابي محمد ، فيشفقون على انفسهم من اندهاب الى الطروسي ، لانه لا يجب ان يفسد عليه جلسته احد ، فاذا ما خرق هذه القاعدة انسان

لغير سبب ، وذهب ليثرثر معه ، نهض من فوره وعاد الى
المقهى او اعرض عن الآتي واسمعه كلاما لا يرضيه :
- المقهى ، خي ، هناك !
- وماذا تفعل انت هنا ؟
- اصلي !

٢

على ان استقرار الطروسي على هذه الصخور ما لبث ان
اضطرب : كان ، في القرارة من نفسه ، يتطوي على شعور
انسان اضطر الى التوقف بين مرحلتين من سفرة واحدة . لم
يعد يستطيع متابعة السفر ، ولا هو ينوي العودة من حيث اتى ،
ولديه من الثقة بالوصول ما يجعله يقيم دهرًا بانتظار الرحيل .
وخلال ذلك يسند ظهره ويستريح او يعمل وهو كاره ، او
يفكر بما لا يدري الا هو والشيطان ، ويحس احساسًا مرهفًا
بالقربة ، ويستشعر القدرة على تمزيق من يزيد بها سوادًا
في عينيه .

وها هو مشكل قدر يعترضه ، مشكل فيه كل التحدي وكل
السفالة التي تستثير الاعصاب المرهقة .

لقد سمع وهو خارج المقهى اصواتًا مهددة تعلو في داخله
وشتائم بذئنة تنطلق ضده بالذات ، وشجارًا عنيفًا ، وتكسر زجاج
وجلبة وصخبًا .

وركض اليه بعضهم يقول « علقت عندك يا طروسي ! »
فتوقف ريثما قوم عكفتي حذائه ، واسرع والية شرواله تهتز
وراءه ودخل صائحًا :

- ايش صار ؟!

كان المقهى مقلوبًا كما لم يره من قبل : حطام الزجاج
يملا الارض ، والكراسي مبعثرة ، والبحارة يمسون صالح برو
ويدفعونه ، وصالح يعاند ويشتم قائلا :
- سأفعل وافعل !..

فيفهم الرجل انه راغب عن محادثته ، وقد يستاء من جفائه
وينقطع عن المقهى ، الا ان الطروسي لم يكن يبالي كثيرًا باقبال
الناس او ادبارهم ، وقد حاول ابو محمد ان ينصحه قساح به :
- لا تتدخل في اموري .

ثم لم يلبث ان اعتذر اليه ، وخاطبه بهدوء وحنان :
- يا عم ابو محمد ، لا تستطيع ان اكون كسائر اصحاب
المقاهي ، اقضي عمري في مراعاة الناس .. انا لم اخلق لهذه
المهنة .

وفعلًا لم يكن قد خلق لهذه المهنة .. ما اصعب ان يتخلى
الانسان عن مهنته ليزاول مهنة اخرى ؟ البحاريصبح قهوجيًا ،
والقهوجي بحارًا ، والحاك حدادًا ، والحداد حائكًا ، انها
لمرارة يزيد في مرارتها ان المبتلى بها يقيم منها على ما يقيم
الزوج من زوج لا يحبها ، او حياة لا يرضاها ، لكنه ،
لاعتبارات او ضرورات ، لا يستطيع تركها .

يقول : « ساهرب » لكنه لا يهرب . يظل حيث هو ،
ويظل يفكر : « متى ؟ متى ؟ » ليس من قيد في رجليه ، ولا سلاسل
تشده الى جدار ، ورغم هذا لا يبرح مكانه ، ان الساعة لم تأت ،
وقد لا تأتي ابداً ، ومع ذلك ينتظرها ، او يتعزى بانتظارها .

وكان الطروسي يؤمن بمجيء ساعته ، ويعمل لها ، ويخلص
في ايمانه وعمله اخلاصًا عجيبيًا . والى ان تدق هذه الساعة ،
يكفيه انه يعيش على مقربة من البحر ، يكفيه انه يقيم على
صخوره التي طوف حوالها كثيرا قبل ان يستقر عليها اخيرا .

وفي طرف المقهى تجمع البحارة قرب أبي محمد لاطفونه
كانوا يلفطون ويمبرون بحركاتهم وأقوالهم عن استنكارهم لما
وقع ، فانجرد الطروسي نحوه وسأله :
- ضربك !!

كان هذا يوشك أن يبكي ، ووجهه الاحمر قد تركت عليه
كف صالح علامة ظاهرة ، ولا حاجة بعد الى جواب ، ورغم ذلك
حاول تمويه الامر ، وامسك بالطروسي ليمنعه من الخروج ،
وتراكم البحارة ليحاولوا بينه وبين صالح ، فصاح بهم زمجرا :
- اتركوني ، هه !

رفع كفه في الهواء ولم ينزلها ، فتراجع الذين لحقوا به ،
وتناول هو خيزرانتة واندفع خارجا . ان غضبا قاتلا يستبد به ،
غضبا عميقا متراكما مضغوطا لا سبيل الى وقفه قبل ان
يبلغ غايته ، ويدرك شأوه من التفجر والابتعاد .

انه هنا ، على الصخور ، بفعل ارادة وليس مصادفة ،
وما دام ذلك كذلك ، فان تصميمه يهون دونه الموت قد انعقد
في ذاته على منازلة كل من يبقي زحزحته عن هذا المكان .
وصالح برو هذا بحار ، غير انه لا يعمل في البحر ، انه يمتن
القتل ، وقد استأجره صاحب المواعين ودفعه لاختضاع
الطروسي او ابعاده عن « البطرنة » .. وهو لن يخضع ولن
يتعد ، وسيدافع عن حقه حتى الموت .

اندفع خارج المقهى بضراوة استنفرت كل اعصابه للقتال ،
وحين فعل ذلك لم يفكر في شيء من هذا الذي تسبب في
تحرش صالح به . تحولت افكاره الى قوة دافعة في ذاته دون
ان تصبح تصورات وتحسبات في رأسه ، وكان هذا شأنه
فيما مضى ، وهو كذلك اليوم .. انه يصبر ويصبر ، ثم يتفد
صبره فينفجر ، وعندئذ يقدم بغير تراجع .

كان صالح برو ما يزال يشتم ، وبعض البحارة يحاولون

صده عن المقهى ، وبعضهم خافوا وابتعدوا ، ورغب آخرون
ان تقع الواقعة ، وان يتعارك هذان « الديكان » اخيرا ليروا الى
عراكلهما ويعرفوا من منهما اقوى ساعدا واشد بأسا . وكان
الميل الى الطروسي ظاهرا ، فقد سئمت الميناء تبجحات صالح
واتاواته ، وبات تأديبه امنية مشتتة . ثم انهم حفظوا قوله
« حين نزلت من بطن امي نزلت هذه قبلي » يقولها ويسحب
سكينه متباهيا ، حتى بلغ به الامر ان تجرا على الطروسي
وضرب ابا محمد وحطم التراكيل وقلب الكراسي ، ولم يبق على
الطروسي الا ان يكسر شوكتة .. او يفلق المقهى ويرحل .

وقال الطروسي وهو يهاجم خصمه :

- زعرتك علي انا ايضا يا صويلح ، يا ابن ..

ولمعت تحت وهج الشمس ، مثل ومض البرق ، نصلة
سكين مزقت كتف الطروسي ، فادار بحار وجهه كي لا يرى
منظر اندم ، وصاح الفتى احمد « لا تضرب يا صالح » الا ان
صالح هوى بالسكين ثانية باتجاه الصدر فمما بلغت حيث
ارسلها ، بل سقطت على طرف الصخر وتدحرجت الى البحر ،
وصاح البحارة « يا ساتر ! » .. وتفرقوا .

انتهت الجولة الاولى وريح الطروسي . ان مدينة صالح
برو « التي سبقته في النزول من امه » قد طارت واستقرت
في انقاع . وكان الطروسي ، وهو يهاجم صالحا امام المقهى
واثقا من نفسه ، فما دامت خيزرانتة في كفه فلن تطاله اية
مدينة ، ومع هذا جرح في كتفه ، لان خصمه يعرف ان يضرب
ايضا . ان ضرب السكين مهنة صالح ، وهو ، في ارسالها ، امضى
من الريح ، ولطالما قتل وعطل الذين تصدى لهم ، وكان يأمل
ان يقتل الطروسي كذلك ، او ان يعطله على اقل تقدير ، ثم
بوغت بضرب الخيزرانة الرصاصي المحكم فتراجع ، وقفز ،
ثم وثب وطعن الكتف ، وتراجع رافعا يسراه ليحمي رأسه ،

وارسل باليمين السكين الى صدر الطروسي فما بلغتته . كان هذا ايضا ابن مهنته ، ابن ميناء ، ولطالما عارك وتعارك ودافع وقاتل كي يشق طريقه ويعيش ، ولطالما فرضت عليه معارك كهذه فخاضها غير هباب .

اختر ، بسرعة وحزم ، ذراع صويلح التي تحمل السكين هدفا له . الخطر من هنا الآن ، انها ضربة دفاع تتلوها ضربة هجوم . وجاءت الخيزرانة على الساعد تماما ، فحاول صالح تفاديها واخفق ، شعر ان ساعده قد روض وانشلت الذراع برهة عن الحركة ، وعملت الخيزرانة فيه ضربا وندفا فلم تدع له فرصة لمعاودة الهجوم . وعندئذ ، وفيما هو يتلقى الضربات ، اشهر مسدسه في وجه الطروسي فجأة . كانت المسافة بينهما قصيرة ، والاطلاق منها لا بد ان يصيب مقتلا ، الا ان ترنح صويلح تحت وقع الضربات ، واضطراب يده ، ادبا الى طيش الرصاصة الاولى ، وعند انطلاق الثانية كان الطروسي قد قفز مهاجما ، فاصابت الرصاصة فخذه وخرجت من الية شرواله ، وجاءت قدمه في بطن صالح ففقد هذا توازنه وتدرج على الصخر ، وطار المسدس من يده واستقر في شق بين صخرتين . واذ ذاك عاجله الطروسي بركلة اخرى قوية قدفته من على الصخرة الى البحر ، فتناثر الماء ، وغاص الجسم فيه لحظة ، ثم ظهر مبلا مشعثا يحاول ان يستقيم وان يتمسك بنتوء الصخور ، بينما تراجع الطروسي عن حافة الماء ، واستند منهوكا على جدار المقهى والدم يسيل منه .

كان مصابا في موضعين ، كتفه وفخذه ، وكان استناده الى الجدار يتخذ صفة المقاتل الذي لا يريد ان يضرب غريمه وهو ملقى على الارض . لينهض أولا ، ثم يجهز عليه . ليخرج صالح برو من البحر ، وعندئذ ينهال عليه بالخيزرانة حتى يقتله .

وكان صالح ، خلال ذلك ، يدب عند جذع الصخرة الكبيرة ، ويحاول الخروج من البحر ، فترتجف يداه ، وتنزلق قدماه ، ويقوم ويقع ، ويستقيم ويترنح ، والبحارة الذين تجمعوا ينظرون اليه شامتين ، شاعرين ان الطروسي قد انتقم لكل منهم .

وجاءت الشرطة فقبضت على الاثنين ، وصادرت المسدس والخيزرانة ، واستاقت الطروسي وصالح الى المخفر ورأى ذلك ابو محمد فافزعه ، وراح يضرب رأسه وينتحب « يا ليتني اصبحت انا لا هو ، لو اصابه لقتله ، ومن اجل اي شيء ؟ من اجل فنجان قهوة ؟ لا ، صويلح يريد ان يقتل الطروسي ، ولكنه اكل نصيبه ، يا ليتته قتله ، يا ليتته مات » !.

وهرع البحارة من كل صوب ، وطفقوا يتحدثون بما جرى ، فيروي الذين شاهدوا المعركة تفصيلاتها لمن لم يروها ، ويبالغون وينوعون ، وقد اجمعوا على ان الطروسي كسر شوكة ابن برو ، وهذا واضح تماما ، ولكنهم ، في الاعماق من نفوسهم ، كانوا يقولون : العداوة بدأت الآن ، فكيف تنتهي ؟!

ومن يعرف كيف تنتهي ؟

وخاصة على الشاحنات التي تنقل من المرفأ واليه ، وقد خطر، ذات يوم ، لأحد اصحاب الشاحنات ان يتمرد على هذا الاحتكار فأحرقت شاحنته في قلب الساحة ، وعندما احتج خرج اليه واحد من آل مظهر فضربه كفا وعاد الى مكتبه ، وتكفل رجاله بالباقي .

وفي حي آخر تحكم عائلة اخرى، فتسيطر على قطاع آخر من الحياة . وفي الميناء تحكم عائلة مماثلة ، وكل مركب او ماعونة او فلوكة ، وكل داخل الى البحر او خارج منه يجب ان يخضع ، في نهاية الامر ، الى هذه العائلة على نحو ما .

ومن وراء هذه الاسر تحكم أسر الاقطاعيين الذين يملكون الارض في الارياف والنفوذ في المدينة ، ويحمون هذه الاستثمارات ويفيدون منها . انهم ، في الواقع ، حكام المدينة الحقيقيون ، وهم غالبا ، على اتفاق مع الحكومة ، فـ اذا اصطدمت مصالحهم بعقبة ما، انقلبوا معارضين ، وعندئذ يمكن الافادة منهم في بعض الحركات ، وخاصة في العمل ضد اعدوان سلطات الانتداب ، شريطة ان تكون زعامة العمل وقفا عليهم في هذا المجال ايضا .

ولقد كان محتملا ان ياتي الطروسي ويفتح مقهى في هذه البقعة الصخرية، ذلك ان اصحاب النفوذ لا يديرون المقاهي ، اما ان ينتصر للبحارة، ويتدخل في شئون الميناء ، ولا يرضخ لابي رشيد صاحب المواعين ، فهذا جزاؤه الموت ، او التهجير من المنطقة ، وربما من المدينة كلها .

وكان الطروسي يعرف انه يشير الغبار في وجه ابي رشيد حين ينتصر للبحارة ، او حين يفرض نفوذه الشخصي في دائرة المقهى ، وكان يتوقع ان يجابه بالتحرشات ، ولقد لام نفسه لانه يتدخل ، ثم وجد انه لا يستطيع ان يسكت ، اضافة الى انه ، في بعض القضايا ، يجر الى التدخل جرا ، فليس

اللاذقية مدينة صغيرة على المتوسط، نافذة تنفس منها سورية وتطل على العالم ، فتأخذ وتعطي، وتصدر وتستورد ، جاعلة من مرفئها هذا بوابة لها ولجيرانها الذين يلونها في ابعاد اليابسة .

وهذه المدينة الواقعة الى الشمال الغربي من البلاد ، قديمة بعض القدم في بنيانها وعاداتها . ان الاخلاق ، هنا، تزرع تحت كابوس التقاليد، فالقطاع هو السيد، وفي ظله تتسم الحياة بالمحافظة والتخلف، ويظل الثار دينا حتى يوقى ، حتى يفسل الدم بالدم، ويكثر المتزعمون ، ويكثر، بالمقابل ، المستزليون ، وتنقسم الحياة الاجتماعية على نحو متفاوت جدا ، ويتوزع « الكبار » زعامة الاحياء ، وزعامة المرافق ، وملكية الارض ، ثم يتنازعون على كل ذلك ، ويكيد بعضهم لبعض، ويبطشون بمن تمرد عليهم، ويستخدمون في هذا الشأن كل الوسائل ويظلون ، رغم ذلك ، ذوي تقاليد في الشرف خاصة، الى درجة ان الناس يتحدثون عنهم بكثير من التبجيل والاحترام !

وحينا بعد حين ، في هذا الحي او ذاك ، يقوم رجل ، او يستيقظ عقل ، او تتولد ، من نفس النزاعات بينهم ، قوة تعمل ضدهم ، واذا ذاك يلوح لهم الخطر ، يضعون في حسابهم مسألة حذف هذا الشيء الجديد .

لقد اقتسموا المدينة الاقلها . ففي حي «الشيخ ضاهر»، حيث مرايب السيارات، تسيطر عائلة «مظهر» على حركة النقل،

ضميره ولا لسانه بقادرين على اصطناع اللامبالاة حيال ما يرى ويسمع وكان يقول : « اذا سافر الانسان اراح واستراح . انه يبتعد عن الميناء وجوها ، وينسى ان في بلده يقع هذا كله ، ولكنني لا استطيع السفر ، ولا استطيع السمع والسموت . البحارة اوغاد ، يأكل بعضهم بعضا كالسمك ، يقتلون في سبيل غيرهم ، وابو رشيد هو الحاكم بامرهم لا يحق لغيره انزال ماعون الى البحر ، ولا يحق لسواه تشغيل احد من العمال ، هو الذي يفرغ السفن والمراكب ، وهو الذي يحملها ، فيقبض اجورا باهظة ويدفع اجورا تافهة ، اف ، ما هذا الظلم يا ناس ؟ وكيف السبيل الى الخلاص ؟ الحمد لله انني لست من العاملين في الميناء ، والا لقتلت او قتلت ، سأظل في المقهى ، يكفيني تعب المقهى ، لن ادخل فيما يجري خارجه » .

يقول هذا ويصمم عليه ، ثم لا يلبث ان ينساه ، ويتدخل ، وينتصر للبحارة وقد بلغ من شدة غيظه ، قبل اسبوع ، ان شتم ابا رشيد نفسه . وتقد ندم على ذلك ، لكنه كان قد شتمه وانتهى الامر ، وبلغ الخبر صاحب المواعين فاضمر ان يتخلص منه ، وجاء صالح برو مأمورا بالتنفيذ ، فكانت المعركة التي سمع بها كل من في المدينة .

تحدثوا عنها في احياء الشيخ ضاهر ، والشحاذين ، والنصارى والميناء ، فالمدينة الصغيرة تعنى بأخبارها المحلية بشكل خاص .

وارسل ابن برو الى السجن بسبب اطلاقه الرصاص ، ورفض الطروسي دخول المستشفى واكتفى بتضميد جراحه البسيطة وعاد الى عمله ، وتوقع ، منذ الآن ، ان يكون في عدا دائم ما بقي في المقهى ، لكنه كان ذا طبع عنيد ، لا يتراجع عند التحدي وما داموا قد تحدوه فسيثبت حتى النهاية ، وهو لا يقوى على غير ذلك ، ولا يمكنه مفارقة البحر ، ولا السفر على متنه قبل ان يأتي الفرج .

ثم هو في مدينته . انه ابنها ، وله ماضيه فيها ، وله عائلته التي تفرقت اصولها وبقيت فروعها . مات الوالدان ، وهاجر الاعمام ، وسكن الاخ الاكبر طرابلس ، وتزوجت الاخت هناك وتباعد ما بينه وبين اقاربه ، هؤلاء تجار وهو بحار ، وقد وجد نفسه ، منذ البدء وحيدا ، وشق طريقه على هذا الاساس ، معتمدا على نفسه ، وعليه ان يتابع ذلك الآن .

وفي عصر اليوم الثالث للمعركة ، وبينما كان الطروسي جالسا في مقفاه ، تلقى زيارة غير معتادة من ابي امين رئيس الميناء .

كان واضحا من هيئته انه لم يرتح للزيارة ، وانه استغربها ومع هذا ساير الضيف ، خاصة وانه رئيس الميناء ، وقد قصده كما قال ، فرحب به ، واوصى له على ناركيلة وقهوة ، وجلسا جنبا الى جنب يتحدثان .

كان رئيس الميناء طويلا ، معافى ، يحب ان يبدو في مظهر حسن ومقام يتناسب مع وظيفته ، ويتخذ لذلك عدته من وقار وصوت غليظ ، ويرتدي ، غالبا ، ثياب الميناء البيضاء الرسمية ، ويضع على كتفيه الشارات ، وفيما عدا ذلك كان خاتما . في يد ابي رشيد ، زلمته على النطاق الرسمي في الميناء .
- انت تعرف انني احبك واريدك يا ابو زهدي .

بهذه الكلمات افتتح الموضوع الذي جاء من اجله ، وحرص ان يتكلم بهدوء ووقار ، وان يبدو نصوحا فيما يقول ، فشمله الطروسي بنظرة خاطفة واجاب :

- انا لا اشك في هذا يا ابا امين ، امر ، هل من خدمة ؟
- العفو ، نحن بأمر الرياس امثالك ، زيارتي ليست الا لرؤيتك . لقد انقطعت عن الميناء في هذه الايام ، فقلت في نفسي « تفقد اخاك الطروسي يا ابا امين » .
- اهلا وسهلا ، حياك الله وابقائك .

— والقائل ايضا . نحن لا ننسى انك منا ، ولك علينا حقوق .

توقف الطروسي عن متابعة هذا الحوار الذي يعرف انه ليس الا مقدمة تضاف الى ما سبق من اسئلة عن الصحة والشغل . لقد حزر ان رئيس الميناء جاء لفرض معين ، وانه مدفوع اليه ، وخمن علاقة ذلك بالمعركة مع ابن برو وعرف ان وراء الزيارة ابا رشيد صاحب المواعين .

استأنف ابو امين كلامه فقال :

— . . . وحين بلغني ان صالح برو اعتدى على المقهى استأثرت جدا ، واستاء ابو رشيد ، ولولا انك ذكرته — ولعنة الله على ساعة الغضب والوشاة — بكلام لا اعرف مدى صحته ، لجاء وشرب القهوة عندك .

فكر الطروسي قليلا واسر في نفسه : « انه لا يأتي مهددا فماذا حدث ؟ هل فشلت الخطة فارادوا سترها ؟ »

— من جهتي — كذلك قال متوجها الى رئيس الميناء — اقدر عاطفتك تماما، واعرف انك لجميع البحارة ولست لواحد دون آخر (قاطعه ابو امين قائلا : معاذ الله !) واقدر كذلك موقف ابي رشيد ، فسلم عليه ، وقل له عن لساني ان المقهى مفتوح للجميع .

علت قرقرة الناركيلة وتلاحقت بسرعة ، وساد — لوقت قصير — صمت بين الرجلين . انصرف الطروسي الى لف سيجارة ، وابو امين الى سحب انفاس متلاحقة من الناركيلة . كان رأساهما يفكران فيما سيعقب هذه المجاملات ، ولم يفاجأ رئيس الميناء بجفاء الجواب فيما يتعلق بابي رشيد ، فهو قد خبر الطروسي ، انما ، بعد الذي حدث ، وبعد ان عرف الطروسي الدافع الى المعركة ، اما كان يجدر به ان يلين ويشكر ، او يفصح عن ايماءة اعتذار على الاقل !؟

« لنجرب اسلوبا آخر . لنذكره بقوة ابي رشيد ، ثم نسام ونسدي النصيح، وعليه، بعد ذلك، تقع عاقبة اعماله »

— يا ابا زهدي انت رجل (تمتم الطروسي: العفو) وابو رشيد يقدر الرجال ، يحبهم ويكرمهم، ولكن اذا بلغه عنهم ما يسيئه ، او تدخل احد منهم في شئون الميناء ، لا يستطيع ان يحتمله وانت تعرف عناده ، وتعرف مدى قوته ونفوذه . . .

قال الطروسي في سره « بدا التهديد يجب وقف هذه الديباجة » .
قاطعه :

— اسمع يا ابا امين ! نحن نتحدث كأصدقاء ، وانت تزورني على هذا الاساس ، فلا موجب لتذكيري بقوة النفوذ، ولا داعي للتهديد . .

اندفع ابو امين يقسم :

— معاذ الله ابو الزهد . بشرفي، وحياة الاخوة ، لم يخطر لي هذا على بال ، وكل ما اريده ، صالحك ، سلامتك واذا قلت ما اغضبك فلانني لا استطيع بحكم صداقتي ومحبتني اك ، الا ان اذكره . نعم ابو رشيد قوي، قوي بنفوذه ، وبالرجال المنتفعين منه، وسأروي لك هذه الحادثة التي وقعت قبل الحرب ، قبل ان تخف الحركة في الميناء ، اتسمعني ؟ انا رئيس الميناء واعرف خفاياها ، فأرجوك ان تصفي الي ، وان تعتبر كلامي كلام صديق ، كلام اخ » .
— تفضل !

— زاد فضلك ، عشت يا ابا الزهد ، اذنك سمعت بالحادثة حادثة ضابط الجمر ك .

— لم اسمع بها ، تفضل .

— عينت ادارة الجمارك ملازما شابا في مديرية اللاذقية، فأراد ان يغير النظام ، وان يضع ترتيبات جديدة ، ويتدخل

في امور يجب ان يغمض العين عنها ، فأرسل ابو رشيد
ينصحه مرة ومرة ، ولما رفض النصيحة هددته ، فلما تمادى
اعتزم بعض الشباب قتله . . قسما بالله ارادوا قتله ، رايت
السكاكين والمسدسات بعيني هاتين ، فدخلت عليه وقلت له
« تعال انظر » وقام الى نافذة مكتبه فنظر ، ولما رأى الموت
بعينه طلب نصحي فما بخلت به عليه ، واخذته قورا الى
ابي رشيد ، وعند تلك الساعة اصبحا صديقين ، وانتفع
الرجل كثيرا ، وانتفع غيره ، وكل من عاند ابا رشيد او قاومه ،
ضرب او نقل او لحقته اضرار ، ولذلك قلت انه صاحب نفوذ ،
وله في البلد سند قوي ، وفي السراي سند اقوى ، والذين
يسايرونه ينتفعون ، وانت ستكون في المقدمة ، فلماذا ترفض
النعمة وتجلب لنفسك وجع الرأس ؟! »

– وبعد ؟

– وبعد ؟ فكر بالامر ، المثل يقول «العين لا تقاوم المخرز»
فلماذا لا تراعي مصلحتك ومصلحة مقهاك ؟

استأنفت الناركيلة قرقرتها السريعة المتلاحقة ، وساد
الصمت مجددا ، بينما عاد الرأسان الى التفكير : احدهما
بما يجب ان يكون الجواب ، والثاني بما سوف يكون عليه
الجواب .

قال الطروسي مجتهدا في الا يزيد الطين بلة ، والا
يزيد ، في الوقت نفسه ، ابا رشيد طمعا :

– التفكير ضروري في الامور التي لم يسبق للانسان ان
فكر فيها يا ابا امين ، وفي اقوالك لا مجال للتفكير ولا مجال
للجواب . ابو رشيد يهددني ، ثم يساومني ، وانت تعرف ان
التهديد لا ينفع معي والا لتراجعت قبل الدخول في معركة
مع ابن برو ، والمساومة ، كذلك ، لا تنفع ، فلو رضيت ان
اساير واساوم وابع رجولتي واحني رأسي للفير والتقى

الاوامر ، لكنك الآن ريسا في اي مركب ، وما كنت بحاجة
الى فتح هذا المقهى والعيش على هذه الصخور ، لذلك ارجوك
ان تبلغ سلامي الى ابي رشيد ، وان تقول له ان ما مضى
قد مضى ، فاذا استعمل نفوذه لخراج صالح من السجن
يكون قد استأنف معاداتي ، اما اذا ترك هذا الامر ، ولم
يرسل احدا للتحرش بي ، فانني ، من جهتي ، لا اطمع بالعمل
في الميناء ، ولا انوي ، وليس في مقدوري ان نويت ، انزال
مواعين في الميناء . اما خصوصتي مع صالح برو فاعتبرها رغم
دوافعها ، مسألة شخصية ، والايام وحدها كفيلة بحلها .

وانتهى الحديث عند هذا الحد ، وانتهت الزيارة كذلك ،
فقام ابوامين وهبط طريق شركة « الاميرال » قاصدا الميناء .

الطروسي ، للتعرف اليه ، واكتساب مودته وتدشينه زميلا
جديدا .

وبلغ الطروسي ما يقال عنه من مديح فما طرب له قط
« انا لست من هذا الصنف ، اذا لم يعتد احد علي لا اعتدي
على احد ، اما وقد وقع ما وقع فأنني سأجمل صويلح ينسى
الحليب الذي رضعه » .

- ولكن انتبه . صويلح غدار .
- الانسان لا يموت مرتين .
- لعل السجن يربيه هذه المرة .
- من جهتي لا ارجب في سجنه ، لذلك اسقطت حقي عنه .
- اذن انت تنتظر خروجه ؟
- لا انتظر شيئا .
- فشر ، صويلح كلب ، نحن تؤدبه عنك .
- لا تؤدبوه ولا يؤدبكم ، اتركوني اصفي حسابي معه .
- ما باطل ، نحن معك ويجرؤ صويلح على حركة .

ضاق الطروسي ذرعا بهذه الحلقة السيئة التي تصنع
من تبجحها انشودة له : « اهذه هي حياتي هنا ؟ اهذه
ضريبة لا بد ان يدفعها صاحب مقهى ؟ لا ، لن اطيع ثرثرتهم ،
لا اريدهم عندي ! » واوصى ابا محمد ان يأخذ منهم ثمن
المشروب كسائر الزين . قال : « لتكن ، اذا رفضوا ، واقعة
اخرى كواقعة ابن برو ، فلئن كانت حياتي هنا رهنا بأن
يستعبدني الآخرون ، ويأكلوا حقوقي ، فلا كانت الحياة . خذ
يا ابا محمد خذ ، لا تهمني القيمة بقدر ما يهمني مصيري ، انا
لم اقبل الذل في البحر فهل اقبله في البر ؟ » فردا بومحمد
قائلا : « حاشا ! والله لا يدخل هذا المقهى انسان الا بأمرك ،
وثنم المشروب قبل ما ينتهي المشروب ، ومن لا يعجبه مع
السلامة ، مع الف سلامة ، أصبحت اعرف عند من اشتغل » .

٤

بعد اسبوع واحد كان الطروسي يحمل ضماداته على
الكتف والفخذ ، ويتوكأ على عصا ويسير نحو العدلية ليقدم
عريضة الى النيابة العامة .

فعل ذلك دون استشارة احد ، وقال في العريضة انه
يسقط حقه الشخصي عن صالح برو ، واجاب الذين عرفوا
بما فعل ولاموه عليه « ليس لي داع ولا مدع . القانون على
راسي ولكنني لا اشتكي الا لربي ، اذا كان ابن برو رجلا
فليدخل هذا المقهى او يتحرش بأحد في الميناء بعد اليوم » .

وجاء من اطراف المدينة رجال يقول كل منهم ما يقوله
صالح برو عن نفسه . كانوا اصحابه ، فلما وقع شمتوا به .
ليس في عالم هؤلاء تقدير وصداقة دائمان ، المنتصر هو
الممدوح ، ولكي يظل واحدهم محترما عليه ان يظل شجاعا .
انهم يسمعون بانطروسي ، ويعرفون انه مقدم ، اما ان يقاوم
ابن برو ويثبت امام سكينه ومسدسه ، وان يرميه في البحر
فوق ذلك ، فهذا ما لم يتصوروه . وعلى ذكر هذا الحادث
انعقدت الحلقات في المقاهي والخمارات التي يرتادونها ، وظلت
تحدث في الموضوع زمنا ، وانقسم الرجال فيما بينهم ، وتبجح
بعضهم فذكروا مفاخرهم ووقائعهم بهذه المناسبة ، وفي فورة
الحماسة انتضى احدهم سكينه واغمدتها في الطاولة ،
فنشبت معركة صغيرة ، حال الصاحون دون تطورها بين
السكراري ، وفي الايام التالية شرعوا بالاتجاه نحو مقهى

- وسيعرف هؤلاء الزبائن في اي مقهى يجلسون .
- بعد وقفة ابن برو ما اظن ابن امرأة يتحرش بالمقهى .
- انت غلطان . . التحرش سيستمر .
- ولماذا لا تحدث ابا رشيد في الامر ؟

« تأمل هذا ابو محمد يا طروسي؟ انه لم يفهم بعد » .
- ولماذا نحدثه ؟ هل هو مخفر ؟ حكومة ؟ لا تذكره بعد
اليوم ، اشتغل شغلك ، قدم القهوة وخذ ثمنها ، خذ ثمنها
من الجميع ، سمعت ؟
- وحتى من ابي رشيد ؟
- نعم ، حتى منه .

قالها بشكل حاسم ، كانما استفزه ابو محمد بطرح مثل
هذا السؤال ، وتحت الضمادتين ، على الكتف والفخذ ، شعر
بوخزتين اليمتين ، وقفزت الى ذهنه فورا صورة ابي رشيد،
وتذكر اقوال رئيس الميناء عنه ، وتمثلت له الميناء وجسوم
الحمالين العارية ، وعروقهم النافرة ، وتفاهة حياة البحارة،
والظلم النازل بهؤلاء وهؤلاء ، والجوع والاضطهاد وسلطة
صاحب المواعين التي لا تحد ، وعصابة الشر التي من حوله ،
والمصير المنتظر لكل من يقاومه - تمثل فظاعة كل هذا وتساءل:
« ما سوف يكون جوابه على حديثي مع رئيس الميناء ؟ هل
يتوقف ام يتمادي ؟ وهل يرسل لي رجلا آخر ام يجعلني
انسى ثم يغدر بي ؟ انني هنا على البر ، ولا عمل لي في البحر،
ومع ذلك لا استطيع الاحتمال ، فكيف يحتمل الآخرون؟ كيف
يحتمل الذين يعملون في البحر » ؟

شعر بوطاة الحياة الجارية في الميناء كأنه يحياها بنفسه .
ان وضعا جديدا قبيحا يسيطر عليها الآن ، اما في زمنه ،
زمن « المنصورة » ، فلم تكن في المرفأ هذه الحركة التجارية
الواسعة ، ولا هذا العدد الضخم من المواعين ، ولا هذه

الكثرة من العمال ، ولا هذا الاحتكار لاعمال الشحن والتفريغ .
كان رئيس الميناء هو الذي يسير الاعمال ، والمراكب تسافر
وتؤوب ، وفلائك الصيد تذهب وتجيء ، وقد تحدث ، حيناً بعد
حين ، مشاجرات وخصومات هي من طبيعة المرافيء ، اما
هذه السفن التي ترسو بعيداً في البحر ، وهذه المواعين التي
تحمل اليها ومنها البضائع ، وهؤلاء المئات من الحمالين ، وهذا
النفوذ الذي يتمتع به ابو رشيد ، اما هذا كله فلم يكن
موجودا . ولئن خفت الحركة الان ، خلال الحرب ، فانها لن
تلبث ان تنشط بعدها ، وابو رشيد يريد المحافظة على وضعه،
يريد ان يحمي نفوذه الى ذلك الوقت ، انه يعرف ما يفعل .

الراكب ورئيس الميناء في ثيابهم الثمينة الفضفاضة ، ويراها ، هو ، في لباسه العادي ومسلكه البسيط . ولم يكن يصطنع ذلك اصطناعا بل يحياه حياة ، ويظل يدور في الميناء ، يشرف ويراقب ويدقق ويسير حركة الشحن والتفريغ بنفس البساطة والطبقة ، حتى اذا لاح له الخطر من اية جهة : من مزاحم ، من موظف ، من حمال ، من بحار ، من حركة تضامن ، من بوادر تكتل تقايبي ، من تمرد صاحب شاحنة ، خلع ثوب البساطة وليس ثوب القوة ، وبدا عجوزا مقداما ضاريا ، يجمع بين العنف واللين ، والصلابة وحسن التدبير ، وعندئذ تقع بعض الحوادث الزاجرة : يفرق مركب او تحترق شاحنة او يضرب رجل او ينقل موظف ، او يدفع المال ويتم خضوع التمرد دونما ضجة او اعلان .

وكان البحارة وعمال الميناء يعيشون في خوف دائم ، فمن يرضى عنه ابو رشيد يشتغل ، ومن يفضب عليه ينرك الميناء ، او يفرق ذات يوم قضاء وقدرًا !

وكان العمل قاسيا : تقف الشاحنة على الرصيف ، وينقل الحمالون الاكياس والصناديق الى الماعون ، او ينقلونها منها الى الشاحنة ، ثم يفرغون حمولة المواعين في البواخر ، وحمولة البواخر في المواعين ، ويصعدون ويهبطون ، من الصباح الى المساء ، حاملين الاكياس والصناديق وهم يرتجفون تحتها ، وظهورهم تتقوس لثقلها ، وعروقهم تنفر لشدتها ، ولكنهم ، مع ذلك ، لا يبرحون صاعدين هابطين ، ورائحين غادين ، لا يستطيعون التوقف ولا الراحة ولا المطالبة بحق من الحقوق .

وذات يوم ، بينما الطروسي في الميناء ، والعمال يحملون احدى الشاحنات ، ارتقى واحد منهم لوحا خشبيا وعلى ظهره صندوق كبير يضطرب تحته . كان العامل ينقل خطاه بمشقة ، فيدفع احدى قدميه بحذر ثم يدفع الاخرى بنفس

وكان ابو رشيد يعرف ما يفعل حقا . فمئذ ان نشطت الحركة في المرفأ ، غداة اغتصاب تركيا لمرفأ اسكندرون ، احتكر النقل بين الرصيف والبواخر ، واستأثر به عنوة ، وان غضب من مزاحم او سلطة ، هدد بأن يبذل في خصومته كل ما يملك « نزلت بالشحاطة (١) وراح اطلع بالشحاطة » كذلك يقول مذكرا خصومه بأنه لم يكن يملك شيئا حين بدأ العمل ، وانه مستعد ان يبذل كل ما يملك دفاعا عن هذا العمل ، دفاعا عن احتكار ملكية المواعين (٢) وتشغيلها .

وكان الجميع يعرفون انه يعني ما يقول ، رغم مظهره الخارجي الذي لا ينم عن عناده الداخلي . كان كهلا رقيق البنية ، رقيق الحاشية ، حلو المعشر ، كريما في سبيل توطيد نفوذه ، متواضعا في سلوكه ، ولو جاء غريب للتعرف اليه وقصد الميناء بحثا عنه ، لم به دون ان يعيره التفاتا . ذلك انه لم يفبر شرواله البحري وسترته القصيرة المشقوقة في اسفل الظهر ، وشحاطته وطربوشه العاديين . ولم يكن يبدو ، في ثيابه المتواضعة هذه ، متميزا عن سائر العاملين في الميناء . وكان يرى ، غالبا ، في مقهى المرفأ ، او على الرصيف ، ومن يسمع بنفوذه ويراها لا يصدق انه هو ، ويعجب حين يتأكد من شخصيته ، ويزداد عجبه حين يرى اصحاب

(١) الخف . (٢) المواعين ومفردها ماعونة ، قارب خشبي كبير على شكل عوامة لنقل البضائع من البواخر اليها .

الطريقة ، ويصعد بحمله مكدودا ضاغطا اعصابه بعنف شديد . هذا الشفيل المسكين لم يستطع ايصال الصندوق الى الشاحنة . اختل توازنه في اعلى اللوح ، وترنج ، وسقط الصندوق من على ظهره ، وسقط هو فوق الصندوق ، وصاح انحاضرون « يا ساتر » ! وهرعوا اليه يسعفونه ، ويمسحون الدم النازف من جبينه . كان المشهد مؤلما ، مثيرا للشفقة ، الا ان وكيل ابي رشيد لم يشفق ولم يرحم ، بل صاح بالعامل وشتمه ، فلما اعترض عامل آخر وانتصر لزميله امسك به من قميصه ، وشده ، وصفعه .

راى الطروسي ذلك بام عينيه فلم يطق صبرا على السكوت . لقد سافر هو الآخر ، وعرف العالم ، وابصر عمال المرافىء وكيف يعملون وما هي حقوقهم وضمائماتهم ، وعز عليه ما اصاب مواطنه العامل ، وما نال زميله الآخر . آلمه المنظر اشد الالم ، فأحب ان يقول للضارب كلمتين ، وان يلومه على تصرفه ، غير ان الوكيل صده بفاظة ، بل تطاول عليه ، وكاد الموقف يتطور لولا ان حضر ابو رشيد ، فطيب خاطر الطروسي ، وانتهر وكيله ودفعه امامه ، واعلن انه لا يرضى بهذه المعاملة ولا يتسامح حيالها .

هل كان صادقا في ذلك ؟ ربما ، ومهما يكن من امر فقد عرف كيف يتصرف ، وكيف يظهر الشفقة على العامل الجريح ، اما العامل الآخر ، الذي انتصر لزميله ، فلم ينج من الاذى ، ولم يكن لجرأته مجال للمسامحة . وبلغ الطروسي ان هذا العامل ضرب في اليوم نفسه ، ومنع من دخول الميناء في اليوم التالي . وقال ابو رشيد في حق الطروسي ما لا يحب ، وصاح في جمع من العمال والبحارة : لا اريد تدخل الغرباء في شئون الميناء ولن اتساهل مع احد من البحارة بعد اليوم .

وجاء العامل المطرود الى الطروسي وقص عليه قصته . شكره اولاً على موقفه ، وحدثه عن حياته وحياة الآخرين في

الميناء . ورجاه بعد ذلك ان يتوسط له عند ابي رشيد ليعيده الى العمل .

وفكر الطروسي مليا في الامر . كان يعز عليه ان يرفض طلب العامل ، ويعز عليه ان يترجى ابا رشيد ، ويعرف ان العامل اذا اعيد اليوم فسيصرف غدا ، ومع ذلك وسط الرئيس قدرتي الجانودي في موضوعه ، وسأله ان يسعى لتشفيله رافة بعائلته ، وان يبذل جهده كي لا يطرد ثانية . وفعل الجانودي ذلك كرامة للطروسي ، وعرف ابو رشيد بالامر فحدث عنه مستاء ، وأشار الى ان الطروسي يواصل تدخله فيما لا يعنيه ، وانه يحرض عمال الميناء وبحارتها ، وانه مدفوع من ...

وغضب الطروسي كما لم يفضب قط : غضب لوصفه بالغريب عن الميناء ، وسخر من اتهام ابي رشيد له . اكان يتدخل حقا ؟ ايعد الانتصار لبحار تدخل في شئون البحر ؟ ومن ملكها لابي رشيد ؟ ومن سوده عليها ؟ اي قانون ؟ اية سلطة .

فكر بهذا كله ، بل اضطر الى التفكير بهذا كله ، وعجب لهذه الدنيا ، وعجب لهذا الظلم ، وتساءل مفيظا : « كيف الخلاص ؟ » ثم انكفا على نفسه يلومها قائلا « اما يكفيني همي حتى احمل هموم الناس ؟ »

كذلك بدا الاحتكاك بينه وبين ابي رشيد . واخذت افكار جديدة تدور في رأسه ، وتساؤلات عديدة تلح عليه ، وبدأ يستشعر الفرق ما بين البحر والبر ، ويلاحظ الاختلاف بين المحيطين ، وفهم ان وقفته على البر ، وهو قي نضج الرجولة ، غير سفره في البحر وهو في شرخ الشباب . . ان في المدينة ، والميناء ، والمقهى اشياء جديدة واخبارا جديدة ، والعالم يدور في دوامة الاحداث ، وهو وسكان المدينة ، شاءوا ام ابوا ، يدورون مع العالم .

لقد حدثه ابو حميد عن المانيا فقال : « اذا انتصرت يا

ابو زهدي انتصرنا . فرنسا عدوتنا ، والانكليز اعداؤنا ، وعدو عدوك صديقك ، لذلك فالالمان اصدقاؤنا . ان انتصار المانيا قريب ، وعندئذ نستقل ونخلص وتصبح بلادنا لنا ، لا للاجانب ولا لاذنابهم .

وضحك وهو يسمع ابا حميد . انه لا يقيم له وزنا ، ولا يسمعه الا مضطرا وتزجية للوقت ، ولكن اقواله معقولة ، ومهما يكن فان الحالة على هذا الشكل لا تطاق ، ولا بأس من سماع اذاعة برلين ، ولا بأس من سماع ما يقوله ابو حميد نقلا عن برلين .

ولا بأس ، كذلك ، من سماع اقوال الزبائن الآخرين . بل لا بد من سماعهم حيناً بعد حين ، فعندما تثور المناقشات في المقهى ، لا يستطيع ان يمنعها ، ولا يستطيع ، كذلك ان يحتملها ، فيخرج ويلجأ الى البحر . ولكن بعض العبارات تستوقفه احيانا ، وتجعله يفكر بها على نحو ما ، ثم يفكر بأصحابها على نحو ما ايضا ، ويتساءل في ذات نفسه « لماذا يتحمسون للسياسة كل هذه الحماسة ؟ » ولماذا لا يتحمس الاستاذ كامل ، معلم المدرسة ، لمدرسته كما يتحمس لآرائه ؟ وابو حميد ، لماذا يتحمس لاذاعة برلين باكثر مما يتحمس لمهنته ؟ ولماذا يكره ابو حميد الاستاذ كامل ؟ ولماذا يكره هذا الاخير المانيا ؟ وانا ؟ مع من انا ؟ لست مع احد ، ولست ضد احد ، ولكن اذاعة برلين تعجبني ، وحديث الاستاذ كامل يقنعني ، وبعض الاحاديث الاخرى تسليني ، بل تجذبني ، لقد اعتدت سماع الزبائن ، والفت الجو ، وابو رشيد يريد تعكير هذا الجو ، يريد تهجيرني ، ولكنه لن يفلح .

٦

تناهى الى ابي رشيد ما قاله الطروسي فلم يعلق بشيء . انه لا يكشف أوراقه بسهولة ، بل لا يلعب أوراقه الا بعد استقرار وتصنيف . ولقد يؤجل لعب ورقة ما اليوم ليربح بها غدا .

قال في ذات نفسه وهو يفكر بالطروسي « هذا انسان لا يصلح لعمل منظم ضدي . انه لا يملك ماعونة فيزاحمني ، ولا يعمل في الميناء فيفسد علي الوضع ، كل ما في الامر انه يتجرا علي ، ويتحدث بذلك الى العمال والبحارة ، ويرى هؤلاء قوته فيستمدون قوة منها ، وهذا مصدر الخطر . انني لا اخشاه هو ، بل اخشى سريان عدواه الى غيره ، وعندئذ يتسع الخرق ، ويجتمع عامل الى عامل ، وبحار الى بحار ، ويطالبون بحقوقهم ، ويؤلفون نقابة ، ويتدخلون في شئوني . . لا ، لن اسمح بهذا ! »

صتم على ذلك تصميم قاطعا . فالميناء منطقته ، وهو الذي يدير العمل فيها ، ويريد ان يديرها كما يشاء هو لا كما يشاء الآخرون . ثم انه يدفع المال لبعض زعماء المدينة ، ويمول الحملات الانتخابية ، ويدعم بعض المرشحين حتى يفوزوا ، فاذا ما فازوا دعموه لدى السلطة . وهو ، الى ذلك ، يرشو بعض كبار الموظفين ، ويدفع لبعض الفتيان العاطلين ، وبعض المعوزين في المواسم والاعياد ، هكذا تنوطد سيطرته ويشدد بأسه ، ويريد ان يظلا كذلك وطيدين شديدين دائما .

ولو رضي الطروسي ان يعمل معه لانتفع منه ، ولو اكتفى بالمقهى ولم يتدخل في شئون الميناء لذهب اليه وشرب قهوة الصباح او العصر عنده ، اما وهو ليس كذلك ، وقد تجرأ عليه ، فلا بأس من تأديبه ، او تهجيده ، ولا بأس ، في نهاية الامر ، من حذفه ، ولا يخسر ، في جميع الاحوال ، شيئاً من سمعته او صفاته . . فمثل هذه الامور تتم عادة بهدوء ، وفي معارك عادية ، شخصية ، لا علاقة له بها البتة !

وحين نقل اليه رئيس الميناء ما قاله الطروسي عنه ابتسم واجاب: « لا مانع سنشرب القهوة عنده . . كيف رايت قهوته ، تشرب ؟ » قال رئيس الميناء : « قهوته جيدة ، وهو ، مع عناده ، انسان دمث ، وانت تعرفه اكثر مني ، وزيارتي له ، هل تحسبها سدى ؟ لقد افهمته بالقلم العريض ان سلامته مرهونة بموقفه ، وانه بغنى عن وجع الرأس ! »

— اذن اقنعته !

— اقناع ؟ لا ، ولكن ليئنته ، اعتمد عليّ ابو رشيد ،

عندك رئيس ميناء يعتمد عليه .

— بارك الله ! بارك الله ! معنون منك يا ابو امين .

وقام ابو رشيد يتمشى على رصيف الميناء ويتابع التفكير بينه وبين نفسه « ليئنته ! اهذا هو اللين ؟ اكون لنا من يدعوني لاشرب القهوة عنده ؟ لا ، لو حصل ذلك لجاء هو يعتذر ويشرب القهوة عندي . ابو امين سخيف ومغفل ، اهذا رئيس ميناء ؟ » واجاب بنفسه على تساؤله فقال « نعم ، رئيس ميناء ، بل افضل رئيس ميناء ! »

كان يضع يديه وراء ظهره ، ويسير مترفعا ، تطبق شحاطته في قدميه ، وتدور في راسه فكرة : « كيف نعمل مع الطروسي ؟ »

ان ابا امين لم ينقل اليه كل شيء ، ولم يكن هو بحاجة

الى ذلك ليفهم . انه يدرك الكلمات وما وراءها ، ويستطيع ان يبعث اليه برجل آخر ، بل بعدة رجال عند الضرورة ، ولكن هذا تهور ، فلماذا لا يتروى قليلا ؟ » يحسن بي — قال فسي نفسه — ان ادع صالح برو في السجن الآن ، لقد كثرت سوابقه ، وكثرت طلباته وفشل ، ولدي غيره ، فالبحارة مستعدون ان يتعاركوا حتى يفني بعضهم بعضا ، والطروسي ، بعد ، لا يشكل خطرا مباشرا ، ومسألته مسألة مزاج ، وسأخضعه مع الزمن . يكفيه الآن بعض الترفيزات ، اني اعرف ما يجري في مقهاه ليلا ، وها هو مخفر الشرطة امامي .

عرج على مخفر الشرطة فلقي فيه الترحاب الحار الذي يلقاه في كل مكان ، وبعد شرب القهوة اختلى برئيس شعبة الامن العام وتحدثا قليلا على انفراد .

قال نديم وهو يرد فتحة غنباره فوق ركبته المكتسية
بسروال داخلي ناصع البياض :

— حدثوني عن المقهى فاشتيت ان اشرب قهوتي فيه .
— اهلا وسهلا ، المقهى مقهاك .

— وهناك سبب آخر لزيارتي ، هو انني صديق شقيقك
واحب ان اكون صديقك ايضا .

كان الرجل صادقا ، والطروسي يعرف هذه الحقيقة ،
الا انه قال في نفسه :

« هناك سبب ثالث للزيارة ، وهو الاهم ، فقله بدون
مقدمات » .

— كيف الشغل ؟

— ماشي الحال ، نعمة الله واسعة .

— في المستقبل يتحسن ، وطالما انك تركت البحر نهائيا
فلا بأس بالمقهى .

« تركت البحر نهائيا ؟ من قال هذا ؟ ولماذا انا مقيم
هنا اذن ؟ »

— في الحقيقة لم اترك البحر، لكن الظروف لا تساعدني
الآن على العودة اليه . لقد غرق المركب ولم استطع تعويضه،
فقلت في نفسي لا بأس بالعمل في هذا المقهى مؤقتا .

— خير ما فعلت، واذا رغبت بالعودة الى البحر واحتجت
الى شيء فاني مستعد .

— اشكرك ، اذا احتجت الى شيء فلن اتأخر .

— لا تتأخر ابدا ، مساعدة بعضنا لبعض واجبة .

— في الوقت الحاضر لا احتاج الا الى رحمة الله .

— رحمة الله قبل كل شيء، ولكن الكف لا تصفق وحدها .

— الكف القادرة تصفق .

ابتسم نديم راضيا مفتونا ، وقال بجرس صادق :

— حدثوني عنك ، وكنت انتظر منك هذا الجواب .

٧

واختلى الطروسي ، في احد جوانب المقهى ، بنديم مظهر
الذي تسيطر عائلته على حركة الشحن في المدينة ، وصاحب
النفوذ الاول في حي « الشيخ ظاهر » كله .

ومنذ ما دخل نديم المقهى، عرف الطروسي الهدف من
زيارته . كان آل مظهر يرغبون في الحظ من مكانة ابي رشيد،
وهم لا يجاهرون بذلك، ولا يعملون له علنا ، انما يتمنونه
ويشجعون عليه سرا . وقد قال الطروسي في ذات نفسه
عندما رآه « جاء ليساومني ايضا !! » وقام ، من ثم ، يرحب
به، فزيارة نديم ، مهما تكن دوافعها ، لا بد ان تلقى الاكرام،
ذلك انه رجل يعتد بساعده ، وله شبابه ووجاهته ، ويسير
مختالا بقامته الفارعة ، وكتفيه العريضتين ، ووجهه المورّد،
ولباسه الفاخر ، وله مجلسه في مرآب « الشيخ ظاهر »
الكبير، وله انصاره والمنتفعون منه، ونفوذه وسطوته . انما لم
يكن على صلات بزعماء المدينة التقليديين ، لانه ، بحكم عمله ،
يرتبط بشركات النقل والمصدرين والمستوردين والصناعيين ،
ويؤيدهم في الانتخابات، ويقف، غالبا ، ضد الذين يدعمهم
ابو رشيد ، ومن هنا يبدأ الاحتكاك بين العائلتين .

والطروسي ، لكونه محبا للرجال الشجعان ، يؤثر نديم
مظهر بحبه، ويفضله على ابي رشيد ، الا انه لا يتصل به مع
ذلك ، ويود ، في قرارته لو ترك وشأنه ، لو بقي بمعزل عن
الصراع بين الرجلين .

وبعد وقفة :

— أنا نفسي قلت هذا الكلام ، وما ازال ، ومع ذلك لا ارفض اليد التي توضع مع يدي ، فلماذا تكابر أنت ؟

ووضع الطروسي رجلا على رجل وقال :

— لتتكلم اذن بصراحة . انت تحتاج الى ايدي الغير لانك تعادي الغير ، اما انا فلا اعادي احدا ولا ارجب قسي معاداة احد ، حتى ولا ابو رشيد نفسه .

— واذا عاداك هو ؟

— عندئذ نفكر .

— وصالح برو ؟

— اسقطت حقتي عنه .

— غدا يخرج بكفالة . . الواسطة كل شيء اليوم .

— حين يخرج نتكلم .

— نتكلم بعد فوات الاوان ؟

— لا بعد الاوان ولا قبله ، في الوقت المناسب ! .

وابتسم نديم للجواب مرة اخرى : « لا بعد الاوان ولا قبله ، في الوقت المناسب » يا للثقة بالنفس !

وانعطفا ، بعد هذا ، في شعاب اخرى من الحديث . كانا ، رغم التباعد والحذر ، قريبين نفسيا ، والصدقة المقترحة بينهما قد لاقت تربتها فعلا ، وارتاح الطروسي لصاحبه ، فلما غادر هذا المقهى كان شعور بالاعجاب يعمر قلبه ، وقال عنه في « الشيخ ضاهر » : « هذا رجل مقدم ! » وكان هذا الاحساس متبادلا ، فقد اوصى الطروسي ، بعد انصراف نديم ، على فنان من القهوة ، وجدد سيكارتة ، وتكوم شيئا ما على نفسه ، واغرب في تفكير متناقض ، فيه سرور وفيه اسى . لقد اصبح ، دون رغبة منه ، موضع اهتمام الناس ، ولو وقع هذا في وقت آخر ، ومع رجل آخر ، لكان مدعاة للسرور والتباهي ، اما في مثل حالته ، ومعه بالذات ، فقد كان مجلبة

للسرور والتنقيص معا . انه يعرف قيمة زيارة نديم مظهر ، ففي احياء المدينة يتطلبونها ، ويتكسب بها بعضهم نفوذا ، وكان نديم يزور انصاره متعمدا ، فمن حين الى حين يزور الذين وضعوا انفسهم ، لسبب او لآخر ، تحت رعايته ، وكانت الزيارة ، في هذه الحال ، تأخذ شكل الدمع المعنوي ، فاذا ما احتاج الامر لتأييد مادي ، اقدم غير مبال ، ذلك ان سطوته تتمركز في « الشيخ ضاهر » وتتفرع في الاحياء الاخرى ، وبقدر ما كان حريصا على نقطة الارتكاز ، كان حريصا على نقاط الاستناد ، وفي سعيه هذا الذي يتخذ صفة المسيرة حيننا ، والقصد حيننا آخر ، كان يفتقد النصير القوي في الميناء ، وها هو الطروسي يظهر بين الصخور اخيرا ، دون سند او حماية ، ويقف في البطرنة ثابتا ، ويلقي بصالح برو من فوق صخورها ، ثم يتحداه ويسقط حقه الشخصي عنه ، مع علمه بأنه يتحدى ابا رشيد نفسه اذ يفعل ذلك .

لكن الطروسي ليس بالرجل الذي يقبل ان يسطنعه الآخرون ، وما ان انصرف نديم مظهر حتى قال مصمما « لن اسير في هذه الطريق ، ولن اكون طرفا في اي نزاع من هذا النوع . انا هنا بانتظار ساعة الابحار . انني في جوار البحر ، ومن اجله فقط يمكن ان اقاتل ، اما اذا تركت وشأني فلن اكون مع هذا ضد ذاك ، انا الطروسي ولست صالح برو » اطلق جملته الاخيرة وزفر ، مخرجا الهواء الكدر الحبيس ، ثم استنشق رائحة البحر ، ورنأ الى الافق البعيد ، واستعرض عيشه النكد على هذه الصخور ، وحياته الخالية من كل مسا يبهج وينشط ، وذكر ماضيه . . ما كان اجمل ماضيه ، ايعود مرة اخرى الى ماضيه ؟ ايستأنف البحار رحلته بعد انقطاع ؟ انه السؤال ذاته ، والاستفهام الكبير المرتسم ابدا في لوحة ايامه . ولئن كان يحسه سابقا شوكة تخزه ، فانه ، في هذا الجو الكدر ، يشعر به مطرقة تدق صدغيه في طلب الجواب .

وكان الجواب في الغيب دائما . هو يؤمن بأنه بالغ ما يريد . اما متى يكون ذلك : في اي اسبوع ، في اي عام ، فانه لا يدري . كل ما يعلمه انه توقف يوما عن الإبحار وما زال كذلك . كان في الخامسة والأربعين من عمره حين حدث ذلك . هو يذكر التاريخ ولا ينساه . انه تاريخ غرق « منصورته » التي ترقد الآن بسلام في قاع البحر . كانوا ينادونه « الرئيس » ، وله مركب ينقل الحبوب من سورية الى قبرص وحيفا ويافا والاسكندرية ، وبالمقابل ينقل الخشب من شواطئ رومانيا الى سورية ولبنان وفلسطين . كان المتوسط بحيرته وارضه . انه يعرف جيدا ، يعرف دروبه دربا دربا . ولديه بوصلة ، لكن بوصلته الحقيقية هي النجوم : الكوكبة ودرب التبانة ونجمة الصبح . وهو لا يقرأ غير العربية ، ومع ذلك علق في قمرة المركب خريطة اخذها من بحار ايطالي مقابل سطل من النبيذ ، ووضعها ثمة للزينة لا لشيء آخر . انه لا يقرأ لفتها ولا ينظر اليها الا مصادفة . . ولماذا يفعل ؟ من نظرة الى البحر ، والمركب يجري ، يعرف كم الساعة ، ومن مدينة الى اخرى يعرف المسافات بالساعات ، وكان همه ان يحطم ارقام الساعات ، ان يصل قبل غيره ، وكان يصل قبل غيره فعلا . ان له كفه التي ما رفعها مرة الا عرف مجرى الريح وتقلباتها ، وله قدمه التي تدرك ، من اهتزازات الماء ، ما سوف يكون عليه البحر ، وكانت المغامرة ، بعد ، شيئا في دمه ، وكان ، الى هذا ، يحترم البحر فلا يتحداه ولا يبصق في وجهه .

— هذا ملك ! البحر ملك !
يقولها بكل ما في وجدانه من ايمان بها ، فاذا واثق الريح صاح بالبحارة :

— افتحوا الخام يا اولاد واعطوني الدفة . . افتحوه كله ، كله ، واجعلوا فتحته الى البر ، ودعوني اسبق لاصل .
— ولماذا السرعة ؟ الريح طيبة يا ريس !

فينظر اليهم بعين ويفمض الاخرى ، ويهز براسه قائلا :
— اعرف انها طيبة والا ما فتحنا الخام ، ولكن الريح لا تؤاني كل ساعة . الريح كالمرأة ، سريعة القلب ، كثيرة الدلال ، فاذا اعطتكم المرأة وجهها ، هل تتركونها دون ان تضعوا يديكم وراء ظهرها ؟

وينظر في البحر امامه وقد استشير ، ويتابع :
— في رأسي افكار لا اعرف كيف اشرحها . انا عنيد ، كافر ، مؤمن ، اريج وانفق ، اشرب واحب وآخذ حظي من الحياة ، واخالف الدين طمعا في المفرة ، ولكنني لا اشرب من بشر وارمي فيها حجرا ، ولم أقض ليلة مع امرأة الا شكرتها وتمنيت لو ان معي زهرة اتركها لها على الطاولة .

ويضحك البحارة ويتغامزون :

— الرئيس قرمة ! ابن زمانه !

ويقول بعضهم :

— البحر يعلم الانسان ، خي !

فيوافقهم على رأيهم :

— اذا لم يتعلم الانسان من البحر فلا امل له بالتعلم ابدا . . البحر مدرستنا .

وحين يقول ذلك يبدو متواضعا جدا ، ويشبه في لهجته وحركاته ، طالبا انقطع الى مدرسته . . اعطاها كل حياته ، وحبس نفسه ، راضيا مختارا ، بين جدرانها .
وكان في الليل ، وفي السحور ، وفي اي من ساعات

السفر ، يقوم ويتجول في كل اطراف المركب : يتفقد البحارة ، يصلح وضع الخام ، ينزل الى العنبر ، يدور كحارس يقوم بواجب الحراسة ، شاعرا انه راع والبحارة رعيته والمركب عالمه الصغير .

— من اجل هذا نحبك يا ريس ! انت ابونا واخونا الكبير .
— انا واحد منكم . ليس لي اولاد قانتم اولادي .

ولم يكن له ، فعلا ، زوجة واولاد .

— ولماذا لم تتزوج يا ريس ؟

— نصيب ! حين كنت في سن الزواج ، لم اكن قد شبت من العزوبية ، ولما شبت كان وقت الزواج قد فات ... انا انسان لا تستطيع امرأة واحدة ان تضبطني ، ثم هناك سبب آخر ، فالبحار النازل الى البحر كالجندي الذاهب الى المعركة ، لا يعلم ايعود ام لا ، وقد رأيت كثيرا من اراذل وايتام البحارة ، فادمى منظرهم قلبي وخفت الزواج وانجاب الاطفال . كله نصيب ، هذه اعداء ، الصحيح انني لم اعلق في « فح » امرأة بعد .

— وماريا ؟

— هذه لا تريد الزواج .

— وغيرها ، يقولون ان لك في كل مرفأ امرأة !

— من قال هذا ؟

— ولماذا تخبىء ؟ كل البحارة يعرفون !

— وانتم ؟ لكم صاحبات ام لا ؟

— نحن على باب الله ، دراويش !

— فشرتم ! البحار له في كل مرفأ امرأة وخمارة .

— ما كل البحارة .

— طبعا ، ولكن هذه قاعدة . البحار يغيث عن بيته عدة شهور ، ورائحة البحر تهيج الرجولة ، وهذه رأسمال البحار ، اذا لم يكن رجلا لا يصبح بحارا ولو قضى حياته في الماء ،

وللرجولة حقها ، ونحن نتصرف بموجب هذا الحق فمن يلومنا ؟ لو كان لي زوجة لاوصيتها ان تقول لاولادي كلمتين : « كان ابوكم ذكرت (١) وكريم » هكذا كان وهكذا يجب ان تكونوا .

— واذا لم يكونوا ؟

— اعتبرهم ليسوا اولادي . قد تكون امهم حبلت بهم من غيري ، فالبحار يغيث ويغيث وامراته تنتظر وتنتظر ، وقد تمل هذا الانتظار ، وتقع يوما في التجربة ..

ويضحك البحارة ويقولون :

— لا تجعلنا نشك بزوجاتنا .

— معاذ الله ! انا اقول هذا عن بحارة العالم (ويهز برأسه ويضيف مازحا) يا اولاد الكلب ، تعلموا ان ترضوا زوجاتكم اذن ، وفروا قوتكم حتى تعود ، وسنرى ما تفعلون حين نصل .

ويعود الى جده فيقول :

— ما قضيت ليلة مع امرأة وعرفت انها زوجة بحار الا واحسست بالندم . شعرت انني اخون حق الزمالة ، فاتوب ، ولكن توبتي لا تطول ، حياتنا قاسية يا جماعة ، فبعد شهر في البحر يشفق الإنسان الى الارض ، ولا نصل الى مرفأ حتى اجد نفسي مدفوعا الى المعصية ، واقول في نفسي « تستر يا رجل ! » واردد الحديث « واذا بليتيم بالمعاصي فاستتروا » ولكن الرمح لا يختبئ في شوال ، وها انتم تعرفون كل شيء ، لعنة الله عليكم .

— ولهذا لم تتزوج ! اعترف بالحقيقة .

— ربما ! ربما ! وقد اتأسف في المستقبل لانني لم اتزوج ولم انجب . صدقوا انني لا اغار ، لان امرأة تكون كي لا تكون

(١) ذكرت لفظة شعبية تطلق على الشهم ، الشجاع .

قال في نفسه : « لماذا لا أعود صيادا من جديد ؟ من هنا ابدا .. الصيادون يرحبون بي : « على الرأس يا طروسي ، ما تكرم يا خي ، الفلوكه فلوكتك ، رح معنا والرزق على الله » . وراح معهم من جديد فوجد الزمن قد تغير ، وزوارق الصيد لا تترك لصيادي الفلألك شيئا . كل شيء يتبدل بسرعة ، وصناعة البحر نفسها أصبحت تجارة ، والتجار لا يعملون ، والبحارة أصبحوا أجراء ، وهو لا يطيق أن يكون أجيرا عند احد .

هذه الصخور ، بين الطابيات ، والرمل ، قطعها سيرا عشرات المرات ، جلس فوقها ، انحدر بين شعابها ، صعد الى قممها ، مشى على الشاطئ الرملي ، قرفص على حافة الماء ، نكث الأرض ، كتب على الرمل ، صبر طويلا ، ثم ضاق ذرعا بكل شيء ولكنه لم يستطع أن يترك البحر ، أن يذهب الى المدينة ويترك الميناء .

وخطر له ، وهو يفكر بالمواني التي زارها ، أن يفعل كما يفعل البحارة المسنون في روماتيا وإيطاليا والإسكندرية ومرسين . غير أنه استبعد أن يكون صاحب خمارة ، ولو أراد ذلك لما سمح له ، فلم يبق عليه إلا أن يفتح مقهى صغيرا ويسترزق .. وماذا في ذلك ؟ أنه ، على كل حال ، يظل على مقربة من البحر ، ويصبح مقهاه ملتقى البحارة .

ولكن أين يفتحه ؟ وأنى له المال ؟ وهل يستدين ؟ ومن يدينه ؟ بحارته القدماء تفرقوا ، بعضهم هاجر ، وبعضهم عمل في مراكب أخرى ، وبعضهم مات ، وأصحاب المراكب لا خير فيهم ، ولن يطلب منهم ، وأصحاب البضائع كانوا يدفعون « للمنصورة » وليس له . كان صاحب مركب ذات يوم ، ريسا معروفا ، أما الآن ؟ لا شيء ! مجرد بحار ، والذين لم يكونوا شيئا ، ربحوا من ظهر بحارتهم واغتنوا ، ولو ذهب اليهم لساعدهم ، لكنه يحتقرهم : « هؤلاء قراصنة ، بل أدنى !

القرصان قاطع طريق ، وربما فعل ذلك لحاجته ، أما هم فمرابون ، يهود يعبدون المال » .

طرح الفكرة عنه ، وظل يضطرب بين المدينة والميناء ، يلوب ، يذهب ، يجيء ، يحسد الصيادين على صبرهم أطويل ، ويشعر أنه عاجز حتى عن أن يفعل مثلهم ، أن يجلس نهارا كاملا ينتظر السمكة لتأتي فتأكل ولا تعلق .. « يا للزمان العكروت ، كيف غرقت المنصورة !؟ »

عشرات ومئات المرات فكر كيف غرقت المنصورة ، وعشرات ومئات المرات حاسب نفسه ، ونقب عن أخطائه ، وكان ، في كل مرة ، يجد أنه فعل كل ما يمكن أن يفعله بحار ، وأنه لم يرتكب خطأ يندم عليه . كانت العاصفة أقوى فانتصرت عليه وانتقلت ، وهوت « منصورته » الى القاع . ضاعت كما ضاع كثير غيرها ، فإذا كانت الباخرة « تتانيك » التي كتب عليها أصحابها « لا تحرق ولا تغرق » قد غرقت فما وجه الغرابسة في غرق « المنصورة » ؟ الفارق الوحيد أن أصحاب « تتانيك » شركة وأنه فرد ، لقد بنوا واشتروا غيرها ، أما هو فقد عجز عن البناء أو الشراء . وظل يتحسر والحسرة لا تفيد ، فليتعز بسواه ، فمن رأى الى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته .

أما البحر هو « المصيبة » التي لم تهن عليه : كيف ؟ وهل يعيش بعيدا عنه ، محروما من الأبحار على متنه ؟ أبدا ! وهل يظل أجيرا عند الناس ؟ أبدا أيضا ، إذن فما العمل ؟

وفيما كان يجلس على صخور « البطرنة » ويرنو الى البحر ، ويتأمل السفن والمراكب والفلألك والمجاذيف والمراسي والحبال والصواري والأشعة ، كل ما يذكره بأمسه ويوحشه في يومه ، جاء بحار وربت على كتفه وجلسا يتحدثان ويستعيدان ذكريات البحر وأخباره وقصصه ، ويقول أحدهما للآخر كل ما في صدره .

هكذا قام المقهى في الاصل، وهكذا استقر الطروسي بعد طول اضطراب. كان عليه أن يجد مصدرا للرزق فوجد، وكان عليه أن يحمي رزقه فما تأخر، وعرف ان لا بد له من الكفاح ليبقى فكافح وبقي، ولم يترك البحر ولا غادر الشاطئ.

ان خيمة تستند مؤخرتها الى صخر، وتنهض مقدمتها على دعامتين خشبيتين، وتعلوها اغصان الدلب والغار، وتطل على البحر من كل جهاتها فتستقبل انسامه ورياحه، وتصفى الى همس مائه واضطراب موجه، وترقب، في كل يوم، هدوءه وثورانه، يحلو لاي انسان ان يشرب قهوته ويدخن ناركيلته فيها وان يقضي ساعة من ليل او نهار راضيا سعيدا تحتها، فكيف يقوى المرء على تركها؟ وكيف يستطيع هو بالذات ان يتخلى عنها؟

على ان الخيمة تبدو جرداء مقفرة في الشتاء. العواصف تمسك بها وتهزها، فيقرقف ورق الغار والدلب، وتضطرب الاعمدة الخشبية، وتتخلع المسامير وبهتاج البحر، ويتبلل الجالسون فيدخلون المقهى ليتابعوا حكاياتهم، ويطرشفوا قهوتهم، ويدخنوا النراكيل، ويتسقطوا اخبار الصيد وتقلبات الجو.

وكان المقهى، من الداخل، عاريا الا من بعض اعلانات افلام ما قبل الحرب، تطل من اكبرها صورة عبدالوهاب بطربوشه القصير ونجاة علي بعينها الجاحظتين وشعرها

في هذه الامسية شكا الطروسي. كان البحار صديقه، ويعرفه صاحب نخوة ورجولة، فياح له بما يعذبه. قال له انه فكر في افتتاح مقهى فلم يجد المال. ولم يكن البحار يملك مالا، الا انه كان مدبرا، فاقترح على الطروسي ان يكون المقهى بسيطا: بضعة كراسي وبضع طاوولات وخيمة على هذه الصخور.

— هيا يا رجل، والله فنجان القهوة بلسم في هذا الجو .. انا اول زبون عندك، انتظرنى وسأعود.

واغتبط انطروسي لكلمات صديقه، اتبعه نظره وهو يذهب « كم في الدنيا من اصدقاء اوفياء؟ لا بأس بالانتظار يا طروسي، الناس بعضهم لبعض ».

وعاد الصديق ببعض المال. هل كان يذخره؟ هل استدانه؟ هل باع حلى زوجته، هل رهنها؟ كل هذه الاسئلة جالت في خاطر الطروسي وهو يأخذه منه ويشكره عليه، فما زاد صديقه ان قال « دبرها ربك، ابدأ العمل من صباح الغد »

وفي صباح الغد جاء الطروسي باكرا. انتقى صخرة كبيرة مجوفة، امامها منبسط صخري، واتى بزند من الحديد وراح ينقر الصخر، ويسويه، ونقل الحصى والرمل وملأ التجاويف، ثم استدار الى تجويفة الصخرة وبدأ باصلاحها، وجاء بالخشب فصنع خيمة، واصبحت الصخرة وراء الخيمة كهفا، وضع فيه الموقد والدكة الخشبية، واشترى بعض الكراسي والطاوولات، وابتدأ العمل .. وجاء بعد مدة ابو محمد، « المقطوع من حجر » كما يقول عن نفسه، وعمل معه، واتخذ المقهى من اول ليلة مكانا للعمل والمبيت.

المقوص جديلتين الى وراء، في استدارة حول الراس تزيد من إبراز جبهتها العريضة الناتئة ، وقد وقفا حول شجرة رسم على جذعها قلب يخترقه سهم ، وفي راس الاعلان هذه العبارة « دموع الحب » وفي صدر المقهى رسم آخر بالحجر لرجل غليظ الشفتين ، هرقلي الجسم ، كبير الشاربين ، معقوفهما الى اعلى ، كتب تحتها بخط رديء « عنتره ابو الفوارس » .

وعلى يسار الداخل دكة خشبية طليت بدهان ازرق لم يبق منه ملح البحر سوى آثار ، وعلى استطالة الدكة المجوفة التي تتحول في الليل الى سرير ينام عليه الطروسي احيانا وينام في داخله ابو محمد دائما، تفرقت اقداح وفناجين ، وتدلّت من السقف شصوص وصنارات ، واستندت قصبات الصيد في الزوايا ، وتكومت الشباك عند الباب ، وكان البحارة ينحشرون في المقهى متلاصقين ، يلعبون ويتصايحون ، ويحلون مشاكلهم ويعقدونها ، ويذهبون ويجيئون ، ويبدأون ويعيدون ، ويجدون كل ما يبتغون : الرئيس يلقي بحارته ، والبحارة ريسهم ، والمقاولات تجري ، والصفقات تتم ، والمشاجرات تنشب ، والمشكلات تسوى ، وجميع الاعمال البحرية تلقى لها سوقا رائجة على نحو ما .

وكانت عمليات التهريب لا تنقطع . تجري علنا حيناً ، وسرا حيناً آخر ، ومن وراء ظهر الطروسي احيانا ، لكنه لا يلبث ان يكتشفها فيتهدد ويتوعد ويصيح بالبحارة :
- لا اريد هذه اللعنة في مقهاي .

ويصيحون بدورهم :
- اتركنا نسترزق ، عندنا عيال !

ويثور بهم ، ويقسم ان يمنعهم . ثم تهدأ نائثرته ، ويدير ظهره ، ويقول في نفسه « التهريب جزء من حياة البحر ، جزء من حياة البحارة ، وهم ، كما قالوا ، اصحاب عيال ، فلماذا

اعترضهم ؟ ولماذا اقطع رزقهم ؟ هذه عادة المرافيء ، ولن اغيرها » .

شيء واحد يوصيهم به :

- لا تستغلوا وجود المقهى ، تكفيني متاعبي بسببكم .
- نحن لا نفعل اي شيء ياعم ، القطة تأكل عشاءنا !
- وغداؤكم ؟ من يأكل غداؤكم ؟ قولوا .
- وماذا نفعل ؟ الا ترانا مثل فقراء الهنود ؟
- نعم ! انتم عقلاء مثل « بنات الراهبات » ، وانا كذلك مثلكم ، لكن لا تنسوا اننا اولاد كار واحد .

فيضحك البحارة ، ويظهرون الاذعان ، ثم يتابعون لعبة التهريب ذاتها . فاذا كان الصيف تفرقوا وخفت ضجتهم ، واذا كان الشتاء تجمعوا وثقبوا اذنيه بصياحهم ونقارهم .

على ان المشكلة الصعبة ، بعد الصباح والشجار ، كانت رطوبة البحر التي تفسد السكر والملح وتذيبهما . فحفر الصخر وصنع منه شبه صندوق ، واقام للمقهى بابا خشبيا ، ومع هذا لم تسلم مؤونته كليا ، انما اصبحت الامور ايسر قليلا .

عقبة اخرى تغلب عليها ، تلك هي ضبط النظام داخل المقهى ، فقد اعتاد الصيادون ان يدخلوا حاملين شباكهم وسلالهم وقصباتهم وصناراتهم وحتى مجاذيفهم المعطلة وحبالهم المقطعة احيانا ، ويلقون بكل ذلك قمي ارض المقهى او في بابه ، او على الطاولات والكراسي ، او يجلسون فوقها ، ويسدون الطريق ويفسدون كل شيء .

ولم يطق الطروسي احتمال هذه الفوضى . اجبر الجميع على وضع اشيائهم في الخارج ، وتعهد بالمحافظة عليها ، ونصح بعدم ادخالها ، وتصايح ، وتشاجر ، وافلح نسبيا ، فقتنع بذلك ليقينه ان البحار لا يخرج من جلده ، وان مقهى البحارة لا يصير مقهى ذوات ، وان لكل فئة جوها ، وانه هو شخصا

يحب هذا الجو ، وربما افتقده لو غاب عنه .

وكان هذا الجو لا يكتمل الا بعناصره واجزائه كلها ، وكانت هذه العناصر والاجزاء تفرض نفسها بأي شكل ، وكان الطروسي يقابلها بصبر تارة ، وبضيق طورا ، ويدفعها بالاحسن ، ويدفعها بالاسوأ ، لكنه لا يهرب منها ولا يتخاذل امام مصاعبها . دخل السجن مرة ، ودفع الفرامات مرات ، وعرف انماطاً من المهريين ، واصنافاً من المحتالين ، وضروباً من الخبثاء ، وضروباً من الطيبين ، وارتاح الى بعض الزبائن ، ونفر من البعض ، وكره اشياء ، وتآلم لبعض التذلات ، ونعم ببعض الصداقات ، وظل ، في كل ذلك ، على انفته ، عصياً لا يسلس قياداً ، وعزيراً لا يخفض جناحاً .. ظل بحاراً يدير مقهى على الشاطئ .

انما الشاطيء ليس صخراً فحسب ، ولا رملاً او ماء فحسب ، انه ناس كذلك ، وشئون ، وشجون ، ودنيا حافلة ، متنوعة ، متجددة ابداً ، لا غنى لمن يعيش فيها ان يشارك في وجوه نشاطها . ومع كل رغبة الطروسي في تجنب ما لا يعنيه ، ومع حرصه على النأي بنفسه عن شئون الميناء ، وجد نفسه مسوقاً الى ان يرى رأياً في امرها ، ومن هنا عنته حياة الآخرين ، وانجرف في تيارها ، وحدد موقفه من بعض امورها ، فتعرض بسبب من ذلك لتنقمة ابي رشيد ، وتعارك مع صالح برو ، وثبت رجله في ارض المقهى وقال « انا هنا وسأبقى ، وليطبخ ابو رشيد احمض ما عنده » .

١٠

تابعت الحياة سيرها المعتاد ، وانسحب ظل النسيان على حادثة ابن برو ، وخمدت فورة غضب الطروسي فاستأنف مجلسه على الصخرة ، وعاد المقهى الى طبيعته ، ورجع الزبائن الى لغوهم واحاديثهم ، كان شيئاً لم يقع بين البطرنة والميناء . وجلس الطروسي كعادته على دكة المقهى يشرب قهوة الصباح ويدخن سيكارتة ويفكر ، متأملاً الاشياء من حوله ، والاشياء في ذاته ..

كان المقهى على شيء من الترتيب والنظافة اليوم . ولو صنفت المقاهي على اساس من ترتيبها ونظافتها لكانت درجته منخفضة جداً ، ولكن ماذا في وسع ابي محمد حيال مشاكسة البحارة ؟ لقد يحلو لهم ان يضعوا اغراضهم على دكة المقهى نفسها ، فيحملها ابو محمد ويضعها جانباً ، او يمسك بها الطروسي ويلقيها خارجاً ، ويقسم ان سيرميها في البحر ان رآها على الدكة مرة اخرى ، ويعود فيراها مرة اخرى ، بل مرات اخرى لا نهاية لها .

اذن فقد كان المقهى نظيفاً مرتباً في هذه الحدود المجازيف والحبال ملقاة على الصخور ، والشباك مجففة عليها ، والفلائك مربوطة الى اوتاد حديدية امام المقهى ، وكويمات من «الفلين» والاسفنج وفوارغ العلب ومزق الشباك تنتشر هنا وهناك . السلال والقصب والصنابير وحدها وضعت في الداخل وانتشرت من هذا الخليط كله رائحة السمك والملح والفار والقلفون . وجلس الطروسي يستقبل هذه الرائحة ولا ينكرها ،

وينصت الى البحارة ولا يقطعهم .
كان من عادته الا يتدخل فيما يتحدثون . يعرف هذه
الاحاديث التي تدور عن المد والجزر والنوء والصيد وشئون
البحر الاخرى، اما اليوم فقد اختلف الحديث ، ونحا به صياد
منحى المغالة والمغالطة . فقد زعم ان المعجن افضل الطعموم
للبوري ، والريح الشرقية انسب الرياح للصيد ، وكان
الصيادون يجادلونه فما يزداد الا تعنتا ، وقد كره الطروسي
منه ذلك فانتهره :
- بلا خلط !

ولامر ما تعمد الصياد المناكدة فصاح به الطروسي :
- اي تعال علمني الصيد .. ما بقي غير هذا !
واضاف بعد وقفة :
- يا ابني لا تجادل ، انت البارحة طلعت على الدنيا ..
قال الصياد :

- صحيح ، ولكن لكل زمان دولة ورجال ..
- ماذا تعني .؟ هل انت رجل هذا الزمان ؟ وهل
اصبحنا نجعل البحر لاننا نشغل في مقهى ؟
- اذا تركت الشبيء تركك .

وضع الطروسي الفئجان على الدكة مفضيا ، والتفت
الى الرجل وقال بنبرة حاسمة :

- بلا فلسفة .. كلام الرجال على رأسي ، اما كلامك ! ..
(واضاف) قالوا لك البوري لا يأكل المعجين ، والريح الشرقية
تطرد السمك الى الداخل ، فلماذا تجادل في الحسوس ؟
ولماذا لا تتعلم اذا كنت لا تعرف ؟ أهذا كلام صياد ؟ وانت ،
صياد انت ؟ وهل تحسب ان الانسان يتقن الصيد اذا وضع
رجله في الماء ؟ لا يا ابني لا ، الصيد مهنة صعبة .

قال كلماته بحدة ، ثم امسك فجأة كأنما شعر بتفاهة
الموضوع فرغب عن الاسترسال فيه ، وربما ارضاه سكوت

الصياد ، او ندم على مناقشته وزجره ، فجعل يدخن ، ويتفرس
في سقف المقهى ، ويرسل نظراته عبر الباب ، كمن يتوقع
قدوم شخص ينتظره ..

في هذه اللحظة علا صوت انفجار على الشاطيء ، فصاح
البحارة « ديناميت ! » وقفز الطروسي عن الدكة واسرع
خارجا ، ووقف على الصخرة الكبيرة ونظر فيما حوله ، ثم
انحدر بين الفجوات ، وراقب الماء ، وتلفت ، وانصت ، ولما لم
يجد ضارب الديناميت ، ولا عرف في اي مكان من البحر
القي ، عاد الى المقهى منزعجا يقول :
- سأعرفه .. غدا نتحاسب .

فمد خليل العريان لسانه على جاري عادته وقال :
- حلمك على الناس خي ، ليس الترفزة ؟ الصيد ما
له قانون ، اليوم نسطاد بالشبكة ، وغدا « بالمطرين » وبعد
بالديناميت ، ثم السجن وضراب السخن ، هذه حياتنا ابوزهدي !
قال الطروسي وهو يتسم بالرغم عنه :
- انا افهم ما تقول يا خليل . ليس للصيد قانون ،
وفشر من يقول غير ذلك ، لكنني لا احب الصيد بالديناميت
لانه يقتل صغار السمك . وهذا الصيد غدر ، غدر لا حرام ،
لان الذين في السراي لا يعرفون الحرام حتى نعرفه نحن ،
والمسألة وما فيها انني لا اجد فيه لذة ، فهل تجدون فيه لذة انتم ؟
- لذة ؟ لا ، لقمة عيش ، هذا كل ما في الامر .

- جاز ! لا بد للانسان ان يعيش ، غير ان رجال
الجمرك والشرطة سيأتون غدا ويسألونني : من رمى الديناميت
يا طروسي ؟ وانا اعرف الدين يرمونه لكنني لا اقول : لذلك لا
أريد صيد الديناميت في هذه المنطقة ، والحاضر منكم يعلم
الغايب والسلام .

انقلب شيء ما في جو المقهى بعد خروج الطروسي منه .
الريس محمد الصوفي لم يعجبه الحديث ، فما ان قال خليل

العريان « كلام الطروسي مسك » حتى انتهره :

— لا مسك ولا بطيخ .

— لا تزعل من الحق يا عم .

— لا ازعل من الحق بل من الاستبداد . الطروسي

يستبد بالصيادين ، فمن الذي جعله مسئولاً عن المنطقة ؟

قال خليل العريان يطيب خاطره :

— يلعن الديناميت وساعته . ما فيه غير الخطر . ابن

ابو شفة راحت يده ، ورمضان انقطعت اصابعه ، وعبدالرحمن

في السجن ، والبحر ، على كل حال ، واسع ، اي ما بقي

غير البطرنة ؟ روحوا للرمل ، لابن هاني ، للفنار ، الدنيا واسعة .

اصر الصوفي على رايه .

— مهما كانت واسعة لا يجوز هذا الشغل ، اذا كان

محموقاً من ابن برو فلا يفش خلقه في الصيادين .

ورفع ابو محمد رأسه عن ركوة القهوة وهم ان يقول له

« اذا كان هذا الشغل لا يرضيك فقل كلامك في وجهه

الطروسي لا في قفاه » الا انه مضغ الكلمات لدخول اثنين من

رجال التحري ، اقتربا منه وسألاه :

— اين الطروسي ؟

— خير ان شاء الله !

— لنا معه شغل .

كانت اللهجة جافة ، فاكتفى ابو محمد بهز كتفيه وقال :

— لا اعرف ! الطروسي لا يقول اين يذهب .

ولما خرجا تساءل مغموما :

— ما القصة يا ترى ؟ كيف اوصل له اشارة ؟

ثم سلا قائلًا في نفسه :

— وليش الخوف ؟ الطروسي يدبر حاله .. ما هذه

اول مرة يسألون عنه ، ربما جاءوا لاجل الديناميت او لاجل

ابن برو ، غدا نعرف السبب .

رجع رجال الامن في الليل ، ففتح اثنان منهما الباب
ودخلا بكياسة . كانا على اعتقاد ان الطروسي موجود ، فلما
لم يقعا له على اثر سألوا عنه ، فقال لهما خليل العريان :

— ما شفت وجهه من الصبح .

— وابو محمد ؟

— مريض .

وتهامسا ، وسأل احدهما :

— وابو حميد ؟

— لا اعرف .

— الم يكن في المقهى اليوم ؟

— ما شفته .

واراد صاحب الاسئلة الاستمرار في الكلام ، بلل
واصطناع القسوة ، الا ان رفيقه ضغط على يده وغمز
فخرجوا . وتعالى ، بعد قليل ، انات ابي محمد من وراء الدكة :
« آخ يا مغربي ، راح اموت ، يا خليل اسقني ، قلبي محروق
يا خليل ، نار في قلبي ياخي » .

حمل اليه خليل الماء وقال :

— جماعتك رجعوا . المسألة ما نظيفة ، اين الطروسي

يا ترى ؟

— ومن يعرف ؟ لا تشغل فكرك ، آخ ، آخ ، يا مغربي

غطني يا خليل ، ضع الحصى فوق ، عاودتني البردية ، آخ .

كان يرتجف ، ويتكلم ، ويتقلب ، ولا يني يطلب الماء .

ان الحمى تحرقه ، وانبرداء تقضض عظامه ، وجسمه ينضج بالعرق البارد ، ويثن انينا متصلا ، ولا يفتأ يذكر الله والمغربي، واسنانه تصر ..

وكانت الظلال تتأرجح في المقهى ، والريح تنوح على وجه البحر وتصفر بين الشقوق ، وكأبة تخيم على الجو ، وانين ابي محمد يزيد الاشياء جهمة ، وبعض البحارة يدخنون النراكيل في الزاوية ، واربعة يلعبون «الباصرة» على ضوء خفيف من انوار محاط بورق ازرق ، والباب الخشبي يهتز بعنف ويبعث صريحا حادا ، وامواج البحر ترتطم بالصخور، فيدوي هدير رعدي القرار ، وتقفز الامواج عن الصخور آتية من الاعماق ، فيتطاير الرذاذ ، ويتساقط الماء من الخيمة الى الارض تساقطا رتيبا .

وعاد خليل العريان الى حلقة الصيادين في اقصى المقهى . كان قد اعد فنجانا من الشاي لنفسه ، واعتدل مزاجه واصبح اكثر قابلية للكلام والسهر . ذلك انه لا يعود الى بيته الا في ساعة متأخرة من الليل ، فقد شرب «دمعته» وتعشى وجاء ليسهر ، غير آبه لشيء سوى البحر والصيد.

وتجمع حوله بعض الصيادين ، وبعض الفتيان من الذين يعيشون في الميناء .

كانوا يحبون خليل العريان حبا حقيقيا ، ففسي ليأتي الشتاء هذه ، حيث البرد والمطر ، تصبح حكاياته عالما سحريا يلجئون بابه مخلفين وراءهم كل واقعهم الاليم .

ولقد حاولوا الليلة ان يسمعه فما تكلم .. بلى ..! القى بعض النكات ، ولكنه القاها عرضا ، كتعليق او ايضاح ، ثم اغمض عينيه واستمر في ترشف الشاي .. فلما فتحهما بدا الاحمرار فيهما بفعل ما شرب من العرق وفاحت رائحة كحولية منه ، وتدلّت شفته السفلى كان ارتخاء عصيا قد

اصابها ، وتعثر لسانه ببعض مخارج الحروف، غير ان حديثه ، في حالة السكر هذه ، يصبح اكثر طلاوة وامتاعا .

لقد اقسم « برحمة بطرس » وسكت . حسبوه سيقول شيئا ، ولكنه اغمض عينيه وسكت . آيس لديه ما يقوله ، ومع ذلك فان بطرس لا يبرح لسانه . لقد كان بطرس كل دنياه ، وكانت السمكة الطازجة له ، والقرش الذي في جيبه لمصروفه ، وكان يبذل كل جهده لتنشئته وتعليمه ، ويقول لجيرانه « بطرس فلتة » ، « السرتفيكا » اخذها مثل شربة الماء، وما من كلمة تعسر عليه، يعني الكلام ما مثل النظر » . ودخل بطرس بعد ذلك الصفوف الثانوية ، واصبح شابا ، ثم جاءت سيارة يقودها فرنسي ثمل فدهسته ، ومنذ ذلك اليوم غاص ابوه في حزن قاتل ، حتى خيل الى جيرانه انه سيجنّ لا محالة . كان يبكي ، ويروي قصته لكل من يلقاه ، ويجمع الازهار ويذهب الى قبره ، ويفتح كلامه مقسما برحمة بطرس ، وللناس ان يصدقوه عندئذ ، لان ذكرى ابنه هي الشيء المقدس في ذاته .

وكان خليل طويلا ، ذا انحناء زادت مع الايام ، غليظ الشفتين ، احمر الوجه والعينين اذا شرب ، رائع الحديث عن الصيد وحياة البحر في كل وقت .

وكان احمد ، وهو فتى يعيش في الميناء ، يجلس قربه ويساعده في اعداد الطعام لصيد الفد . ولم تكن كأس الشاي قد فرغت كلها ، لانه اعتاد ترشفها على دفعات ، اما القهوة فيتركها حتى تبرد تماما .

وكان ابو فضل ، صياد الشبكة ، يتحدث عن «الرزق» ويشكو :

— هذه المهنة لم يعد لها طعم .

ففتح خليل عينيه وقال :
- أي والله ، تسمرت البارحة من الصباح الى المساء ،
لم يأكل البوري معي .

سأل احمد :

- وما السبب ؟ البحر شرقي ؟
- لا ، كانت الريح غربية .
- وكيف لم يأكل ؟
- حظ !

فقال صياد في آخر الزاوية :
- لو كنت مكانك ! ..

واستدار خليل اليه وقال :

- نعم ! لو كنت مكاني ! كمل حديثك ..
- كملته ، انت لا تعرف الصيد .
- انا ؟
- اي ، انت !

فهز براسه وفتح عينيه جيدا وقال :

- يا ابو فضل ! بشرفك ، هذا كلام رجال ؟

قال او فضل :

- اتركهم خي ، اولاد ! البحر واسع والرزق على الله ،
ولكن الصيد حظ كما تقول . البارحة اخذت الشبكة ونزلت
من عند الميناء حتى الخضر ولم اصطد غير ثلاثة إفراخ بوري
وزنهم نصف كيلو ، فأخذتهم الى البيت ومررت على ابن بعميرة
الفران ، فناولني الخبزات ولم يطلب حقهم ، عرف انني غير
متوقع . اما اليوم فقد عوضها ربك . اخذت الشبكة ونزلت
وراء الطابيات . هناك الماء رقرق وعكر ، قُضربت الشبكة
حوالي ساعة واخذت الذي فيه النصيب وطلعت ، هه) ووضع

يده على الارض وقبلها (كفاها ربك ، يوم قمح ويوم زبوان
حتى ينقضي هذا العمر .

وصادق خليل قائلا : « اي نعم ، حتى ينقضي .. »

وقال بحار : « سينقضي .. لن يدوم غير وجهه ربك
القيوم . دنيا لعينة ما فيها غير آسقاء » . واضاف بعد وقفة:
مهنتنا انحس المهن ، علم الله او كان الاغنياء مكاننا لانتحروا .
قال ابو فضل :

- الاغنياء ينتحرون من البطر ، ما سمعتم ببنت ميلو ؟
- هذه انتحرت لانها عاشقة ..

قالها احمد وهو يشدد على كلمة « عاشقة » ويعطيها
نبرة خاصة في اللفظ ، فتسلم خليل الحديث وقال :

- برحمة بطرس سقطت قدامي في البحر . كنت بجنب
الصخرة ، احمل الفانوس بيد والمطرين (1) بيد ، وعلى ظهري
التنكة الفارغة ، وامامي اخطبوط ما بقي غير ان اشكه وارفعه
الى التنكة ، وفجأة انشق البحر وغاب فيه جسم ، ثم ظهر
راس ، واخذ يرتفع وينخفض ، وكان شعر اسود طويل يروح
ويجيء من الموج .

- وعندئذ خفت وهربت ..!؟

- انا ؟ برحمة بطرس الذي حرق قلبي ما تحركت من
مكاني ! عيب على الرجال تهرب ، وليس الهرب ؟ اي البحر
اعرفه منطقة منطقة وصخرة صخرة من انطاقيات البر ابن
هانئ ، وما اكثر الذي مر على راسك يا خليل ، ولك مرة
شفت اخطبوط وزنه طن .

- طن ؟

- نصف طن

- لا !

(1) الحريون .

– ربع طن
– ما صحيح
– ٥٠ كيلو
– كثير

انفجر خليل صائحا :

– يلعن دين الذي يتكلم بحضوركم ، بجم !
اضاف :

– ولك كيلو ، نصف كيلو ، بلوط ! خاصوني ، العمى !
وضحك الحاضرون حتى سقط احمد عن كرسيه ، وقاب
ما تبقى في كوب الشاي . ثم اخذوا يسترضونه وهو لا
يرضى ويقسم :

– لا والله ، ما عدت افتح فمي في هذا المقهى .
– طيب اخطبوط وزنه طن ؟ اي هذا كلام يا خليل ؟
– قلنا نصف طن !

– اقل

– والله لم اعد اذكر

– هه ، هذا كلم معقول .

– طيب ! احسبوه نصف كيلو ، الاخطبوط لعبة في
البحر ؟ الاخطبوط في البحر مثل الافعى في البر ، اذا غدرك
راححت عليك .

– وانخلاصة ؟

– الخلاصة كان الاخطبوط امامي ، فرفعت المطرين ،
وقربت « اللوكس » وحكمت الضربة وقلت « يا الله ! » لكن
موجة بنت كلب جاءت في هذه اللحظة ، فانحرفت الضربة
واصاب يد الاخطبوط فقطعتها ، فانكمش اللعين ولقطني من
بطة رجلي ، والتصق فيها وراح يفرز حتى احسست شرايينها
تمزقت ، ومد اصابعه على الرجل الثانية فقلت في نفسي
« ودع الدنيا يا خليل ، يا اسفاه على شبابك ! » ولكن الروح

حلوة يا شباب ، ومن حلاوة الروح امسكت بالصخر لاخرج
فما استطعت . تسمر الاخطبوط في الارض من جهة ، وتكمش
برجلي من جهة اخرى ، ولا فائدة من الشد . خطر لي ان
اصرخ ، وحتى صرخت ، ولكن الدنيا شتاء ، والساحل مقفر ،
وانا وحيد ، قرميت المطرين وسحبت الخنجر من وسطي
(هنا صاح احمد : هاي ! هاي !) ورحت اضرب فيه حتى
تراخت اطرافه وانفكت اصابعه ، فسحبتته وبعته في اليوم
الثاني بيعة محرزة ، ولو لم افعل لمص دمي واغرقني مثل ابن
قويدر .. البحر ما لعبة يا شباب ! البحر غابة ، مثل غابات
افريقيا واكبر ، فيها جميع الوحوش ، لذلك لما سمعت
الجسم يسقط ...

قاطعة بحار :

– اي جسم !؟

– جسم بنت ميلو !

– هه ، رجعنا الى قصتها الآن ، طيب ، كمل .

فتأفف خليل واغتاظ ، لكنه ، لامر ما ، تابع حديثه
قائلا :

– لما سمعت الجسم يسقط تركت المطرين وهجمت ..
جاهدت ربع ساعة حتى اخرجت الجثة الى البر فماذا اري؟
بنت بتياب بيض ، كأنها في ليلة العرس . مددتها على الرمل
وركضت الى المخفر وصحت « الحقوني ، غريق » ولحقوني ،
لكن البنت كانت اعطتكم عمرها من عزم السقطة على الصخر ،
لو كانت بعيدة عنه نصف متر لخلصتها ، برحمة بطرس
صورتها لا تفارق خيالي ، في حياتي ما شفت اجمل منها ،
رحمة الله عليها ، لو لخلصتها لاغتنيت . ابوها يملك الذهب
بالتنكات وبنته تنتحر ! ما عجيبة هذه ؟

قال ابو فضل :

– لا تتعجب ! المال ليس كل شيء ، الاصل راحة البال .

— وراحة البال من اين ؟
— من القناعة ، القناعة كنز لا يفنى !

قال خليل :

— انا استغنيت عن هذا الكنز . اي العمى ! من كثرة
الصبر وصلنا الى القبر .

فصاح احمد :

— قلنا لكم بنت ميلو انتحرت من العشق .. الا
تعرفون انعشق ؟

وتوجه الى خليل العريان قائلا :

— اذا وقعت في العشق تنتحر ام لا يا خليل ، بشرفك ؟
— هذه مسألة ثانية . على زماننا كانوا يتزوجون بدون
عشق . انا تزوجت ام بطرس على العمياني . امي قالت عنها
مليحة فقلت لها هاتيها .. لكن الايام تغيرت ، اولاد اليوم
يقراون الجرايد ويذهبون الى السينما .

— معك حق ، السينما اصل السبب ، افسدت الشباب
والبنات ، دين الذي اخترعها .

— ومن الذي اخترعها يا خليل ؟

سأل ابو فضل جادا :

— ماركو (١) باشا !

— ماركو باشا ؟

— اي نعم ، ماركو باشا لا رحمه الله .

— وكيف ؟

— اي انا مهندس حتى اعرف ؟ سمعت انه اخترعها
وعتبتكم على الذي فهم غير هذا ، بطرس كان يقرأ في الكتب
ويذكر امامي ، وانا اسمع كلمة من هنا وكلمة من هناك واحفظ
— اذن بطرس هو الذي حكى لك حكايات السندباد ؟

(١) المقصود ماركوني ، المخترع الايطالي .

— لا ، هذه سمعتها من بحارة ارواد ، قصص البحر
كلها انا حكيتها له .

قال احمد :

— احك لنا واحدة منها اذن !

— في ليلة ثانية .

— الآن .. برحمة بطرس .

وصاح بعض البحارة :

— اي والله برحمة بطرس يا خليل ، احك يا عم .

فتمنع خليل واغمض عينيه ، وعندئذ نبروا فيه وقالوا :
— العمى ! ليش الدلال ؟ قلنا لك احك فاحك ، الدنيا
شتاء ومطر ، والحكايات مخلوقة للشتاء وها ابو محمد شفي .

كان ابو محمد قد نهض يتوكأ على الجدار ، فأسرع احمد
وناوله الابريق ، واقترح عليه ابو فضل ان يفسل رأسه بالماء
البارد ، واعد له خليل كوبا من الشاي .

.. وعند منتصف الليل انصرف الجميع ، قاطفا خليل
الضوء وراءه وانصرف ، وغمرت المقهى على الفور ظلمة
دامسة .

وحين فتح الباب تنازعته الريح ، لكنه استطاع اغلاقه
بعد لاي ودخل المقهى ماسحا الماء عن وجهه وكفيه ، ثم خلع
سترته وشرواله المبللين ولبس غبازة .

لم يكن يشعر بانزعاج ، بل لم يكن وجهه يحمل اي تعبير
يدل على استغراب او تأفف . أنه واحد من هذه الكائنات التي
تعيش في دوامة الاعصار الآن . الارض تشور ، والسماء تشور ،
والبحر يشور ، وهو يشهد هذه الثورة التي رآها مرات لا عدد
لها ، والفها واحبها واطمان اليها .

اشعل الضوء بهدوء وقال في نفسه : « فنجان القهوة
والسيكارة يساويان ليرتين عثمانيتين » ثم اتجه الى «أتوجاق» ،
ومر بالدكة فوجد ابا محمد قد افاق وان في فراشه ، وعندئذ
ادرك ان الرجل يشكو اليه تغيبه ، فاجتاحه شعور حقيقي
بالندم « كيف تركته الى هذا الوقت ؟ ولماذا لا التفت الى المقهى
كما يجب ؟ يا ام حسن ، سامحك الله ، مرة اخرى وقعت
يا طروسي ، انتبه الى شغلك ، انتبه ! »

حاکم نفسه ، وعانيتها ، وتساءل ، ولام ، ودافع اللوم ،
حتى انتهى من اعداد القهوة له والشاي لابي محمد ، فحملهما
وذهب اليه ، ولما جلس هذا في فراشه وجه اليه هذه الملاحظة :
- ما راح تطيب حتى تعمل بنصيحتي !
- ما عندي نفس يا ابو زهدي .
- اذن مت .

قالها بلهجة العتب اكثر منها بلهجة القصد . وكانت
نصيحته تتلخص بما يلي « مدقة عرق زهرة وجرن فليفلة
حمراء بدون خبز ، ونوم دافئ حتى يعرق الجسم وتروح
البردية ، وهات يا صحة وهات يا اكل » .
قال ابو محمد :

- مدقة العرق نشربها ولو كان فيها سم ، اما جرن

١٢

عاد الطروسي الى المقهى في ساعة متأخرة من الليل .

كان الهواء شديدا يكاد يحمله ويلقيه عن الصخور ،
وروح مجنونة تهيم مولولة في الفضاء ، تعبت بكل شيء
وتستثير معها كل شيء : الريح والمطر والرعد والبرق وموج
البحر .

وقال الطروسي وهو يرسل بصره في الابعاد فلا يرى
شيئا بسبب الظلمة « ما أفزع هذه النوبة ، ترى من من الاولاد
في البحر الآن ؟ »

وجاء الجواب ارتجاجا عظيما حسب ان الصخور التي
تحتة تشققت لهوله ، وومض البرق في اقصى صفحة البحر ،
فراى خيولا مائية تحمحم وتركض جامحة ، ورغاء ابيض يفور
على اشداقها وهي تصل وتزأر ، وآلاف من الكتل الموجية
ذات المناكب الثلجية تتدحرج واحدة اثر اخرى ، وتنجدل
وتندغم وتتوالد من جديد ، وتتجه كلها الى الشاطئ وترتطم
به وتفنى عليه .

حدق في السماء فلم ير نجما واحدا فيها ، بل لم ير
السماء ذاتها لكثرة ما حجبتهاتفيوم الدكن . ومن الاطراف
الاربعة كانت الظلمة تطبق على كل كائن ، وهدير شديد
يتصاعد من البحر ، وينبعث من الصخر ، ويتساقط من
السماء ، ومطر يهطل رذاذا كأنه تعب من الانصباب فتوقف
ريثما يستريح .

الفليفة الحمراء... وبدون خبز؟ ماذا لو وضعت معها حفنة برغل؟

— لا ، فليفة خالصة يا ابو محمد ، اسمع مني .
ولم يسمع منه ، فاغتاظ الطروسي وقال شامتا :
— مت اذن ، والله كل طب الدنيا عندي بنحاسة ، انا طبيب ونص ، قال اطباء قال !

لوى ابو محمد رأسه بعجز تام ولم يقل شيئا : « سأجرب ما يقوله الطروسي غدا » قال ذلك في ذات نفسه وعاد فتكوم في قراشه ونام . وقام الطروسي الى الضوء فاطفاه ، وجلس على كرسي ومضى يدخن سيكارتته .

فكر بالعاصفة والصيادين وقال « نصحتهم فما سمعوا النصح ، قلت لهم اليوم « قرتونة » فلا تبحروا ، وقلت لهم بكموا بالعودة ، ولكن مع من تتكلم ؟ ولك عكاريت ! عكاريت ! وابن الجمل هذا ؟ تفو ، رجلي هذه صياد مثله . قلت له انتبه فقال « لا تخف ، انا ملك البحر ! » تأملوا ملك البحر هذا ! اي البحر له ملك ؟ هو نفسه ملك ، بل هو ملك الملوك ! قضيت عمري في البحر وما تجرات على التلفظ بكلمة مثلها . قلت له البحر هو البحر يا ابني فلا تستهن به ، البحر ملك ، وفي الدنيا ملوك ثلاثة : ملك الماء وملك النار وملك الهواء ، ورحمة الله على والذي الذي كان يقول : احذر غدر النار والماء والنساء ، لكن ابن الجمل لم يقتنع وابتعد ، وها هي القرتونة ، وعلى رجلي اذا لم يعد ، بدهاية ، اذا مات فلا رده الله ، ولكن البحارة الذين معه ، اللهم لطفك ، اللهم لطفك يا رب ! »

نهض الى الباب ونظر : كان البحر يهدر ، والموج يتدحرج ، والرياح تصفر ، والمطر يهطل ، ووحشة تحيط بالشاطئ فتبعث في جسم الواقف على البر قشعريرة الخوف .

عاد الى كرسيه واشعل سيكارة . لم يكن يشتهي النوم . ان فكره هناك ، مع الذين ابحروا ، اين هم الآن ؟ وهل عادوا في المساء يا ترى ؟

تصور حالهم في هذه الساعة وهتف في ذاته « انهم ومراكبهم في البحر ، كالفئران امام الققط ، تلاعبها حتى الموت ، ثم تنقض عليها وتأكلها ، وغدا او بعده يلفظ البحر الجثث ، وتضحك ملكة البحر ، وتأمّر العاصفة ان تهدأ لان حفلة زواجها قد تمت » .

لماذا يتذكر هذه القصة كلما شاهد عاصفة ؟ انه لا يؤمن بها لانها اسطورة ، وهو لا يدري في اي كتاب قراها له بحار مغرم بقراءة الكتب . لقد سمعها ونسيها ، ولكنه ما ان يرى العاصفة حتى يذكرها ويظل يذكرها كأنما حفرت في رأسه حفرا .

فرك جبهته واغمض عينيه . انه لا يذكر الكلمات بالضبط ، ولكنه يتخيل الحكاية وكأنها تجري امامه . تقول الاسطورة :

« في اللجة البعيدة ، حيث ثور العاصفة وترقص جيوش الرياح يتزوج ملك البحر ، الماء ينشق ويظهر الملك اولا ليجلس على موجة جاءت وحنّت له ظهرها باحترام . ثم تظهر الملكة بين صفيين من عرائس البحر ، فتأتي وتجلس الى جانبه وتختفي بعد ذلك العرائس . الملكة جميلة ليس كجمالها على الارض ، والملك جبار ليس كجبروته في البحر ، فما ان تقبل عروسه حتى ينظر الى الكون نظرة ارتياح ، ويرسل بصره في الابعاد ليرى الى البحارة اسرى في قبضة الموج ، او صرعى تحت اقدام العاصفة ، ثم يومئ الى مستقبله من ملوك الرياح والمطر والنار ان اذهبوا . وتنظر عروس البحر في ما حولها نظرة اغتباط وتقول : « شكرا لك ايها العاصفة .. رقصتك كانت جميلة ، عنيقة كما يحبها الملك ، مثيرة كما اشتتها انا ، منتقمة كما يريد سدة المعبد » .

ويهدأ من حولهما كل شيء، وتلتفت عروس البحر الى حبيبها ، الى الملك الجالس قربها، وتغمس نظراتها في زرقة عينيه ، وترتعش شفثها السفلى، وتختلج قسما ت وجهها ، فيسألها الملك: « ما بك يا حبيبتي ؟ ما هذا الشحوب على وجهك ؟ هل انت مريضة ؟ » وتقول الملكة « لست مريضة يا حبيبي ، ليس بي شيء » ولكنها تظل شاحبة ، ونداء يتصاعد من جسدها ويتشهى على شفثيها: « قم بنا الى النوم ، قم بنا الى الفراش » لكن الملك لا يبرح مكانه . انه لا يريد ان ينام ، ولماذا ينام ؟ « اخلعي ، يا مليكتي ، ثيابك ، ودعي الموج يعمدك بالزبد » وتخلع الملكة ثيابها ، قطعة قطعة ، وتتوقف ، وتشير الى بعيد : « انظر يا مليكي الى الشاطيء ، ان رجلا يقترب منا . انه قادم من مملكة الارض ليدنس مملكة البحر ، وانا خائفة ، خائفة جدا . خذني اليك ، ضمني الى صدرك ، اضفط علي ، اكثر ، اكثر ، اقول اكثر ، احمني من انسان الارض هذا ، لا تدعه يقترب مني فان انفا سه تحرقني ، مر الموج ان يحطم شراعه ، مر العاصفة ان تصرع بحارته ، انتقم لي منه فقد خانني ، وعذبني » .

ويتسسم ملك البحر ولا يبالي « من هو انسان الارض هذا ؟ انه مخلوق ضعيف فلا تأبهى له ، دعي الامواج تداعبه وتصرعه ، دعيها تقضي لبانتها في يوم لبانتنا » .

وتجيب الملكة وهي تتمطى « هو ضعيف لكنه جبار ، لا تدعه يقترب مني فسيقتلني مرة اخرى . ان له ثارا قديما معي يا حبيبي . لقد عرفته فأحببته ، ثم خانني فانتقمته منه . لهوت بالصيادين ففتنتهم ، جعلتهم عبيدا في مملكتي لا يبرحون شاطئها ، وعيشت بالبحارة فأغريتهم بالسفر وفتحت تحت اقدامهم اللجة قفاصوا في قاعها . اتيت كل ضروب الانتقام ولما اثار لنفسي بعد » .

ويقول الملك : « لا تخافيه يا مليكتي فسأسره واقتل

بحارته . كل من في البحر يهابني وكل من في البر يخافني ، فماذا ترهبين ؟ دعيه يقترب من الهاوية ، انه فراشة تحوم حول الضوء ، وقد رايته وتركته لالهو به . سأصرعه امامك ، واجعل من دمه حناء لقديمك . ستأتي به الريح على كف النوء محطم الذراعين ، ويجعله الموج شلوا في اشداق الزبد ، ويدوي الرعد في اذنيه فينخلع قلبه من الهول ، وينذره البرق فيستسلم للعاصفة التي تقوده الى مذبح المعبد قربانا للآلهة ، وبعد ذلك يطرحه الاعصار طعاما للاسماك فتأكل عينيه ، ويلفظه الماء المقدس جيفة لقربان الساحل . اقتربني مني يا حبيبتي ولا تخافني ، ضعي رأسك على صدري ، ارفعي ذراعك فوق كتفي ، اية ذراع هذه ؟ انها من العاج المورد ، ارفعها اكثر ، دعيني ارى ابطك ، دعيني اقبل ابطك ، دعيني اقبل كتفك ، ماذا بك ؟ ما هذا انقلق في عينيك ؟ اجبني » .

وتجيب الملكة : « كل ما تقوله حق يا حبيبي . كله حق وصدق . . انهم يخافونك ، ويرهبون عاصفتك ، ويسجدون لك ، ويضربون صدورهم رجاء ومسكنة امام جبروتك ، انهم ضعاف وانت وحدك القوي ، انت وحدك القادر ، فما ان تتمطى اصلا بك ، وتنثف الهواء رثاك ، حتى يلذيب الذعر رعاياك ، فيهربوا من وجهك الى الشقوق والكهوف ، يهربون كلهم : من البزرة الى الحوت ، من الصدفة الى شجرة دم يوسف (١) من السمكة الطائرة الى السرطان الزاحف ، من الاخطبوط الى الشبوط ، كلهم سواء في خوفك والسجود لك ، وكذلك ناس الارض . انهم يتحدونك وانت هاديء ، ويتجراون عليك وانت وادع ، فاذا ثرت وعصفت ، وامسكت كفك القادرة بأشعرتهم الواهية ،

(١) شجرة بحرية ذات جذع واغصان ، صلبة ، مخزومة حمراء اللون ، صخرية البدن ، اذا اصطدمت بها السفن تصدعت ، تكثر في البحر الاحمر وبخافها ربابة السفن كما يقول البحارة .

سجدوا وتضرعوا وانتحبوا ، لكن ضعفهم خادع فلا تصدقهم ،
انهم اقوياء وانا اعرفهم ، لقد تجولت في مملكتكم كثيرا ...
الست ابنة كبير وزراءك واخلص قوادك ؟ الم تقل لي : « اذهبي
حيث شئت فاني معيذك الى ذراعي ساعة اشاء ؟ » لقد ذهبت
فتجولت ، عرفت مملكتك كلها ورعاياك كلهم . صعدت
الجبال وهبطت الوديان وطفت الغابات واجتزت السهوب .
قطعت الورد ذات الالوان وشملت عطرها المسكر . شاهدت
البحر الذي حصاه من لؤلؤ ورماله من ماس . ابصرت الحوت
يتلع السردين والقرش يزدرد الدلفين ، والسمك يطير ،
وعرائس البحر ترقص ، والعبيد يسجدون ، والاحرار
يشورون . شهدت الحروب بين البحر الابيض والبحر الاسود ،
وركبت فرس الماء التي هي اجمل الافراس ، ومللت القاع
فخرجت الى السطح حيث رايت انسفن فتبتتها ، والمراكب
فقلبتا ، والشاطئ فسلبت عقول صياديه ، والعاصفة
فرقصت في قلبها حتى اتعبتها ولم اتعب ، ثم ابتسمت
للمشمس فانكسفت ، وتعريت في ضوء القمر فانبهر القمر
واغمض عينيه ، فلطمته على عينه وقلعتها ، (٢) لاني لا احب
الذين تنبهر عيونهم . وكشفت مفاتيحي للموج فبكي وتشنج
وارغى وازبد ومد لسانه الى اليابسة فجاءني بالهدايا ، لكنني
رفضت هداياه ، لاني لا احب الذين ييكون . وغازلني الليل
فقلت له اقطف لي من حديقتك نجمين ، فتلثم واجاب
« النجوم عيوني فهل اقلعها ؟ » فتناولت حفنة ماء ورشقتها
بها فكان الندى . انني اشتهي الليل لانه يثيرني ، وامقته لان
الذي لا يقلع عينيه كرمي لحبيبتة لا يستحق ان تكون له حبيبة .
وسبحت بين الغيوم ، بينما الضباب على وجه القمر ، وقلت

(٢) هناك اعتقاد شعبي ان القمر اعور ، بسبب التضاريس التي

٢

تظهر على وجهه .

لها : يا غيوم ابتسمي فقالت « اعتدت العيوس فاني لسي
الابتسام ؟ » ونفخت عليها وبددتها لان الارادة هي التي تصنع
الفرح والحزن ، ومن لا يبتسم في قلب احزانه يكن فريسة
للأحزان . وركبت متن الريح بينما العاصفة تهب على البحر
وقلت لها : « اقلعي لي شجرة من ارض لبنان لاغرسها في جبال
البحر » فناحت الريح وقالت « هذا ارض الرب وجذوره عميقة
في الارض فكيف اقلعها ؟ » ولقد اعجبت بحكمة الريح وهزئت
من قلة ثقتها بنفسها . وقلت للرعدي : « صمت ابي الهول ابغ
من جمعجتك ، فاذا كنت قادرا فانطقه او حطمه بصواعقك .
اهدم الهرم الاكبرلياني السيل فيحمل الي الصوان على خشب
الابنوس مع طوقان النيل ، فعجز الرعد واستكان ، ثم انتحر
وانفجر فكان البرق . ولقد احببت البرق ، لكنه ، واسفاه ،
سريع الالتماع سريع الانطفاء عاقر كالسراب ، وانا احب ان
اخضب منك . ولكن اسمع ! انصت : انسان الارض يقترب
يا حبيبي ، فما انت صانع به ؟ العاصفة ؟ هل امرت العاصفة ؟ »

« والتقت عينا الملكة بعيني الملك . ما هذا القلق الذي
نبت فيهما ؟ » ما لك يا حبيبي ؟ لماذا لا تجيب ، لماذا لا تأمر
العاصفة ؟ »

— لقد امرتها . العاصفة مستمرة في كل مكان الا في
المكان الذي نحن فيه !»

— وكيف قهرها ؟! كيف اخترق اسوارها ؟! كيف تحدى
جبروتها ؟! قم بنا الى الاعماق ، اسرع ، اسرع ، اطلق التيار
المجنون ، مر الهواء والماء والبرق ، مرهم ان يصرعوه ، ان
يردموه بجبال الموج ، مرهم ان يمزقوا شراعهم ويحطموا
ساريته ويكسروا مجاذيفه ويبددوا مركبه . لقد انشق الماء
فانظر الى رعاياك في مملكة البحر ، قم وجندهم ، استنفر
امراء البحر وقادة الجيوش ، اذهب فقاتل ودعني هنا يا حبيبي ،

لم اعد اخاف ، اعرف هذا القادم ، اعرف انسان الارض ،
اعرفه ، و ... »

وذهب الملك ، وثار البحر ، وانفتح الفور ، وتسمرت
الريح ، وظل انسان الارض يتقدم .. وظلت الملكة فوق الموجة
تنظر اليه : « ها هو ، انني اراه ، اراه جيدا ، كم هو جميل
انسان الارض هذا ! كم هو قوي ! انه يقف وراء الدفة مبللا ،
ممزق الثياب ، مشعث الشعر ، مفتول العضل . ان الموج
يضربه ، والريح تلمطه ، والماء يقطر منه منسابا كجداول من
فضة . لقد انشق البحر ، حبيبي هو الذي شقه . الشراع
يهوي الى القاع ، لقد انتصر مليكي .. ولكن لا ، الشراع يصعد
ثانية ، لقد اصبح على جبل ومن تحته هاوية ، حبيبي
رفعه ، رفعه بقوة ، وسيقذف به بقوة . الشراع يترنح ،
يتهاوى ، سيفور في القاع ، ولكنه يصعد من القاع ، كيف ؟
يا لك من عنيد ايها الواقف على الدفة ! يا لك من شجاع ! يا لك
من بحار ! ولكنك لن تنتصر على مليكي . يا رياح مزقي ثوبه ،
اجلدي وجهه ، حطمي الساعدين ، حطمي الدفة . ايها الرعد
اثقب اذنيه ، ايها المطر افقأ عينيه ، ايتها العاصفة اقضي
عليه ... »

وتنمرت العاصفة ، وتفجرت ، وزارت ، وولوت ..
ولم يشعر الطروسي بها ، ولا عرف مصيرها . كان قد
اسند راسه الى الجدار ، واغفى وهو يفكر بالاسطورة التي
رواها له البحار .

١٣

— ابو زهدي ! ابو زهدي !

— الله

— قم ، اي ما وجعتك رقبتك ، كيف نمت على الكرسي ؟

— اتكأت فنمت ، كم الساعة الآن ؟

— طلعت الشمس !

تمطى الطروسي فطقطع عموده الفقري ، وحاول النهوض
فلم يجد قابلية ، فانزل قدميه عن اصبع الكرسي ، وفرك
صدفيه ، واغمض عينيه الحمراءين بعد ان طلب فنجانا من
القهوة .

وبادر ابو محمد لاعداد القهوة دون ان يسأله شيئا . ولماذا
الاسئلة ما دامت تبقى بغير جواب ؟ اين كنت ؟ ولماذا تأخرت ؟
وكيف خرجت في هذا الجو ؟ لقد القاها ابو محمد كثيرا ،
وصمت عنها الطروسي كثيرا ، فما قائدة القاها من جديد ؟
ان فنجان القهوة يجدي اكثر من كل النصائح والملاحظات ، وهذا ما
تعلمه خلال عشرينهما الطويلة .

كانا ، كلاهما ، معكري المزاج هذا الصباح . ابو محمد
قاسم بن مصطفى خياط النعل ، وحسن بن محمد زهدي
الطروسي .

حلم قاسم بابنه محمد ، بالمرحوم الذي مات مسلولا في
طرطوس ، وحلم الطروسي بالبحر والمنصورة والعاصفة
ومعركته مع ابن برو . ولم تكن احلامهما واضحة ، انها اضافات

احلام ولدتها مخليتان مكدودتان لانسانين متباينين .

فتح ابو محمد الباب فغمر الضوء المقهى كله ، وشق الطروسي عينيه فراي البحر قد سكن بعد هياج ، والارض تضحك للسماء ، والطقس الجميل يفيض نورا وغبطة وهدوء ، وتذكر الاسطورة فقال « تعبت العاصفة ونام البحر » ثم خطر له هذا السؤال : « من الذي انتصرا ترى : الانسان ام البحر ؟ » ولم يقطع براى ، حمل فنجان القهوة وخرج الى الصخرة الكبيرة وجلس في الشمس ينشد السدف وينعم بالهدوء والدعة وحلاوة الصباح .

الصخور نظيفة تتألق تحت الشمس ، وتستحم بفيض من اشعتها ، والموج كليل خائر يجر نفسه الى الشاطئ فيتكسر عليه ، وطيور النورس البيضاء التي كانت تصيء مذعورة لهول العاصفة امس تطير آمنة مطمئنة اليوم ، والبحارة نزلوا الى مراكبهم وفلائكهم يصلحون ما افسدته الريح والموج ، وبعض الصيادين قد خرج في طلب الصيد ، وفرحة تغمر الكون ، والقي قدسي ساحر ينور الدنيا كعهده دائما بعد العاصفة .

وبدا الزبائن يتوافدون : منهم من حمل شباكه ليصلحها ، ومنهم من جاء يشرب القهوة قبل ان ينزل الى الميناء ، ومنهم من اخذ قصبته وصنارته وتيسر ، وفريق آخر جلس في المقهى لانه اعتاد ان يجلس فيه حين لا يكون لديه عمل ولا سفر .

وجاء خليل العريان ايضا : « راحت السكره وجاءت الفكرة » واستأنف الركض وراء اللقمة . سال : اين الطعم ؟ كيف اصبحت ابو محمد ؟ كانت عيناه منتفختين ، شأن مخمور صحا بعد نوم عميق ، وكان شعره مشعثا مبللا ، فشرب قهوته وحمل قصبته وصنارته وسله الطعم الصغيرة ومضى الى الشاطئ .

وبدأت الحياة تأخذ طابعها المعتاد ، وعلت قرقررة

التراكيل ، وسمعت مصمصة الشفاه وهي تترشف القهوة والشاي . ومر بائع « السحلب » في موعده ، وانعقد الدخان في جو المقهى ، ودارت الاحاديث وازداد اللفظ ، وتداخلت الاصوات ، ثم صعد احمد الصخور فما كاد يضع رجله في باب المقهى حتى نادى اللاعبين قائلا « قوموا نركب الباصرة » ونظر اليه ابو محمد مشفقا « جاء الشقي وستبدا الضجة والمحاكات الآن » .

حوالي الساعة العاشرة عاد رجال الامن للمرة الثالثة ، فقام الطروسي وسألهم :
- نعم ، امر !

- زيارة ، هل ترفض الزوار ؟ زبائن ..
- زبائن على رأسي ، المقهى مفتوح ، ولكن الزيارات ليس وقتها ، الحرب نشفت السوق ، ولم يبق غير الجرب والموت واولاد الكلب ..

وضحك رجال الامن . كان الجرب قد عم المدينة فعلا ، والدواء الموصوف له هو القطران والكبريت وماء البحر ، وكانت العدوى قد انتقلت مع الجيوش الفرنسية والانكليزية ، الا ان بعض الناس كانوا يقولون « سبب الجرب سوء الغذاء وقلة السكر » ويجيب الآخرون « السبب ، اولا واخيرا ، اولاد الكلب ، هؤلاء .. »

قال رجال الامن :

- جئنا امس فلم نجدك .

- لو علمت بتشريفكم نمت في المقهى !

- لا داعي لذلك .. لدينا سؤال ونريد جوابه .

- تفضلوا ! قولوا !

لم يقولوا بصراحة ، وزاد احدهم فعمد الى طريقة الاستدراج :

- كيف الشغل في هذه الايام ؟

— الحمد لله .

— اظن انه يتحسن في الليل !

نظر اليه الطروسي وتوقف عن لف سيكارتته ، ثم رمقه بنظرة استنكار وقال :

— ماذا تقصد ؟

— لا شيء ، سؤال ، حرام السؤال ؟

— لا ، ولكن سؤالك لم يعجبني ، ليس ألف والدوران ، قصدكم ؟

— قصدنا نسألك عن ابي حميد ، هل يأتي الى المقهى في الليل ؟

— سؤالكم بأي معنى ؟

— بمعنى الصداقة .

— لن اقول .

— باسم الوظيفة .

— لن اقول ايضا ، خذوني الى المخفر .

ارتبك رجال الامن وقالوا :

— المسألة ما وصلت الى هذا الحد يا ابو زهدي ،

سؤال وجوابه : يأتي ام لا يأتي ؟

— لا اعرف .

— شكرا

— مع السلامة .

وخرجوا غير راضين . هم يعرفون الا فائدة من الطروسي ، وانهم لن يربحوا الا عداوته ، لذلك يتجنبون الاحتكاك به ، فاذا ما احتاجوا الى مراقبة احد في مقهاه ، فعلوا ذلك بحذر شديد ، زاعمين انهم يأتون اليه كاصدقاء ، لكنه لا يحفل بهم لايمانه « ان الحية لا توضع في العب » .

وكان ابو محمد لا يتحدث بشيء عما يرى ويسمع . وقد نصحه خليل العريان بأن يمسك حرف الميم دائما « ما يعرف »

فعمل بهذه النصيحة جيدا ، وكان يحيل كل صاحب قضية الى الطروسي قائلا « هو المعلم لا انا » .

ولما استفسر عن سبب مجيء رجال الامن ، قال له الطروسي :

— اذهب الى ابي حميد وقل له كلم .. الجماعة عرفوا ..

وتوقف عن اتمام الجملة و اضاف :

— اذا قلت له هذا يفهم ما اريد ، واذا عادوا في غيابي

فلا ترد عليهم . هذا مقهى الطروسي ما مقهى ابن آمنة !

وجلس قرب دكة المقهى وتف سيكارة جديدة وفكر : لن يستطيع ابو حميد بعد اليوم سماع برلين في المقهى ! فمن وشى بي يا ترى ؟

وعلت ضربة على إحدى الطاولات في زاوية المقهى ،

فصاح الطروسي :

لا تخطوا ايديكم بهذا الشكل ، اي العمى ، لا يمكنكم

اللعب بدون الضرب على الطاولات ؟

— حلاوة « الياصرة » ان تضرب يدك وانت تأخذها

يا ابو زهدي !

قالها احمد ضاحكا ، هارشا براسه ، فقد كان حظه

مؤاتيا اليوم ، غير ان وجود الطروسي في المقهى حال دون الشيطنة والعراك كالمعتاد .

وفي مكان قرب الباب ، حيث النور اقوى ، جلس عبد

الجبار زيبه يصلح شبكته ويتحدث عن « اهل حلب الذين

يعيشون بلا بحر ، ويأتون الى اللاذقية فيظنون البحر نهر

قويق ، ويلقون بأنفسهم فيه ولا يطلعون » .

ومهد لحديثه بهذه الملاحظة : الحادث الذي سأرويـه

شاهدته بنفسي :

— بنفسك ؟ ساله صياد يجلس قربـه .

— نعم بنفسي ! كنت ، يا عزيز السلامة ، اصطاد وراء

الطبايات في ثالث ايام العيد ، وجاءت سيارة من اهل حلب
للسباحة هناك لان الماء رقراق على الرمل .

وتوقف وسب الدين فجأة لان خيط الشبكة انعقد ، وبعد
ان حله واستأنف رتق الشبكة بمكوك خشبي قال : نزلوا ،
يا عزيز السلامة ، كلهم الى البحر ، ركضوا بدون وعي ، وبدوا
يتخبطون بأيديهم وارجلهم ويلعبون . ومضى الوقت وهم
يسبحون حتى نسيت وجودهم ، ثم سمعتهم يصيحون
ويولولون ، ويشيرون الى نقطة في البحر . اي علم الله كانوا
يقوقئون مثل الدجاج ، ولا واحد منهم يجرو على انقاذ
الفريق . وانا ، يا عزيز السلامة ، بعيد ، ومع ذلك حملت
الشبكة بيد ، وسللة السمك بيد ، ووضعت ثيابي تحت باطني .

قاطعه الطروسي قائلا :

— الله لا يعطيك العافية على هذه المهمة . العمى ، اترك
الشبكة واركض ، ولك الرجل يفرق وانت ناظر الشبكة ؟
اي حاسبه سمكه او كلب بحر ؟
— ما راح كمل الحديث !؟

فضحك السامعون وقالوا :

— طيب ، طيب ، كمل الحديث .

— بلا طول سيرة . تركت الشبكة والسللة على الرمل ،
ونزلت اركض في البحر . كان الماء ضحلا حتى الركبة ، وان
ما اعتدت السباحة في الماء الضحل ، لذلك تقدمت ماشيا ،
ومع ذلك ظل الماء ضحلا ، فتأملوا ، بالله عليكم ، هل يمكن ان
يفرق انسان في هذا الماء ؟ (وابدى الصيادون الدهشة وتابع
هو قائلا :) الخلاصة كان الفريق ينزل ويطلع ، وانا اصيح :
لا تخف ، لحقتك هه ، جلس حالك ، جلس حالك ، وهو
يفطس ويعوم .. كان المسكين من حلب ، واهل حلب ما
شافوا البحر في حياتهم ما عندهم غير نهر قويق وانا ،
يا عزيز السلامة ، اصطدت في نهر قويق ، صدقوني يا

جماعة ما في نهر في سورية ولبنان وفلسطين الا عرفته
واصطدت فيه ، و

وتلعلل الطروسي في مقعده وقال :

— ولك يخرب بيتك يا عبيد ، اي وصلنا الى الفريق ،
نحن اين وانت اين ، كنت في شيء وصرت في شيء ، خبرنا
عن الرجل مات والا عاش ؟
— مات يا عزيز السلامة .

— الله لا يسلمك اذن ! ولك انت صياد انت ؟ قدامك
رجل يفرق وانت واقف ؟ آخ على الرجال ، كنت خلصته باسناني .

وضحك الحاضرون من جديد ، ونهض هو عن كرسيه
لغير ما سبب . لقد اثارته القصة ، واستشعر حاجة الى
الحركة فخرج من المقهى ومضى نحو الصخور . ثم عاد وجعل
يفكر برجال الامن وقد استحال ظنه الى يقين ، فأسر في
نفسه « هذه فعلته ! نعم فعلة ابي رشيد ! »

لقد نسي الآن ، او كاد ، حادث ابن برو ، وامل ان يكف
عنه ابو رشيد ، واعتزم ، بدوره ، ان يقلل من تدخله في الميناء ،
ولكن ها هو مشكل آخر يعترضه ، وها هو ابو رشيد يشير
المشاكل في وجهه من جديد .

كان من دأبه ان يثبت لمثل هذه المضايقات ، ولشد ما
جابه في حياته صنوفا منها ، فاذا اقبلت بادرها بما ملك من
عزم ، واذا ادبرت نسيها وانصرف الى شأنه ، الا ان يكون
مفلوبا ، وعندئذ يكون للامر وجه آخر .

وفي معركته مع ابن برو كان غالبا . يكفيه انه تحدى
سكينه ومسدسه والقاه في البحر ، ولو شاء للقى بنفسه
وراءه ، وهناك ، في الماء ، ماذا يفعل ابن برو في الماء ، في
البحر ، في مملكة الطروسي ؟

اذن لقد انتصر . اثبت وجوده ، وانتزع حق البقاء في البطرنة . وخيل اليه ان في استطاعته ان يقيم مطعمنا حيث هو فقال في نفسه « اذا لحقت بكل ساقط للثأر منه ، تنفص عيشي الى الابد . يكفي ان ابعدهم عن هذا المكان ، وليذهب ابن برو وامثاله الى جهنم » .

وتنسم الهواء ملء رثييه ، واطلقه زفرة حرى مديدة ، وما كاد يفعل ذلك حتى لاح له في باب المقهى سليم الرحموني ، فنهض صائحا :

— اهلا بالريس سليم . .

وجاءت كف الرحموني على كتفه مصحوبة بهذا القسم :

— والله لا تتحرك .

— لاجل خاطرك ريسنا . .

— تسلم يا ابو زهدي ، حفظ الله خاطرك واعزك ، هات بوسة من شواربك ، هه (وقبله) وصلت الآن من السفر فسمعت القصة في الميناء ، وحلفت ان امر عليك وابوسك . قال لي البحارة : « الطروسي أدب ابن برو على كيفك » فلم استغرب ، الريس ريس في البحر ام في البر .

— العفو ريسنا ، ابن برو لا يستحق الذكر ، ولكنه يتعنتر في الميناء ، ويكفيها ما تحملت منه ، نريد الخلاص ياريس . — منه ام من الذي دفعه ؟

— الذي دفعه لن يخلد ، نكل ظالم نهاية .

— على كل انت بدأت ، ضربتك شجعت البحارة ، ولكنك

ستتعرض للمتاعب بعد اليوم .

— المتاعب بدأت منذ اليوم .

— كيف ؟ قالها باشفاق واهتمام .

— رجال الامن يضايقونني .

— ولماذا ؟ هل اشتبهوا بشيء ؟

— عرفوا اننا نسمع برلين في الليل

— وماذا قالوا ؟

— جاءوا يجسسون النبض ويسألون . .

— عنك ؟

— لا ، عن ابي حميد .

— وماذا تنوي ؟

— ارسلت اليه ابا محمد ، وسأخبره بالامر ليحتاط .

— وهل تحسبهم مدفوعين من احد ؟

— وهل يحتاج هذا الى سؤال ؟

كان سوق البازار عامرا في ساعات الصباح هذه . ففيه تلتقي المدينة بالقرية ، وفيه تحتل المدينة على القرية ، فتباع الخضار بالجملة الى البقالين والبائعين ، ويقوم هؤلاء بدورهم ببيعها بالمفرق الى السكان .

وعلى انه للخضر ، فهو لكل شيء ايضا . ساحته فقط للخضر ، اما الحوانيت عن جانبيه فحافلة بكل حاجات الفلاحين . وبسبب من ضيق الساحة ووفرة الخضر ، وكون دواب وعربات النقل كثيرة ، والمتفرجين والمتشرديين والحمالين يفوقون البائعين والشاربين ، فقد كان الازدحام شديدا ، وينبغي للمرء ان يبذل من الجهد لشق طريقه ما يفوق جهده لشراء اي من سلعه . وكان الازدحام يزيد الضجيج ، والضجيج يضاعف الازدحام ، والمساومة تعرقل البيع والشراء ، والذباب يلسع الناس ، والاصوات تتعالى مدفوعة بكل هذه العوامل ، فتغدو الساحة ، من الصباح حتى الظهر ، ساحة معركة ، ولربما خدع بها الغريب المار في المدينة فحسبها اجتماعا فوضويا يعقد على مقربة من البلدية .

وكان سوق الحدادين يتفرع عن سوق الخضار ، وينزوي في زقاق ضيق قاذر غاية القذارة ، تعلوه قناطر كهفية قديمة ، واطئة ، وتتخلله زوايا موحلة معتمة ، وتقوم تحت القناطر دكاكين الحدادين واللحامين وباعة المقادم والكوارع والمعاليق والشحم واللحم والفضلات والنترات والدرنسات والمصارين والكروش .

ان احدا لا يعرف من زرع اللحامين بين الحدادين . لعلها المصادفة ، او لعله التكون العفوي للمدينة ، او وجود القرويين في البازار ، ومهما يكن من امر فقد كان وجودهما شاذا ، ووضعهما شاذا كذلك ، كالاسواق القميئة المحيطة بالساحة ، وكالساحة نفسها . وكان سوق الحدادين - اللحامين بالغ السوء ، متعرجا ، موحلا ، موبوءا . فالسخام يعلو الجدران ويسود السقوف ، ويعشش العنكبوت تحت القناطر ، وينعقد الدخان الكثيف المتصاعد من اكوار الحدادين ومواقد اللحامين في جو الزقاق فتبدو ، اذا ما كانت الشمس مشرقة ، سحب ضبابية من غبار الحديد والصفوة ودخان الفحم واللحم ، تسد الزقاق سدا ، ولا مندوحة لمن يجتازه من اختراق هذه السحب التي تنقلب حوالي الظهر الى غيوم سود قذرة ، وتتخمر رائحة الشواء فتنفذ الى رئتي المار حادة كريهة تقزز النفس . في هذا السوق ، كان ابو حميد يعمل حدادا .

وكان ابو محمد يسعى اليه لابلاغه ما قاله الطروسي ، وكلما صعد باتجاه البازار لعنه ولعن الساعة التي رأى فيها وجهه . كان يردد في نفسه « هذا رجل ما منه غير المتاعب » . ووصل اخيرا الى البازار ، واستطاع بجهد النفاذخل الازدحام ، ثم اتجه الى زقاق الحدادين . وكان ابو سميرة بائع الخضار ينشر بضاعته امام دكان ابي حميد ، فيجادل ويصيح ويصفق ، وابو حميد يحتمل ذلك منه لاسباب سياسية ! لقد سمح له ان يستعمل الدكان وما امامها دون مقابل سوى الموافقة على آرائه ، وقد وافق عليها ابو سميرة دون ان يخسر شيئا .

وكانت آراء ابي حميد معروفة . فهو لا يحب فرنسا ولا بريطانيا ، ويؤمن بالمثل القائل « عدو عدوك صديقك » وما دامت المانيا تحارب فرنسا وبريطانيا فانها صديقتك ، وهو صديقها ، ومن « سمّية » اذاعة برلين المتحمسين .

كان طويلا ، عريض الالواح ، اذا انحناءة عند الكتفين .
وكان يلبس شروالا اسود ، وسترة قصيرة الذيل وطربوشا
ممعجا ظاهر العتق . وكانت دكانه تؤمن له رزقه ورزق
زوجته التي ما كان في بيته غيرها . وقد اشترك قديما في
الثورة السورية على فرنسا ، واراد التسلل الى فلسطين
للاشتراك في الجهاد ضد الانكليز ، فاضطرته اسباب طارئة
الى التوقف في دمشق ، وعاد منها الى اللاذقية وقد استشعر
انه جاهد فعلا لانه حاول الجهاد فعلا ، وكان يحقد على هاتين
الدولتين حقدا صادقا مستمدا من ذات احساس الشعب
ضدهما في البلدين وسائر العالم العربي ، فلما ظهرت المانيا
الهيترية على المسرح قال ابو حميد في نفسه « وما من ظالم الا
سيبلى بأظلم » ، وانضم الى المعجيين بهتلر ، المتحمسين
لالمانيا ، الداعين لها ، الشاتمين فرنسا والانكليز في كل مجلس
وكل ساعة من ساعات الليل والنهار .

ولما اندلعت الحرب اغتبط لها مدفوعا بعاطفة العداء
التي تنشأ الانتقام لذاتها عن اي سبيل .
- انتصار المانيا انتصار للعرب !

كذلك يقول وكذلك يؤمن . ثم عمد الى سماع اذاعة
برلين ونشر اخبارها في الناس . الا ان الانكليز والديغوليين
ما لبثوا ان دخلوا سورية وطرردوا الفيشيين منها ، فأصبح
الاستماع الى محطة برلين مشكلة ، وعندئذ لجأ الى مقهى
الطروسي ، واصبح من زبائنه بعد ان ضمن فيه سماع
برلين في كل ليلة .

وحين ابغاه ابو محمد ان رجال الامن جاءوا الى المقهى
وسألوا عنه ترك المطرقة وسال :

- عني انا ؟

- اي عنك انت .

- وماذا يريدون ؟

- وما ادراني ؟ اسأل الطروسي ، هو الذي ارسلني .

ارتدى ابو حميد ثيابه واسرع الى الطروسي بعد ان
اوصى ابا سميرة بالدكان :

- خي ابو سمرة ، الدكان وحدها .

- رح ولا يهملك ، هات معك خبرية نظيفة عن الجماعة .

حدق فيه وفكر : « ربما ذهبت فداء الجماعة يا ابو
سمرو ، ولكن هذا لا يهم ، هتلر مصبح او ممسي في سورية
... رومل اصبح في العلمين » .

قال ابو سميرة في نفسه « ابو حميد مزعوج ، ربما لم
يسمع يونس امس » . وبعد ان سحب من الناركيلة سحبة
قوية قرقر لها الماء طويلا ، ترك التريش يسقط ارضا ليساوم
عجوزا على كومة من البطاطا :

- السعر مقطوع يا اختي ، ما عندي روح لكثرة الكلام
... اذا استقلت اسعاري فالعربات قدامك .

كان يذكر الاسعار لا البضاعة عند المفاصلة ، وكان البازار
يزدحم بعربات اليد المركومة بالخضر والمنتشرة من سوق
البانستان الى ما وراء البلدية ، فاذا اشتد القيظ رفع اصحابها
فوقها ظلالا من خيش على اوتاد اربعة ، ومضوا يبيعون
بالمفرق ما اشترروه بالجملة ، حتى اذا وافى المساء ولم تنفذ
خضرهم ، اقبلوا على ابي سميرة يبيعونه ما تبقى منها خشية
اهترائه الى الصباح ، فيشتريه ابو سميرة ويكده في
سحاراته الخشبية خالطا الجديد بالقديم ، السليم بالمعطوب ،

غير مكتوث بالفساد يدب فيها جميعا ، لانها كلها فاسدة اصلا ،
فما ان يطلع الضوء حتى ينشرها امام دكان ابي حميد ويروح
ينادي عليها ، ويصفق ، ويفني ، ويقول لمن يتعزز او يماحك
في الشراء « هذا هو الموجود ، عجبك تفضل والامع السلامة ! »

انه يعرف نفسه وبضاعته وزبائنه ، وهذا هو انسرف في
« قوته التجارية » وشهرته التي تملأ البازار . وهو يمن
على الزبائن لانه يوفر لهم خضارا « بسعر التراب » ، وحين
يفرغ من البيع يسند ظهره الى عمود خشبي جعله متكأ
لسحاراته ويفكر على هذا النحو : « اذا مت يا ابو سميرة فمن
للفقراء بعدك ؟ » وكانت النساء الفقيرات المييلات يعرفن قيمته
فيدعين له بطول العمر وحسن الخاتمة ، ويأتي اليه بائعو
الخضار يعرضون النفايات قائلين باستسلام :
- زبائنك لا يعيفون كريمة يا عم !

فيجيبهم باعتداد :

- حلال على الشاطر ! انا واسطة خير لا اكثروا اقل ،
كما اشتري ابيع والرزق على الله ! تكفيني مرضاته تعالى ، لولا
وجودي مات الفقراء ، اي العمى ! مالك اب مالك رب ! »

كانت له لثغة ذات صيت بعيد ، وفم ينضم على اسنان
كأسنان الفأرة ، وذقن دقيقة تنبت فيها شعرات قلائل بسبب
من اصابها بآكلة الشعر ، فكان يحلقها مساء الخميس من
كل اسبوع ، ويخلو منه البازار يوم الجمعة فحسب ، حيث
يتوقف عن المناداة والصراخ ، ويؤدي صلاة الجمعة في المسجد ،
ويذهب الى المقهى فيشرب ناركيلته ، وقد يقصد ايام الصيف
شاطئ البحر ، حاملا ناركيلته وطعامه ، ووراء ام سميرة
بملاءتها السوداء الطويلة ، وخلفها سميرة وبقية المحروسين .

اما سحاراته فمبيتها في دكان ابي حميد . وكان يحمل
مفتاحا خاصا به ، فيفتح في الصباح ، ويقفل في المساء ،

ويتصرف بالدكان كانه مستأجرها ، مقابل « الايمان » بما
يقوله ابو حميد عن هتلر نقلا عن اذاعة برلين . وكثيرا ما
افتقده الزبائن فوجدوه في زاوية الدكان يتجمع على بعضه
كقنفذ وقد حاصره ابو حميد وسد عليه منافذ الهرب ، وطفق
يشير بيديه الطويلتين ، متحدنا عن المانيا وهتلر وتشيرشل
و « هنا برلين » ، منسجما مع الحديث ، مستشارا بالانباء
التي يرويها هو نفسه ، يفور رغاؤه ويبدو في ملففيه كجمل
حقيقي .

على ان ابا حميد كان يضيق ذرعا ، رغم هذا كله ،
بصياح ابي سميرة الذي لا ينقطع ، وبخاصة اذا كان في
الدكان بعض الانصار ، وعندئذ يبط رقبته من الباب ويصيح به :
- يا اخي ، يا ابو سمرو ، على مهلك .

فاذا لم يسمع ، او استفرقه الجدل ، اقترب منه ابو
حميد وقال :

- ابو سمرو عندنا اوادم امثالك ، بدنا نفهم عليهم ..
فيمثل ويجيب :

- على راسي ابو حميد ، وحياة شواربك وشوارب
الاوادم ما راح صوتي يطلع ..

ويصمت بضع دقائق فعلا ، ثم لا يلبث ان ينفجر قائلا :
« العمى ! راح اختنق ، انت يا اختي ، كلمة واحدة ، انا
كلمتي كلمة ، لا تجادلي ، اسعاري محدودة ، هذه الكومة
(ويضع يده عليها) بقرشين ، وهذه بثلاثة ، يا الله ادفعي
واحملي » . ثم يصفق ويصيح بأعلى صوته « يا الله ، نفقنا ،
نفقنا يا هو ، الفواكه بالنظر ، الفواكه بالنظر ! »

ويظل كذلك حتى يخرج اليه ابو حميد من جديد ، فيخفض
من صوته ، ويتظاهر بالنسيان ، وقد ينتهر زبونا ما مشعرا ابا

حميد ان الزبون هو سبب رفع الصوت ومخالفة التعليمات .
والوقت الوحيد الذي يأخذ فيه حريته كاملة هو الذي
يفادر فيه ابو حميد الدكان كما فعل الآن . وقد صفق من فوره
وصاح بأعلى صوته :
- البطاطا ، البطاطا يا هو ، نفقتا هه ..

وقالت عجوز وهي ترسل يدها في سحارة البطاطا :
- الله يبهلك يا ابو سميرة على هذه البطاطا ، ما فيها
حبة سليمة .

فاستند الى العمود من ورائه واجاب :
- بطاطتي مثل وجهك يا ست الحسن ، ما فيه موضع
يسر القلب !

١٦

عندما وقف ابو حميد في باب المقهى ، كاد الطروسي يقرب
في الضحك . فقد وضع ابو حميد طربوشه بالقلوب ، فجاءت
الشرابة الى امام ، وسار في السوق دون ان ينتبه الى هيئته .
- يا ابو حميد وقعنا في الفخ . الشرطة درت بنا وما
عدنا نسمع يونس في المقهى بعد اليوم .
- فثروا

لفظها « فثروا » مستبدلا السين بالشين بفعل لثفته .
وبعد ان تناول كرسيه وجلس قال :
- لا يهكم ابو زهدي ! كلاب ، وحياة شواربك كلاب ،
رومل صار في العلمين يا عم .
- واذا صار رومل في العلمين ؟ المقهى مراقب فكيف
نسمع الاخبار بعد اليوم ؟ فكر !
- وما رايك انت ؟
- هذه آخر ليلة من اخبار يونس ، الراديو تحت تصرفك ،
ولكن المقهى ! اصبح لنا اعداء يا ابو حميد .
- الاستاذ كامل وجماعته !؟
- ما حذرت ، الاستاذ كامل لا يحب المانيا ولكنه ليس
عدونا .

- انت لا تعرف هذا الصنف من الناس .
- بلى اعرف ، اعرف كل اصناف الناس في هذا المقهى ..
والافضل ان تدبر المسألة والا فلا يمكن سماع برلين بعد اليوم .
كانا يجلسان متجاورين ، وقد خلا المقهى الا من بعض

الزبائن، وأبو محمد يقف وراء الوجدان، والراديو في مكانه من الجدار، داخل الطاقة التي نحتها له الطروسي في الصخر .
لقد جاء به قبل الحرب في عربة خيل، وأوقفها في حديقة المنشية، واحتضنه برفق ووضع على الدكة وهو سعيد به غاية السعادة ، ثم استثار أبا محمد حول المكان الذي يضعه فيه .

كان من رأي أبي محمد أن يوضع الراديو في المقهى، كي يراه الزبائن ويسمعه فاستاء الطروسي وقال :

- الراديو لي وليس للزبائن !
- ضعه في الصندوق أذن .
- فضحك لهذا الاقتراح وسأل :
- اتحسبه جهاز عروس ؟
- أذن دبره بمعرفتك .
- أحسنت !

وقام الطروسي فدار في المقهى، واختار مكانا وراء الدكة، وارتقى كرسيًا وراح ينحت في الصخر، ومنذ ذلك اليوم استقر الراديو في المكان، ثم جاء بقطعة قماش مكشكشة البسه إياها وقال لأبي محمد :

- ما ابن امرأة يلمسه هه .. فهمت ؟

ومضت الأيام ، فتساهل الطروسي بأمر الراديو وأصبح يلمسه ويفتحه كل من يدخل المقهى، وجاء وقت كاد ينساه فيه، حتى إذا أعلنت الحرب، ودخل الانكليز والديفوليون سوريّة، شهد المقهى زبائن من نوع جديد، « زبائن الليل » الذين يأتون لسماع إذاعة برلين فقط .

كانوا ينزلون الراديو ويضعونه على طاولة ويتحلقون حوله ، ويتولى ابن الجبال تحريك الإبرة ، فإذا وقفت على محطة برلين وانطلق صوت يونس صائحا « حي العرب » شاعت الفبطة في الوجوه ، واصفوا باهتمام وصمت تام إلى

كل كلمة يقولها ، ثم نهضوا وذهب كل منهم في سبيله، وانطلق أبو حميد إلى المقاهي يروي ما سمع ، ويزيد عليه من عندياته ما يخطر له . أما الآن فقد أصبح سماع برلين في المقهى متعذرا ، ولا بد من إيجاد حل أو التعرض للانتقام السلطات .

سأل أبو حميد بعد أن فكر مليا :

- ألا يشتغل الراديو على البطارية ؟

- علمك علمي يا أبو حميد .. لماذا ؟

- عندي فكرة حلوة .. أتركني ادبر الأمر .

ضحك الطروسي وتساءل « ما هذه الفكرة ؟ » ثم ترك لأبي حميد تدبير الأمر ، قلما جاء « زبائن الليل » إبلغهم أن هذه آخر ليلة يسمعون فيها يونس، وأنهم يسمعون به بفضل مراقبة أبي محمد وحماية الطروسي .

وفي ختام السهرة عرض فكرته فقال :

- عندي فكرة حلوة يا أخوان !

- ما هي ؟

- فكرة عظيمة !

- قلها لنرى

فتلفت حوالبه وقال :

- هل في المقهى غريب ؟

- لا !

ومد يده إلى جيبه فأخرج بعض النقود ، وقال وهو يضعها على الطاولة :

- كل واحد يدفع الذي معه ، وتعالوا مثل عادتكم والباقي علي . لا تسألوني كيف؟ أنا أبو حميد والا لا ؟

وتطايروا من فمه رشح الحاضرين فقالوا :

- نعم أنت أبو حميد ، لكن فهتمنا .

- ادفعوا أولا .

- لا ، فهتمنا أولا .

نهض الطروسي فدار حول المقهى وعاد . كان يجهد
لامسالك لسانه عن قول ما لا يريد، ذلك ان الجماعة «افندية»
وهو لا يطيق مباحكة هذا النوع من الناس « قال لكم ادفعوا
فادفعوا ... لماذا كثرة اللت والعجن » ؟الا ان الافندية لم
يدفعوا ، فقال في سره « يلعن والدكم ما ابخلكم ! ». وخرج
ثانية تاركا ابا حميد يتفاهم مع هؤلاء « الذين لا يفهم عليهم
ولا يفهمون عليه » .

وعاد ابو حميد يتوسل مع التهديد :
- ادفعوا هه ؟ لا تخرجوني ، اتركوا خطتي مستورة
وتعالوا اسمعوا يونس .
ودفعوا اخيرا بغير سخاء ، الا ان ما دفعوه يكفي .

١٧

ذهب ابو حميد في اليوم التالي فاشترى بطارية للراديو
برفقة ابن الجمال . كان هذا ذا خبرة في هذه الشئون ، وهو
الذي ابلغ ابا حميد ان الراديو يعمل على البطارية اذا انقطع
يوم التيار . ثم قام ابو حميد والطروسي فطافا بين الصخور
ووقعا على كهف نظفه ابو حميد من الاقدار والحجارة ، وهيا
مكانا للراديو ، واسف لانه لا يملك راديو فيسمع يونس في
بيته ويستريح .

وفي المساء بكر بالمجيء الى المقهى ، وجلس يشرب
ناركيلته لـ « عيني الشباب » . كان يشعر بزهو من انتصر ،
باعتداد من انجز عملا من اعمال العقيدة، وكانت لفحة برد
تلمس الوجوه ، والبحر الازرق يبدو نقيا وادعسا والسماء
بلورية رغم السحب التي انتشرت على خط الافق وتلونت
بحمرة المقيب .

وبدا « زبائن الليل » يتوافدون وهم يتساءلون عما اعد
لهم ابو حميد ، واين ستكون الجلسة ؟ وما هي الخطة ؟ وهل
تفاجئهم كبسة ام يسلمون ؟

كانوا اصنافا من الطلاب والموظفين وصغار الملاكين ،
وكان سماع برلين نوعا من العمل السري في نظرهم وقد زادت
هذه السرية في اجتذابهم الى المانيا نكاية بفرنسا والانكليز .
ولما جلسوا غمزوا يستعجلون فأوما اليهم ان تمهلوا .
كان في المقهى غرباء ، ويحب ، قبل تنفيذ الخطة ، ان يعرف

من هم هؤلاء الغرباء . انه لا يستطيع ان يطمئن الى كل قادم والا عرض مشروعه الى الفشل ، فالخبرون يملأون البلد ، ومن المحتمل ان يكونوا قد اندسوا بين القادمين .

ولكي يتفادى المشاكل قرر ان يصطحب اولاً الذين دفعوا باعتبارهم موثوقين ويعرفهم واحداً واحداً ، وفيما بعد ، اذا حصلت لديه قناعة بأن القادمين الجدد ممن يركن اليهم ، دلهم الى طريق الكهف ، وضمهم الى الجماعة .

وعلى هذا وقف باب المقهى وأشار الى « زبائن الليل » فانسلوا واحداً بعد آخر وتبعوه .

سار الطروسي في المقدمة ، وبعده ابو حميد ، ثم بقية « السميعة » . وكان ابو حميد يوصيهم قائلاً « بلا سيكرات يا شباب » . وكان البحر راكداً والموج ينداح بتؤدة ويلطم الصخور ، والظلمة حالكة ترف على الماء كالسحب ، ورائحة حادة تنبعث من الشقوق ، بينما النتوءات تجرح الاكف وهم يتوكانون على الصخور تارة وعلى بعضهم طورا ، وابو حميد يتلمس الطريق بعصاه ليوصلهم ويعود فيأخذ من تأخر منهم . لقد تعب هذه الليلة ، ولكن ما قيمة التعب ؟

جلس في الكهف القرقصاء ، مقابل الراديو الموضوع على كرسي صغير ، وتحلق الآخرون حوله ، بينما جلس الطروسي على صخر خلف المدياع تماما ، فلما حان الوقت اشعل مفتاح الضوء ، وبدأ الجهاز يعمل .

جثا ابو حميد وادار الابرة . كان امام الراديو كقابلة امام حامل اشتد عليها المخاض وبانت علائم الوضع ، ولم يبق الا ان يسقط الوليد في يديها كتلة من لحم طري .

ورمقه الطروسي بحبه . كان بوده ان يتولى هو ادارة الابرة ، لكن ابا حميد طلب منه ، بكلمات متوسلة لا قبل له بردها ، ان يدع له ذلك . لم يقل له انه ادرى منه بالتقاط محطة

برلين ، فقول كهذا قمين بأن يشير الطروسي ويفسد ليلة ابي حميد ، ويفوت عليه « لذة سماع يونس بين هذا الجمع من الاوادم » ، لذلك خاطبه باكثر ما يمكن من الاستعطاف :

— ابو الزهد ! خل عنك خي ، انت اسمع فقط ، لا تتعب نفسك .

فابتسم الطروسي وقال :

— شوفنا شطارتك .

وانحنى ابو حميد وراح يحرك الابرة . كان قد تعلم كيفية ضبطها من تجاربه السابقة ، ووضع اشارة بالحبر زيادة في الاحتياط ، لكن المحطة لم تكن صافية ، وسيكون الاستماع صعبا الليلة .

اطفا الراديو واشعله . فعل ذلك عدة مرات فلم يخف « البرازيت » فمد اصابعه الطويلة بين الحجارة بحثا عن الانتين ، واذا به يكتشف ان احدهم داس عليه فافلت من مكانه . كان من الطبيعي ان يطلق شتيمة ما ، لكنه لم يفعل ، بل داخله سرور شأن من خاف على شيء فظهر ان خوفه في غير محله . ان الخلل في « الانتين » وليس في الجهاز ، وهذه رعاية من الله !

— رجلك يا حسن ، رجلك خي !

رفع حسن رجله ، فشد ابو حميد الانتين وحذر الباقين من الدوس عليه :

— رجلكم هه ، انتبهوا ، راح يطلع يونس .

ركز الابرة جيدا ، وحدق في اشارة الحبر وانتظر .. ومع ذلك لم يسمع « هنا برلين » ، فأخرج ، للمرة الثالثة ، ساعة الجيب الفوسفورية ونظر فيها .. ما باله يونس لا يطلع اليوم ؟ ان خطته وكرامته وسعاده متوقفة كلها على هذا الصوت الذي ينتظر « فلماذا يصمت ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »

ثار لفظ بين الرجال ، واشعل الطروسي سيكارة خارقا
التعليمات ، وقال احدهم : « المسألة فالصو يا شباب » !
فأحس أبو حميد ، لشدة قهره ، ان شيئاً ما يحز في صدره .
كان الوقت يمضي ، ولا بد ان يكون يونس قد بدأ الان ، وقد
ينتهي بعد قليل ، ويتفرق الزائن ، ساخرين منه ومن خطته
ومن برلين نفسها .

ماذا يفعل ؟ لقد اعتاد ان يشتم او يسب الدين في مثل
هذه المواقف ، او يأتي اية حركة تنفس الغيظ ، اما الآن فقد
نسي حتى ان يشتم ، حتى ان يسب الدين ، او يأتي اية حركة
تبعث في نفسه الرجاء من يأس هذه الورطة التي قوت عليه
سماع يونس في الليلة الاولى لتنفيذ خطته .

ارتد ، بشعور من القهر ، عن المذباغ وطفق جبينه
يتفصد بعرق خفيف ، وشاعت المرارة والجفاف في فمه
الكبير . لقد اسقط في يده ! يا لها من ليلة ، « يا ليتني لم
أخذ النقود من « هؤلاء الاوباش » الذين يتضحكون من حولي » .

اشعل احدهم سيكارة فأضاء الثقاب الارض ، وهتف أبو
حميد كمن عثر في ساعة افلاس على مبلغ كبير من المال :
« يخرّب بيتك يا حسون ، ولك داعس عن الاثنين وانا
انعذب ؟ ! »

وحطت كفه الخشنة فوق قدم حسون وانتزعتها بقلطة ،
واعاد الاثنين الى مكانه فخف « البرازيت » وسمعت المحطة
فورا . بدت ضعيفة اولاً ، ثم ارتفع الصوت واصبح مسموعاً ،
فصفق أبو حميد على فخذه وصاح :

« طلع يونس يا شباب .. طلع هه ، لا احد يحكي ،
ارجوكم ، وانت يا حسون انتبه ، ارجع رجلك الى وراء . »

وتكأ الجميع وارهقوا السمع ، لكن الصوت اختنق
بسبب من انحراف الابرة ، فلم يجرؤ أبو حميد على تحريكها

لثلا تضع مرة اخرى ، فقال له الطروسي اضبط الابرة
او حميد .

« امرك خي ، ما تكرم أبو زهدي ! »

حرك الابرة بحذر شديد ، وانتظر قليلاً فاذا يونس يجأر
بصوت خشن ، والكلمات تنطلق من فيه كرشاش . عندئذ
اطمان واخرج علبة التبغ فلف سيكارة وراح يطيب ليونس :
« يا حبيبي ، يا حبيبي ، عليهم ، عليهم يا هتار ،
تسرسل ، يا تسرسل (تشرشل يا تشرشل) اطلع بره ، اطلع
من الزبيرة (الجزيرة) اطلع يا عرص ! »

كان يجعل كلمة « اطلع » في مقطعين منفصلين
وممطوطين ، ويمد صوته ، وينثر لعبه في وجوه من حوله .
« اظ ... لع يا تسرسل ! »

وقهقه الحاضرون وتحمسوا حتى اضطر الى الصياح :
« اسكتوا يا شباب ، خلونا نسمع ، العمى ، نحن في
مدرسة ؟ في حمام ؟ أبو زهدي ، كيف شايف الخطه خي ؟ ! »
« عزيمة ، لو دروا بها لشنقوك في « الشيخ ضاهر »
« من ؟ الانكليز ؟ فرنسا ؟ فشروا ، وحياتك فشروا ،
قواتهم تهرب قدام رومل مثل القطط . »

وجاءت فترة الموسيقى فسمح الحاضرون لانفسهم
بالتعليق على الاخبار ، واستفاد أبو حميد من ذلك ليستوعب
ما فاتته من كلمات . صحيح انه « يفهم الفصحى احسن من اولاد
المدارس » لكن يونس يستعجل احياناً في اللفظة ، او يستعمل
اسماء اعجمية غريبة ، ومصطلحات سياسية واسماء مدن
وعواصم لم يسمع بها من قبل ، وهو يأنف ان يستوضح
« الاولاد » خشية ظهور ضعفه في هذا المجال .

ثمة اسم كان يصعب عليه أكثر من جميع الاسماء هو
« تشيكوسلوفاكيا » فيقول « يلعن دين هذا الاسم ما اصعبه »

يا ابو الزهد « واسم آخر تعذر عليه هو « يوغوسلافيا » لكنه استطاع مع الايام ان يحفظه ويلفظه كمتيسر، وكان يقول لمن يصححه له « ولك عفريته » المهم ، اخذها هتلر ام لا ؟

وقال الطروسي مازحا :

— اذا انتصر هتلر لا بد ان يعينك رئيس شرطة يا ابو حميد .

— لا يا ابو الزهد ، لا اريد مدير شرطة ولا بطيخ ، الله اغثاني من الوظائف ، يكفي ان ينتصر هتلر ، اللهم لا تقبض امانتك حتى ارى هذه الساعة . تقولون شماتة ، نعم شماتة ، انا شماتان وجبة !

كان يتكلم بحقه ، شأن الدين ذاقوا من فرنسا وبريطانيا الاميرين ، فترنم طالب مدرسة يقف وراءه بهذين البيتين :

ياسامر الحي هل تعنيك شكوانا
رق الحديد وما رقوا لبلوانا

سمعت باريس تشكو زهو فاتحها
هلا تذكرت يا باريس شكوانا ؟

وصاح ابو حميد « حلو ياعم ! حلو ! اي والله ما رقوا لشكوانا » — لفظها شكوانا — فانقلب الجو من الجد الى المزاح ، وانتهت الموسيقى فعاد يونس الى الكلام ، وسأد الصمت مجددا ، فلما انتهت الاذاعة ، سال معتدا « شفت ابو زهدي ؟ امنتكم يا اخوان » ؟

اجاب الجميع « آمنا والله ، لعينيك ابو حميد . وقال ابو حميد متملقا الطروسي « لعيني الطروسي » . فقاطعه هذا قائلا « لعيون الرجال ! هيا نخرج » .

وخرجوا ...

قصد ابو حميد ، بعد سماع يونس ، مقهى ابن آمنة في الشيخ ضاهر . كان الوقت متأخرا ، والمقهى قد خلا من رواده ، ولم يبق في الساحة الا حارس يسير ساهما ، ضاربا بعصاه على ساق جزمته ضربا رتيبا آليا ، وكناسون يحملون مقشاتهم ويمضون الى الشوارع والاحياء ، وسيارات قليلة وقفت بحذاء الرصيف ، ومن حين الى حين يمر رجل تفتعه السكر ، او شفيل تأخر في العمل ، او عربية خضر من الضواحي ، فيما الليل البارد والسكينة القاتمة والاسواق المقفرة تشكل لوحة قاسية الخطوط تتعارض كليا مع نفسية ابي حميد هذه الليلة .

طلب ناركلية فلم يجب الى طلبه . كان المقهى على وشك الاغلاق ، والكراسي قد رفعت فوق الطاولات ، وشرع النادل يكنس الارض ، وخبت النار في الوجاق فهي لا تصلح لشيء . « اذن تأخرنا ! الصباح رباح ، غدا نلتقي ان شاء الله ، لنذهب الان الى البيت » .

اتحدر من وراء جامع العجان الى البحر . ان طريقه تمر بالشيخ ضاهر والعيونة فالقلعة فالشحادين ، لكنه سلك طريق جامع العجان في دورة طويلة لا مبرر لها . ثمة مسافات يجتازها الانسان احيانا دون هدف . انه يتبع افكاره اوبصره او النشوة التي تستشعرها نفسه من التسيار كمتشرد حر . ولم يكن ابو حميد متشردا ، الا انه لم يكن مرتبطا غدا باي عمل ، وقد يصادف من يقص عليه انباء برلين ، ثم انه يرغب

عن المرور بالاحياء العتيقة كالعينونة والقلعة ، فهذه الاحياء كثيفة السكان ، ظاهرة الفقر ، مغلقة ، اما الاحياء الاخرى فجديدة ، بهيجة ، شوارعها عريضة مضاءة . وكان الشارع الرئيسي الممتد من القلعة الى البحر يقسم المدينة الى قسمين ويأتي الشارع الطويل الممتد من مدخل المدينة في « عين ام ابراهيم » عبر الشيخ ضاهر حتى يتصالب مع شارع القلعة في حي النصارى عند ساحة صغيرة تسمى «نقطة البوايس» ، ومن هناك يتجه في خط مستقيم حتى مشارف البحر . وثمة شارع ثالث عريض يدور حول المدينة من مدخلها الى مرفأها، وتفضي هذه الشوارع الثلاثة الى البحر ، مباشرة او عن طريق جادات وازقة فرعية .

وكان ابو حميد يسكن حي الشحادين، ولا بد له للوصول الى بيته من المرور في ازقة ومنعطفات وقناطر اشبه بالسرايب تسودها العتمة حتى في ايام الصيف، وتفوح منها روائح تقبض النفس . وكان في وسع أي انسان يريد الهرب او الاختباء ان يجتاز الحي من اوله الى آخره دون ان ينزل الى الارض، بسبب من اتصال بيوته وتداخلها وكثرة القناطر وضيق الازقة، وهذا ما جعل حي الشحادين ملجأ لمهربي التبغ والملاحقين والحواة والمتكسبين من مهن غريبة لا تنهض في بدائيتها عن الارض . ورغم وجود بعض الوجهاء فيه ، فقد كان حي الفقراء الاول ، وله من اسمه واقع ذو مدلول ، ولم يكن يسكنه الغرباء ولا الموظفون ، لذلك حافظ على طابعه البلدي ، وظل متخلفا ابدا ، يقذف المدينة بانماط من طالبي الرزق، وتتألف غالبية سكانه من مزارعين صفار وحرفيين وعمال واصحاب سوابق .

ميزة واحدة كانت له على الاحياء الاخرى ، هي ان رجال الشرطة والجمارك وادارة حصر التبغ لا يستطيعون دخوله الا بشق النفس ، ولا يجروون على اي عمل فيه ما لم يوافق

المتنفدون . اما في وقت المظاهرات والمعارك الوطنية فقد كان مصدر الجماهير التي تنزل الى الشارع وتثبت وجودها . وفيما عدا ذلك، كان في نهاية السلم من حيث الترتيب الاجتماعي . لهذا كله عزف ابو حميد عن العودة اليه مباشرة . سلك طريق جامع العجان ، وانحدر صوب البحر ، حتى اذا بلغ المنشية خطر له ان يعود الى الطروسي، ويتحدث اليه عن نجاح الخطه و « يسمع منه كلمة نظيفة » .

ولم يتردد في التنفيذ . اخترق الحديقة ، ودار بين الصخور ، ووقف امام المقهى ونقر الباب ، ثم دقه فاستيقظ ابو محمد وخرج من فراشه داخل الدكة وفتح الباب . سأل: - اين الطروسي ؟

فعاد ابو محمد الى الداخل ، واشعل الضوء ، ونظر في الفراش فوجده مهبطاً لم تمتد اليه يد، ومعنى هذا ان الطروسي ليس في المقهى، ولا احد يدري اين يكون في هذه الساعة . اجابه :

- الطروسي لم ينم في المقهى ، تفضل ، خير ؟
- سلامتك (وبعد تردد) هل انت نعسان ؟ لم يأتني نوم الليلة .

طلب فنجان قهوة « على الريحة » فلما ذهب ابو محمد لاعداده تبعه والقى عليه هذا السؤال :

- سمعت يونس اليوم ؟
- من اين ؟ اذا سمعتم يونس في المقهى اخرج انا للمراقبة ، واذا سمعتموه في الخارج اكون انا في المقهى .
- فانتك هذه الليلة . والله ليلة بسنة ، كان يونس،

يا ابو محمد ، يصرح مثل السبع الكاسر ، ويصف على كيفك . كلام عسل ، اي والله عسل، انا شبعنا من يونس الليلة!

قالها بحرارة وجلس ، واضعا رجلا على رجل ، فتدلى اليه شرواله ، وخلع مداسه المعكوف ، وترشف رشفة من

القهوة وناول ابا محمد علبة التبغ :

— خف لف سيكارة .

فسايره ابو محمد قائلا في نفسه « لا بأس بسيكارة للتفخيخ » .

وسالته :

— كيف شفت الدخانات ؟

— يا عيني ، شغل الجبل !

— معلوم ، عندي منه مشروبي الخاص .

ومضت فترة صمت قطعها ابو حميد قائلا :

— آه لو كنت معنا اليوم .

ولما لم يجبه بشيء ، بادره بهذا التنبيه :

— سامعني ابو محمد ؟!

— الله !

— قلت آه لو كنت معنا اليوم .

— جلسة حلوة ؟!

— حلوة وبس ؟ شهد ، خطة محسوبك (قاطعه ابو

محمد قائلا : محسوب ربنا) وتابع ابو حميد : تركت يونس

بأخذ حريته . قلت في نفسي يا ولد افتح الراديو على آخره ،

يعني في بعض الاوقات ينسى الانسان نفسه ، صحيح والا لا ؟

— اي نعم ، صحيح .

— وانا نسيت . . . نسيت الخطر واولاد الكلب ، وفتحت

الراديو وقلت له اشتغل على كيفك يا حبوب . . . واشتغل ،

بصراحة يتض وجهي ، الحقيقة شيء على الكيف ، شي حلوة ،

الامان حرقوا قلب الانكليز . .

— وفرنسة ؟ هل صارت لالمانيا ام لا ؟

— صبح النوم ! صارت من اول الحرب ، اخذها هتلر

بقوة ذراعه ، وسكان باريس قالوا للزعيم خذها فلا تعلن الحرب !

اطبق شفتيه على حرف الباء بقوة ، فتناثر اللعاب من

بينهما ، ومد يدا كالمدراة الى فنجان القهوة واضاف :

— والله لو كنا نحن اخذنا باريس ما فرحت اكثر مما

فرحت يوما ، ياشماعة قلبي ، الله اخذ بشارتنا يا ابو محمد ،

لكن قلبي لا يبرد حتى يأخذوا لندن .

تناول علبة التبغ ولف سيكارة لنفسه وعزم باخرى على

ابي محمد فرفض ، فكرر العرض قائلا :

— خذ ابو محمد ، السيكارة حلوة في الليل (وبعد

وقفة) انت تعرف باريس ؟

— لا يا عم .

— وما سمعت باسمها ؟

— نعم سمعت ، قالوا مدينة كبيرة ، اكبر من البحر .

لكن الطروسي قال :

— فشرت ، البحر اكبر

— لا يا ابو محمد ، باريس اكبر ، اي العمى ! باريس لعبة ؟

فسكت ابو محمد كأنه لم يقتنع .

— ما صدقتني ؟

— والله ما صدقت ، عدم المواجهة ، الطروسي قال . .

فانزعج ابو حميد وقاطعه :

— اي الطروسي مهندس ؟ باش كاتب ؟ خلصنا ابو

محمد ، محسوبك ما قليل في هذه المسائل ، اي عجنت الدنيا

وخبزتها ، واخبارها كلها في صدري !

غير ان ابا محمد لم يتزحزح عن رايه « الطروسي قال

البحر اكبر ، اذن فالبحر اكبر » فأسف ابو حميد لانه « اضطر

ان يتحدث في السياسة الى بهيم هذه الليلة » وقرر في ذات

نفسه « باريس اكبر ، وهذا ما يعرفه الجميع » وسيتحدث بما

سمع الليلة في نص مقهى ابن آمنة في الشيخ ضاهر غدا .

نهض فورا فدفع ثمن القهوة وخرج ، وفي طريقه ، بعد

ان اجتاز حديقة المنشية ، مر بدار المندوب السامي الفرنسي

فبصق وتعمم « اذا كانت باريس نفسها يحكمها هتلر ، فلن يبقى هذا العرص في اللاذقية باذن الله » .

صعد من جديد نحو السراي، قاصدا حي الموارنة فالصليبية والتشاذين . انها طريقه المعتادة ، يقطعها ذهابا وابابا كل يوم تقريبا ، ويفضلها على سواها .

وكانت المدينة ، من حوله ، تنام ، والبحر وحده يسهر ، يفني على هواه ، ويعزف بامواجه نشيده المختار . انه يفني لنفسه ، لليل ، للقمر ، للنجوم ، للسحب وصخور الشاطئ ، ولا يبالي بمن يصفى ومن لا يصفى ، حسبه انه يفني .

وابو حميد يمضي متمهلا . انه ، كسكان الشاطئ ، يحب البحر ، ويحب الليل ، والقمر ، وله مزاج رائق وذكريات خاصة . «لقد كانت ام حميد ، رحمها الله ، مثل غصن الزنبق» تلتف بملاءتها وتنظر اليه من وراء الباب حتى قبل عقد القران . ولكم اشتهي نظرة منها في ذلك الوقت! نظرة طويلة، طويلة لا لمحة عين ولا خبطة نظر او تخايل من وراء النافذة . لقد اشتهى هذه النظرة بكل جوارحه ولم ينلها الا بعد الزواج ، ومن ثم عاشا معا اياما حلوة هنيئة، حتى جاء الموت وفرق بينهما . « ايه يا زينب ، يا ام حميد ، متى يكون اللقاء؟ » كذلك هتف وهو قرب السراي ، واصفى الى تنفس الليل من حوله بخشوع وهيام .

المدينة تنام ؟ كلا ، انها لا تنام . ثمة ، وراء النوافذ والابواب ، تجري اللعبة المعتادة . ان ساكني الاكواخ يعرفون ما يجري في الدور والقصور من اشياء . يتصورون ، في وهم الخيال ، النساء الجميلات ، العاريات ، والاضواء الحمر ، والخمور والعطور ، وكل ما يجري في القصور في مثل هذه الساعة .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل . وكان الطروسي قد ترك ام حسن عائدا الى المقهى، يريد

معرفة ما اذا كان رجال الامن قد عادوا اليه ، او ان احدا يحوم حوله . ذلك انه يعرف ان صالح برو سيخرج من السجن يوما ، وسيلتقي به على نحو ما ، كما يعرف ان له اعداء ، وان عليه الا يغفل عن المقهى .

وظلت ام حسن شبه نائمة . لم تفتح عينيها تماما ، ولكنها ، بين اليقظة والرقاد ، راته يغادر البيت ، تقتلبت في فراشها وغمغمت مخمورة بنشوتها ، تعبئة من شبق بذلت في اروائه كثيرا من قواها .

ولقد لاحظ الطروسي انها ، عقب كل ليلة كهذه ، تنام ملء جفونها حتى الضحى ، واذ تصحو تكون موردة الخدين ، موفورة الصحة ، ريانة كفرسة سقيت في المساء ، واذ ذاك يشتهيها مرة اخرى ، وتكون هي متفتحة للحب ، يتصاعد من كل مسام جسدها الابيض الرخص نداء الى استئناف الفيوبة في لذة الامس ، فيحلو له ان يقبلها ، ان يعصرها ، ان يأخذها بين ذراعيه ، ان يحتويها كقطة اليغة معافاة ، وان تظل هكذا ، في قميص النوم ، بدون اغتسال ، بدون زينة، آثار الاحمر على شفثيها، واختمار النوم ينضح من جسمها الحار .

وكانت هي تحسن استشارته . تعطيه كتفها وتقول له « عض ، عض » وتضع فمها على اذنه وتهمس بكلمات تعرف انها ، من بين سائر الكلمات، هي الاكثر استشارة في مثل هذه المواقف ، وتحرص على مناداته باسماء محببة، وتأتي بحركات وايماءات اثنى تشد اللذة لنفسها ولصاحبها، ولا تتركه الا وقد تلاشى ، وذابا معا، واصبح كل منهما بحاجة الى الراحة والنوم ، فتيسط له عندئذ ساعدها وتقول « نم ، نم يا قلبي، نم على زندي » .

وتمسح على شعره بكفها ، وتجفف العرق عن جبينه بمنديلها ، وتترك حالها على نفس الوضع الذي كانت عليه ، نفس العري ، نفس تبعثر الشعر ، نفس تهدل حمالتسي

القميمص الداخلي على الزندين . حتى اذا نام هو منكمشا ،
منتھيا ، كانت هي متفتحة ما تزال ، تحس بدبيب النشوة ،
وتغفو سعيدة ، تغغم جوارحها باصداء الكلمات التي سمعتها
وتتلمظ شفتاها بما تبقى عليهما من رحيق .

ويستيقظ هو قبل الفجر ويمضي ، اما هي فتظل نائمة
حتى الضحى ، حتى قبيل الظهر ، مستسلمة الى خدر لذيذ
يسري في مفاصلها وعروقها مع الدم .

الشيء الوحيد الذي يقلق حياتها هو الوسواس . الخوف
من ان يهجرها كما هجر غيرها ، وبذلك تفقده وتعود سيرتها
الاولى .

« اذا فقدته فقدت حياتي . سأنحدر بالقاء نفسي في
البحر » ثم تقلع عن فكرة الموت قائلة « سأبقى ، لا بد ان يعود
الي ، انه يحتاجني لان امرأة غيري لا تستطيع ان ترضيه كما
ارضيه ولا ان تحبه كما احبه ، يا ترى لماذا احبه بهذا القدار ؟ »
وتضحك لهذا السؤال ، فتقول لها زكية ، المعجوز التي
تعيش معها : « وهو ايضا يحبك .. هذا رجل لا كالرجال
يا بنتي ، قحل وشجاع ، لا تحسبي للعمى اي حساب ،
فالرجولة ليست في العمر . شباب اليوم لا خير فيهم ولا نفع ،
من يوم رايته في طاقة السجن اشتييته لك ، ولما ذهبت اليه
ظل محتفظا بهدوئه وقال « سلمني عليها » انا يا ستي احببته
كما لم احب اي رجل من قبل ، انه رجل مهيب ، نصف رجال
البلد تحسب حسابه ، ومن يوم دخل البيت ادركتنا الحماية
ورحمة الله . كانوا يرشقون بيتنا بالحجارة ، ويسمعوننا
الكلام ، ويتناولون علينا ، فكيف نحن اليوم ؟ حتى الدرك في
مخفر السجن يعاملوننا باحترام ، والماسجين ينزلون عن الطاقة
اذا راوه في الشباك ، وكل جيراننا يسألون خاطرنا بحمد الله »
- ولكن لماذا لا ياتي كل ليلة ؟ لماذا يذهب في الليل ؟
هل سألت ؟ وماذا قال ابو محمد ؟

- سألته فقال انه لا يعرف . ينام احيانا في المقهى ،
وينام في غير المقهى ، ويذهب فلا يخبره الى اين ، ويأتي فلا
يقول له من اين .

- ولماذا لا يسأله ؟

- سأله ، تكن الطروسي لا يعطي اسراره للناس .
- وما رأيك انت ؟ هل يحب غيري ؟

- ما اظن يا ست النسوان . ولنفرض انه حب غيرك
فما قيمة ذلك ؟ الرجل يحب اكثر من امرأة ، الرجل لا يكتفي
بامرأة ، وهذه عادة الرجال ، لكن الرجل مرجوعه الى بيته ،
الى حبيبته . وبيت الطروسي وقلبه عندك فلا تشغلي افكارك
ابدا ، ارضيه ، تجنبي كل ما يزعله ، واكتبي له عند الشيخ
ابراهيم ، وذوبي الورقة في كأس واسقيه . الشيخ ابراهيم
يفعل الاعاجيب ، اي المطلقة ، الله يخليك ، يرجعها انسى
زوجها ، لكن انا مطمئنة انه لا يحب غيرك ، انا اعرف الرجال
اكثر منك ، خبرتي فيهم تعجبك » .

وتسألها ضاحكة :

- من اين جمعت هذه الخبرة ؟

- لا تسألي

- لا اسأل ؟ كم رجلا اخذت ؟ ومن الذي احببته اكثر ؟
وتقول زكية كل ما عندها . تحكي حكايتها الحافلة
وتزيد فيها وقد تعتمد وسوستها فتقول « ما من امرأة تشوف
الطروسي يا بنتي الا وتشتيه . المرأة لا تحب الا الرجل ، ومن
في البحارة ، يا عيني ، ارجل منه ؟ الميناء كلها تحكي عن
وقعة ابن برو » .

وتبعث كلمات المعجوز اشد الخوف فيها ، فتعيش على
نوع من قلق لا يتبدد الا وهي بين ذراعيه ، تدوب شوقا اليه
كلما سعت الى اطفاء شوقها منه ، وترتعش بلذة لا تعرفها
الا المرأة التي تسعد بخضوعها العاطفي الى رجل قوي ، تعبده

وتمنحه ، في محاولة للارتواء منه ، كل ما في كيائها من حب ودفع .

لقد صغر الرجال الذين عرفتهم في ماضيها جميعا امام هذا الرجل . العمر لا دخل له كما قالت زكية . انها فحولة ناضجة لرجل مستبد الهيبة ، اذا نظر كانت نظرتة نداء لا يمكن للانثى ان تتجاهله طويلا ، فاما ان تهرب واما ان تقع ، ولكنه قلما كان ينظر ، فهو من هذه الناحية ، لا يكثر كثيرا ، ولا يأتي بحركة تساعد على حدوث مغامرة ما ، فعل الذي عرف كثيرا واصبح قديم نعمة في عالم الهوى والحب .

وهذا بالذات : الهيبة ، وعدم الاكتراث ، والنظرة ذات الفتيل المشتعل ، هي التي اخضعها بعد طول تمرد ، فاذا ذكرت ماضيها ، وعددت الذين عرفتهم ، شعرت انهم اسم يملأوا حياتها كما يملأها ، ووجدت انهم ، رغم اختلاف اعمارهم ، لم يكونوا الا اطفالا مسلمين ، او مملين ، او في الرجولة من الذين يمكن ان يرضوا الجسد ، ولكنهم عاجزون عن ان يستبدوا بالعاطفة ، ان يروضوها ويخضعوها لسلطانهم .

ومع انها تأبى الخضوع بسهولة ، وتنفر من التضييق والوصاية ، فانها تستجيب للرجل القوي ، وتنقاد لرايه ، بل تجد لذة في معاشرته ، وتبرر ذلك بما سمعته من حق الرجل على المرأة . ولربما كان استسلامها الحاضر تكفيرا عن تمردتها السابق ، فبقدر ما كانت « عفريتة » في صغرها ، طائشة ، عابثة بكل شيء ، اصبحت صابرة ، قانعة ، راضية بالقليل . لقد اصبحت فتاة الامس امرأة اليوم . صحيح ان جمالها ما يزال محتفظا بروائه ، فالجسم البض ، الرشيق ، ما يرح بضا رشيقا وان امتلا ، والصدر الناهد ، على ما اصابه ، ظل ناهدا مشيرا ، والبشرة البيضاء الوردية ، والعينان الشهلوان ، المضحكتان ، والوجه البضاوي ، كلها تحتفظ

بملاحتها ، بل وتتألق بسبب من نضج الانوثة ، الا ان الافكار تغيرت ، والطبع سلس ، وعفرتة الصغر استحالت الى شيء من تقدير العواقب . ولو كان ذلك كذلك في ايام المراهقة لما خدعت بذلك السمان الذي استدرجها الى حانوته ، وغرها بشبابه ، ثم منها بوعوده وبعض الطيبات ، فاذا طيباته طعم ، واذا هي فريسة . كان السمان ربع القامة ، جميلا ، انيسا ، لم تشعر حياله بايما قلق او خوف . وكان حانوته احسن حانوت في حيها القديم ، وقد مرت به كثيرا ، ولعبت الى جواره صغيرة ، وارسلتها امها اليه لشراء الحاجات منذ ما اصبحت قادرة على ذلك .

وهي لا تدري متى وكيف بدأت علاقاتها بالضبط . كانت عائلتها تستدين من السمان ، وكانت تتأخر احيانا في سداد الدين ، فاذا ما اضطرت الى دين جديد ، لوت عنقها وتحملت المنة . وكان هو يهش لها اذا جاءت الحانوت في طلب او شراء ، ويمطيها ما تطلب ، وينظر في عينيها نظرة تشجيع ، وبحدائها ، بل يمسكها من يدها اذا انفرد بها . ثم دعاها الى السينما ، واشترى خاتما لبسته خفية ، ثم لبسته علنا زاعمة انها عثرت عليه في الطريق . وتطورت العلاقة بينهما ، وانتقلت الى حب ، واحست والدتها بذلك فمنعتها من الذهاب اليه ، ونهتها عن محادثته ، وحظرت عليها الخروج وحدها ، ولكن شيئا من ذلك لم يجد ، ولم يجد التهديد ولا الوعيد ، بل ولا الضرب نفسه ، وكان اللقاء يتم في مستودع الحانوت ، وهناك احتواها بين ذراعيه لأول مرة ، وقبلها ، وقال لها احبك ، واشعرها الدفء واللذة ، ثم لعب لعبته ، ووعدها بالزواج ، واتخذ منها الهية لعام كامل ، فلما اعلنت انها حامل تخلى عنها ، واقلع عن مواعدها ، وتنكر لعهوده ، وكل ما صنعه انه اخذها الى طبيب اجهضها ، ثم عرفها على عائلة استخدمتها بعد ان افتضح امرها وهربت من ذويها .

وكان سيدها لسنا ، دمثا ، كريما ولكن فاسقا ، وقد يكون السمان هو الذي زين له امر استخدامها ، واغراه بها ، فلم تعض فترة حتى اخذ يغازلها ، وطفق يراودها ، ويرهبها ، ويرغبها ، ويقتحم عليها غرفتها .

ولم يتأخر امرها ان انكشف .. عرفت سيدتها حقيقتها فطرزتها . وخرجت من هذا البيت باسوا مما دخلته ، وعادت الى السمان باضعف مما غادرته . لم تطالبه كالسابق باصلاح الخطأ ، ولم تحاسبه على فعلته ، بل رجته ان يسمح لها بالمبيت في مستودعه ، ريثما تهتدي الى بيت يؤويها ، او عمل تعتاش منه . وقبل السمان ، وضاجعها ، وفرض نفسه عليها ، واحتملت ذلك على مضض ، نامت معه وهي تستشعر الكره له ، والرغبة في ان تخنقه ، في ان تمزقه او تفقأ عينيه ، انما كانت عاجزة شريدة ، وكان لديه المستودع ، واللقمة ، وفي وسعه ان يطردها ساعة يشاء .

هكذا سقطت قبل اثنتي عشرة سنة ولم تستطع ان تنهض ، وربما لم تسع الى ذلك ، او لم تعرف سبيله ، وظلت تهوي ، درجة درجة ، الى ادنى السلم ، وظلت تنتقل ، من يد الى يد ، ومن بلاء الى بلاء حتى سئمت الحياة . عاشت في الزوايا المخمورة ، ورات الوجوه السيخة ، ومضغت شقاءها وحقدتها طوال تلك السنين . لقد خطب ودها كثير من الرجال ، وحاول بعضهم اصطفاها ، بل منهم من اقسم على الزواج منها ، لكنها ما كانت تحسن الظن بأحد ، ولا تصدق وعدا . أنها تعرف ما وراء الكلمات اللطيفة ، وتذكر الاشياء بالتجربة ، وتذكر ايسام شقائها ، وترتمش اذ تستعرض وقائعها ، وترعد فرائصها حين تتراءى لها الوجوه التي عرفتھا ، وتشعر بخوف حقيقي اذ تذكر « البلطجي » الذي وضعها تحت حمايته ، وفرض عليها وصايته ، وتاجر بها ، وابتر أموالها ، فلما هربت منه لاحقا ، ولما قاومته ضربها ،

وتنقلت من مكان الى مكان ، ومن بلد الى بلد ، حتى وصلت اللاذقية وظهر الطروسي في حياتها . كان تعارفا عاديا ، جسديا بحثا ، ثم تكرر اللقاء ، وتكرر الحديث ، ونمت انعاطفة وتألفا ، ووجدا من الوحدة والشقاء جامعا ، واقترح عليها ان تكون عشيرته ، فرضيت ، وانتقلت الى البيت الصغير اندي فتحه لها ، ونعمت الى قربه بفرحتين : فرحة المرأة التي اصبح لها رجل ومبيت ، وفرحة الطريدة التي امنت شر مطاردها . لقد كان على « البلطجي » ان يدعها وشأنها او يجب استخلاصها من الطروسي . ومع ان الطروسي لم يحدثها بشيء عما وقع بينهما ، ولم يمن او يسأل عن الماضي ، فانها عرفت عن طريق زكية بما جرى بينهما . رآه يوما يحوم حول البيت فخرج اليه . وسأله عما يريد ، وافهمه ان الماضي مضى ، وان المرأة اصبحت في بيته ، وان التحرش بها يعني التحرش به بل اكثر من ذلك : الاعتداء على حرمة ، وخيتره بين ان يكف او يرغمه على ذلك ، وتركه يفكر . وادرك الرجل ان فريسته افلتت ولا فائدة من ملاحقتها ، فغادر المدينة لبحث عن غيرها ، واقبل الطروسي عليها يقول « انت لي بعد اليوم ، ومعنى هذا ان انسانا لن يمسك ، فاطمئني » .

واطمأنت ، واحبت ، واخلصت . لقد وجدت اخيرا رجلها ، ووجد الطروسي امراته . وكان قد مل التشرد ، ونزع الى بيت وقلب ، ووجد فيها ضالته . ولما اختار لها اسم « أم حسن » ضحكت قائلة : « اسم صبية ام عجوز هذا ؟ » قال : « انا لا يهمني الاسم ، ولكنني افضل على نجوى » وفهمت انه يريد لها ان تنسى ماضيها كله ، بما فيه اسمها ، فوافقت . وسعدت باسمها الجديد وحياتها الجديدة ، وبات همها الوحيد ان يبقى الطروسي لها ، وان تحتفظ به لنفسها ، وكانت تتساءل : « هل استطيع ذلك ؟ وكيف ؟ » .

لم يصادف الطروسي احدا حول المقهى . ولم يعد اليه رجال الامن ، فنام في مقهاه بقية الليل . وداعب ابو حميد ذكرياته واغفى عليها ، فلما افاق باكرا خرج الى السوق ليستمع الى مصطفى خادم الجامع يتحدث عن ميزان النوم . فقد زعم مصطفى ان الانسان يحتاج الى رطل من النوم في اليوم الواحد . وقد استقر الراي بينه وبين الحاج محمد السيد على هذا . وكان قد ثار قبل ذلك جدل طويل بينهما حول هذا الموضوع ، فالحاج محمد السيد يقول ان النوم لا يوزن ، وان المدة الكافية للانسان منه تتفاوت بين خمس وست ساعات ، وانه يعرف هذا قياسا الى نفسه ، بينما يؤكد مصطفى ، وكان مفرما بالجدل ، انه قرأ في مجلة او كتاب - لم يعد يذكر - ان النوم يوزن ، وان حاجة الانسان منه تقدر برطل ، وقد ينام الانسان يوما كاملا ولا يحصل على الرطل ، بينما قد ينام ساعة واحدة ويزيد نومه على ذلك ، وزعم انه اختبر ذلك بنفسه فوجده صحيحا .

وقال ابو حميد وهو يسمع الى هذا الكلام «يا سبحان الله، حتى ميزان النوم اخترعه، يمكن هتلر هو الذي اخترعه» .

فانكر مصطفى هذا الزعم ، واكد ان الذي اخترعه ليس هتلر ولا المانيا ، وهو يذكر ان المجلة التي قرأ فيها الخبر لم تأت على ذكرهما مطلقا .

- يمكن نسيت .

- لا يا ابو حميد ، ذاكرتي قوية والحمد لله . هتلعنده

اختراعات اقوى ، ولكن رطل النوم ليس من اختراعه .

- اذن من اختراع الانكليز !

- ولا من الانكليز

- كيف ؟ لا من الانكليز ولا من الالمان ، اي معقول ؟

ممن اذن ؟

فضحك مصطفى وقال :

- اي الدنيا ما فيها غير الالمان والانكليز ؟ انت يا ابو

حميد ، ولا مؤاخذه ، حصرت الدنيا كلها في الدولتين ، فكل مسألة اما ان تكون المانية او انكليزية ولا ثالث لهما ، قراءاتك خفيفة .

فتدخل اسماعيل كوسا قائلا :

- بل معدومة .. ابو حميد لا يكتب ولا يقرأ اصلا .

فاعترف :

- اي نعم ، من هذه الناحية فالصو ، لا افرق بين

الالف والمئذنة ، ومع ذلك افهم .. كيف خي اسماعيل ؟

- وفهمائك خفاف ، لا تشد يدك !

فاعترض مصطفى :

- لا والله ، ابو حميد يعجبني ، الكلمة عنده كلمة .

قال اسماعيل :

- كلمتك انت يا شيخ مصطفى هي الكلمة، لا كلمته هو ..

فقال ابو حميد مستثارا :

- اي نعم ، كلمة الشيخ مصطفى يا سيدي ، انعم واكرم،

خوجايتنا عالم والحمد لله ، ما مثل .. لا تجبرني احكي هه !

فضحك اسماعيل كوسا من قلبه . لقد استطاع ان

ينرفز ابا حميد ، وان يعكر مزاجه من الصباح . ودخل الشيخ

مصطفى الى الكتاب لتعليم الاولاد ، وتوجه ابو حميد الى مقهى

ابي زكور ، بعد جلسته الصباحية امام دكان علي الخياط .

كان الضحى يرتفع .. واولاد حفاة ، مشعثون ، يلعبون

وسط الشارع ، وجمال وحمير تمر ، ونساء بالملاءات يسرن ذاهبات آبيات ، والكنيسة المعلقة في نهاية الشارع تنتصب في منتصف الساحة بجدرانها الاثرية وقوسها المتهدم ، والحي قد خلا الا ممن لا عمل لهم ، ومقهى ابي زكور ، على مقربة من الكنيسة ، يستأنف حياته المعتادة ، ومن جوفه تنبعث رائحة التبغ والتبناك ، وتعالى ضربات احجار النرد ، وفي صدره وزواياه يتجمع بعض شاربى التراكيل .

لقد نام ابو حميد نوما قليلا ، حصل فيه على رطل من النوم ، وهذا هو المهم . ذلك انه من بين سائر اقوال مصطفى خادم الجامع اغرم بمسألة « رطل النوم » فصر يكثر السهر اعتمادا منه على ثقل نومه ، وكان يفكر قائلا : « لو عملنا مصطفى من جماعة يونس لحصل لنا نفع عظيم ! » وكان ، في هذا ، يحسب حساب نفعه الخاص ، لانه سيتمكن بواسطته من فهم بعض الكلمات التي تفوته فيتحسر عليها ، لان فواتها كثيرا ما قلب المعنى المقصود ، وافقد اخباره قيمتها . اما بالنسبة الى المانيا فان الربح هائل ولا شك ، لان حي الشحادين لم يكن يعرف من الكتب والمجلات الا القليل النادر ، وكان الذين يقرأون اندر ، وبحكم هذا اصبحت لمصطفى مكانة محترمة ، وقد تعرض الى بعض الانتقادات ، وخاصة من الحاج محمد السيد الذي رآه يقرأ في كتاب « الموجز في الكيمياء » معتزلا الناس ، لا يترك القراءة الا في اوقات الصلاة .

ولم يكن مصطفى يفهم شيئا من هذا الكتاب الذي وجده عند علي الخياط ، ومع ذلك ثابر على قراءته ، وكل غايته ان يأتي بجديد من امثال نظرية النوم . وقد قال لابي حميد يوما « اذا وجد من يفك هذه الطلاسم فانه يستطيع صنع الذهب من النحاس » فقام ابو حميد وحمل هذا القول الى الحاج محمد السيد والى كل من رآهم ، وزاد عليه ان مصطفى نفسه سيصنع اكسير الذهب ، وعندئذ ازدادت النعمة عليه ،

وقالوا ان خوجايتنا فسد وربما جن ، الا انه عرف كيف يسدد هذه الاقوال ، ورد على اتحاج محمد قائلا « اطلب العلم ولو في الصين ، ونحن نطلبه في حينا والتوفيق من الله ! »

ومضى في القراءة وفي طلب العلم ، وكان معجبا بالمتحررين من العلماء اشد الاعجاب ، ويستشهد بالشيخ محمد عبده وغيره ، ولا يبالي بما يقال ولا بما قد يتعرض له . لقد أصبح من احرار الفكر ، بل من شهدائه في نظرنفسه ، وبات يتطلع في خروجه عن المألوف الى سيرة كسيرة طه حسين « هذا ايضا كان شيخا ازهريا ثم صار دكتورا ، المعطي هو الله » لكنه كان يتساءل في ذات نفسه « هل تحتل البلاد العربية اثنين من هذا الطراز : انا في سورية وطه حسين في مصر ؟ ومن الذي سيتفوق على الاخر في النهاية ؟ »

ثم ان مصطفى كان خطيبا ذرب اللسان ، وله مواقف خطابية تذكر ، الا ان ابا حميد استحسن من كل ارائه ما سمعه عن « رطل النوم » ، ورغم سهرته الطويلة امس ، شعر هذا الصباح انه نام رطلا وزيادة . وعلى هذا غادر البيت منشرا مسرورا ، فلما مر بدكان علي الخياط كاد اسماعيل كوسا ان يفسد عليه صباحه ، لكنه ما لبث ان عاد الى صفائه بعد ان ترشف قهوته عند ابي زكور ، فرفع عصاه باتجاه الكنيسة المعلقة التي بناها الرومان وقال :

— سبحان مغير الاحوال (والتفت الى من حوله واضاف)
اذا كان الرومان انقلعوا من هذه البلاد فهل تبقى فرنسا ؟
فرد عليه او زكور قائلا :

— فشرت وحياتك ، لولا الحرب ما بقيت يوما .
وقال ابو حميد :

— وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم . الحرب !
اي اسألوني انا اين صارت الحرب ؟ هتار عاد الى الهجوم في روسيا !

— ومن أخبرك ؟

فابتسم ابتسامة العارف بالاسرار وقال :

— لا ، الاخبار نعم ، اما من اين تأتيني فلا .. لا تورطوني وتورطوا انفسكم ، السر اذا تعدى اثنين شاع ، وانا رجل كتوم لان المجالس بالامانات ، يكفي ان تسمعوا ، اخباري صحيحة مئة بالمئة ، هل كذبت عليكم يوما ؟
— باطل !

— اذن اسمعوا اليوم هذه الخبرية الجديدة ، الانكليز يطلبون الصلح .

حاولوا استيضاحه ومعرفة التفاصيل ، الا انه امسك عن ذكر اي شيء ، ولعله نديم لانه قال ما قال ، فمثل هذا الخبر مكانه مقهى ابن آمنة في الشيخ ضاهر لا مقهى ابي زكور في الشحادين .

انه يسمع الاخبار في البطرنة ، ثم يقسمها حسب اهميتها ويخص كل مقهى بما يتلاءم مع مكانته وزبائنه ، فاذا كانت لديه اخبار هامة لا يذهب الى الشغل ، ولا يجلس في مقهى الحي ، بل يتوجه الى الشيخ ضاهر ، الى حيث « الاوادم الذين يسمعون ويفهمون .. ما مثل اولاد الشحادين الذين تدخل الكلمة رؤوسهم من طرف وتخرج من طرف » .

ثمة اوقات كان يرتد فيها الى الحي ارتدادا مفاجئا ، ذلك حين يعاكسه « الاوادم » في مقهى ابن آمنة ، او حين يشتاق الى « الدراويش » الذين يسمعون ويصدقون وينقلون الاخبار حتى تسبقه الى مقهى ابن آمنة نفسه ، فيضحك اذ ذاك ويقول لمن يريد تسجيل ظفر عليه « هذه من بعض منسياتنا يا عم ، هات غيرها » فاذا اعياهم الاتيان بخبر جديد ، قذفهم هو بآخر اخباره ، فاذا لم يكن من الاخبار الخارجية كان من الاخبار الداخلية ، واسنده قورا الى يونس : « سمعته امس ، من الفم للاذن » فاذا لم يصدقه الحاضرون

اغتاظ وقال « طيب ، انتظروا تروا ، اعمال السياسة شيء واكل الهواء شيء ، لا بد ما يأخذ الخبر حقه ومستحقه ثم يذاع على الناس ، رجلي في اكبر سياسي ، انا رب السياسة ، راح تضطروني اصرح اكثر من اللازم هه » ويتناثر لعبه في وجوه من حوله فيسكتون ، فاذا تهادوا في استفرازه انقطع عن مقهى ابن آمنة واستقر في مقهى ابي زكور حتى يحصل على خبر كبير ، خبر لا يستطيع احد المناقشة فيه او التشكيك في صحته .

وانتهى شرب القهوة ، واحترق راس الناكيلة كله ، فلف ابو حميد النريش ، وقطع الطريق الى الرصيف الاخر ، وحلق ذقنه عند ابن المز ، واخذ الدرب الى الشيخ ضاهر ، ودلف الى مقهى ابن آمنة رأسا :
— السلام عليكم يا شباب !

كان الشباب يلعبون الورق والنرد ، فانتحى ركنا قصيا وطلب فنجان قهوة . ثم جاء اسماعيل كوسا وجلس معه يحاول مصالحته ، وجاء آخرون حتى زادت الحلقة عن المألوف ، ورغم ذلك لم يتكلم .

سأله : — ما هي الاخبار اليوم ؟

— سلامتكم ، ما عندي شيء !

— ما صحيح ، على لسانك كلام

— لا كلام ولا ما يحزنون ..

— خلصنا

— ما عندي شيء ، صدقوني

— ما صحيح ، انت ابو الاخبار .

— ولك ابني للاخبار مواسم ، مثل صيد السمك ، اي

في كل يوم يوجد صيد ؟ لا والاخبار كذلك .

— واين سهرت المارحة ؟

— لا تسالوا .

قال اسماعيل كوسا مازحا :

- شهر مع احدى الستات

- لا اسماعيل ، انت غلطان ، من هذه الناحية راحت

علينا ، سهرة الرجال مع الرجال ما مع الحريم ، كنت مع جماعة « زكرتية » مثل افضالكم ، اتركوها مستورة ولا تخرجوني .

- اي خلصنا .

- ما عندي شيء .

- طيب وكيف الحالة ؟

- مليحة .

- سمعت اين وصل الالمان ؟

- لا .

كان الدين حوله ادنى مقاما من الاخبار التي عنده، فنظر في المقهى نظرة مطرب او صاحب جوقة ، ووازن بين اخباره والجالسين فأخذته العزة في اخباره، ورفض ان يتكلم باصرار قال رجل معروف بانه يبيع التبغ المهرب على « عينك يا تاجر » :

- ما من عادتك ابو الحمد ، هات من عندك .

- هات من عندك انت .

- اخباري معروقة ، البارحة كبسوا بين النعنع .

- وضبطوا شيئا ؟

- ضبطوا هذا (وبسط كفه فوق الطاولة مرفوعة

الاصبع الوسطى في ضربة قوية)

- يعني مثل العادة .

- واكثر ، اكلوها بهدلة ، بيت السبع لا تدخله الكلال

ابو الحمد .

- والدخانات ؟

- تهربوا ، الحريم وحدها عملت الشغلة ، وحياة

شواربك الرجال ما تدخلوا . كنا منتظرين حتى تحمي الحديد، لكنهم انصرفوا بسلامة . قلنا لهم انتم اولاد عرب مثلنا ، ما راح تؤذيكم ، ابعثوا الفرنسيين . اذا كان فيهم رجال خليم يدوسوا الشحادين .

- وماذا قالوا ؟

- لفوا ذنبهم ومشوا .

- آه يا سباع !

- انت السبع هات من عندك ، اي نشفت ريقنا ،

خلصنا !

- والله ما عندي شيء . كانت الدنيا « قرتونة » (١)

البارحة ما طلعت معي برلين .

- وانت يا عم اسماعيل ؟

- انا اخباري داخلية . سمعت في البازار ان الجماعة

في الشام سيقومون بحركة .

قالها باهتمام وخطورة قاشرايت اليه اعناق الحاضرين، وتجمعوا اكثر حواليه ، ولم يستطع ابو حميد نفسه ان يبقى لا مباليا .

- حركة ؟

- اي نعم ، ويمكن ان تقوم في الشام وحلب وحماة وحمص

واللاذقية بوقت واحد .

اسماعيل كوسا ملاك متوسط ، يعيش من املاكه ، وهو لا يهتم بالسياسة عادة ، ثم ظهر الان وهو غارق فيها حتى اذنيه ، فمن اين هبطت عليه هذه الحماسة؟ وما هي هذه الحركة التي ستقوم في الشام ؟

(١) « الفرتونة » و « النوبة » تعبران بهريان مستعملان لدى كل بعارة الساحل السوري واللبناني ، والقصود بهما : « النوء » .

قال اسماعيل :

- انا هكذا سمعت ، وما سمعته صحيح ، الحركة
لاجل الاستقلال .

وتعجب الحاضرون فقال ابو حميد :

- لا تتعجبوا ، لا حركة ولا من يحزنون .. اكنكلة راح

تسلم الحكم .

- كما تسلمته عام ١٩٣٦ ؟

- وارذل !

- يا حبيبي !

وضحك الحاضرون ...

و شاء اسماعيل كوسا ان يرد على ابي حميد ، الا ان
هذا قال كلمته ونهض ، ثم اختفى كأنما ابتلعت الارض . فقد
ابصر ابا محمد يشير اليه من باب المقهى ، فادرك من فوره ان
الامر يتعلق به شخصيا ، وان الطروسي لم يبعث في طلبه
لو لم يكن ثمة ما يستدعي ذلك ، فنهض وغمز ابا محمد الى
الداخل ، وسار به الى زاوية وسأله ملهوقا :

- ماذا جرى ؟ سألوا عني من جديد ؟

- سألوا وبس ؟ يبحثون عنك في كل مكان ، فاسرع

واختبيء ، لا تبق في المقهى لحظة واحدة .

- الى هذه الدرجة ؟

- وأكثر ، اعتقلوا جماعة الالمان كلهم .

- يا لطيف ! ومن قال هذا ؟ الطروسي ؟ اما اوصاك

ايين اختبيء ؟

كان من الارتباك بحيث فقد الصبر على توجيه السؤال
وانتظار جوابه ، وفقد القدرة على تدبير اموره بنفسه ، وبدا
كمن يريد ان يعرف كل شيء دفعة واحدة ، ويضع يده في يد
اي انسان يقوده الى الخلاص من ورطته ، ويرشده الى طريق
الهرب ويشجعه عليه .

قال ابو محمد :

- عرف الطروسي الخبر من نديم مظهر ، وعاد رجال
التحري الى المقهى يسألون عنك ، والظاهر انهم يريدون
توقيفك ، لانهم يبحثون عنك من الصباح ، وقد شاغلهم
الطروسي بالقهوة والتراكيل ، وبعثني في عربة حنطور اليك .
اذهب الى حي الشحادين ولا تخرج منه ، فلا يستطيع احد
ان يطالك هناك .. هكذا قال الطروسي .

وافترق الرجلان : رجع ابو محمد الى المقهى ، ودخل ابو
حميد المرحاض ، ثم تسلل من باب خلفي وقصد الشحادين على
عجل ، مجتازا الازقة ، متجنبا الشوارع العامة . كان يسير
مهرولا ، ويخب بحدائه البلدي ، وينحني بجذعه الطويل الى
امام ، فاذا ما علت وراءه حركة او صوت ، اضطرب وتوهم
انه المقصود فتلفت واسرع .

وتابع الجالسون في المقهى نقاشهم . كان اسماعيل كوسا
مسرورا الى درجة ان كلمات ابي حميد لم تبلغ ان تعكر صفوه
انما لم يرتج الى هذا الهجوم السافر على الكتلة ، ولا الى هذا
التعريض الساخر بها ، وفهم ان الخطوة الاولى تحتاج الى
تمهيد ، وأنه لا بد من الرد على الخصوم ، والتعليق على ما
قاله ابو حميد الذي تبخر ولم يعد الى الحلقة .

قال :

- تعصب ابي حميد لهتلر انساه مصلحة البلاد ، انظروا
(و اشار الى الشارع حيث كان اربعة من حرس المرشد
يسيرون بينادقهم وكوفياتهم التي عليها شعار الشمس ،
واضاف) : هؤلاء هم اعداؤنا ، هل نسيتم ما فعلوا ؟ هل
نسيتم كم فتكوا وسلبوا وقطعوا الطرقات ؟ لقد شجعت فرنسا
المرشد على الانفصال ، وجعلت من محافظة اللاذقية دولة ،
ورببت للمرشد الحرس والقضاء ، وعينت محافظا يآتمر
بأمره ، فهل تريدون ان يستمر كل هذا ؟

كانت ذكريات المرشد ندية ما تزال ، بل كانت بعض مظاهرها ماثلة للعيان ، وكان حرسه موضع كره وبغض ، فإذا مر في الشارع شتمه الناس وشتموا فرنسا معه ، وتحركت احقادهم ، وتمنوا ان يمد في آجالهم حتى يروا المرشد معلقا على المشنقة . وقد لامس اسماعيل كوسا وترا حساسا في نفوسهم فسألوه :

— وكيف نتخلص من المرشد ؟

— بعودة الحكم الوطني ورجوع الدستور ومجلس النواب وتوحيد البلاد . لقد تعهد بهذا كله الجنرال كاترو باسم فرنسا الحرة .

— ومن سمعت هذه الاخبار ؟

— من الكبار .

علت اصوات الحاضرين :

— حط في الخرج .

وقالوا :

— لا تصدقوا فرنسا ، ياما وعدت وياما اخلفت ، هذه وعود حرب لا اكثر ، وقت الفصة يفكرون فينا ويتملقوننا لنمشي معهم ، حتى اذا انتصروا لحسوا وعودهم ونكلوا .
— فرنسا غدارة .
— والانكليز اغدر .

وسألهم اسماعيل كوسا بعد ان اصفى الى كل هذه الاقوال :

— وايطاليا ؟ اما قتلت عمر المختار ؟

— نحن لا نحب ايطاليا ، جربنا فرنسا وبريطانيا ويجب ان نجرب المانيا . الحلفاء يلاطفوننا اليوم لانهم في ورطة ، فإذا خلصوا منها غدا علقوا مشانقنا . الاستقلال يؤخذ ولا يعطى ونحن لا نؤمن بالوعود .

ازاء هذه الاعتراضات والحجج القوية غيّر اسماعيل

كوسا لهجته . وكان مكلفا بجس النبض والتمهيد للجو ، وكان كثيرون غيره يقومون بهذه المهمة ، وقد دعي الوجهاء والمختارين للاجتماع ، ووصل موفد من دمشق لهذه الغاية ، وقال انصار الكتلة : « البلاد ستمشي مع الحلفاء طالما انهم يحتلوننا ، فإذا لم تمش بالرضى مشيت بالاكراه ، ومن الانسب ان نتفاهم ونحصل على الاستقلال ويعود الدستور والحياة النيابية ويقوم حكم وطني وتجري انتخابات حسب الاصول » .

وقال آخرون « المسألة ليست مسألة اكراه ، بل مسألة واجب ومصصلحة وطنية . النازية افطع خطر عرقه العالم ، علينا ان نقاومه ، والصحيح ان نأخذ الاستقلال وندافع عنه » .

وصاح انصار المانيا : بلا خلط ، ليس هناك واجب ولا مصلحة .

واتكأ اسماعيل كوسا على كرسي قربه ، وسأل المتحمسين لالمانيا :

— وما رأيكم بالمرشد ؟ هل تريدون ان نبقي تحت رحمته ورحمة المحافظ الكراوز الذي اقامه في السراي ؟ اذا قام الحكم الوطني ، ولو بوجود فرنسا موقتا ، تسلمنا الدرك والشرطة ، وانضمت اللاذقية وجبل الدروز الى الشام ، وجاءنا محافظ وطني ، وحاصرنا المرشد في « جوبة برغال » حتى نصفي حسابه .

وقال الاستاذ كامل ، معلم التجهيز الذي انضم الى الحلقة :

— اقوالكم صحيحة ولكن عندي بعض الملاحظات . . .

وسر اسماعيل كوسا لوجود الاستاذ في الحلقة فقال مشجعا :

— تفضل استاذ ، ما هي ملاحظاتك ؟

— ملاحظاتي بسيطة . قلت انت ان الحكم الوطني

سينفذنا من فرنسا والمرشد ، وهذا صحيح ، وقال الاخوان
اننا نشك في وعود فرنسا وبريطانيا وهذا صحيح ، وقالوا
ايضا ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى وهذا حق ، ولكن المسألة
ان فرنسا وبريطانيا لن يعطينا الاستقلال بل نحن الذين
سنأخذه . اننا ننسى كفاحنا وشهداءنا ، ننسى ان فرنسا
تسلم باستقلالنا مرغمة لانها تعرف اننا سنحصل عليه
بالقوة . الدنيا تغيرت يا اخوان ، وروسيا الى جانبنا . لقد
وعد الحلفاء الحسين ولحسوا وعودهم ، ولكن ذلك كان قبل
٣٠ سنة ، وخلال هذه الاعوام تبدلت الدنيا واصبح من الصعب
عليهم ، اذا حزمنا امرنا ، ان يخذعونا مرة اخرى . ومن
جهتي لا ادري لماذا نعلق آمالنا على المانيا . هتلر صنف العرب
في آخر قائمة الشعوب ، وسيحتل بلادنا اذا انتصر ، ويفرض
علينا حكمه النازي ، وهل تعرفون ما هي النازية ؟ انها اللعنة .
قاطعهم رجل يجلس قبالة وقد ارسل يده في الهواء
علامة الرفض :

— بلاها استاذ ! هذه الفلسفة نقرأها في الجرايد كل
يوم . جربنا فرنسا ولازم نجرب اللمان .

لم يتراجع الاستاذ ولم يحتد ، قال :
— لو كانت المسألة وجبة طعام قلنا معك حق ، ووافقنا
على التجربة ، ولكن حياة البلاد لا تسمح بالتجارب . هتلر
احتل اوروبا كلها تقريبا ، ولم نسمع انه اعطى الاستقلال
لاحد ، وشعوب هذه البلدان تئن من الظلم وتموت من الجوع
وتكافح في السر والعلن وتسال الله الخلاص .
— الحرب لا ترحم .

— وما ذنب الناس حتى تشعل المانيا الحرب كل كم
سنة مرة ؟
— بلادها ضيقة .

— اتفقنا اذن ، هتلر يريد التوسع ، يريد احتلال العالم !

— وفرنسا والانكليز ؟ صاروا اوادم ؟ صاروا من الابرار
الاخيار ؟ اين فهمك يا استاذ ، والا الوظيفة ؟
تدخل اسماعيل كوسا وقال :

— احسموها يا شباب ، نحن نتبادل الراي فلا تدخلوا
المسائل الشخصية في النقاش .
وعاد الاستاذ الى الكلام قائلا :

— فرنسا وبريطانيا دولتان استعماريتان ، وهما عدوتان
لدودتان لنا ، ولكن المانيا دولة مستعمرة ، وعدوة ايضا ،
فلماذا نريد انتصارها وهي لن تنتصر ، ومن الخير الانتصر ؟
— اللمان سينتصرون من كل يد ، ومن سيقف في وجههم ؟
الروس ؟ غدا تسمع باستسلامهم ، هذا هتلر استاذ !
قال الاستاذ :

— دخول اللمان الى روسيا لا يعني احتلالها ، قبل
هتلر دخل نابليون ، فماذا كانت النتيجة ؟ هذه موسكو وليست
باريس .

لم يجب الرجل المتحمس لالمانيا وهتلر . ويبدو انه لا
يعرف نابليون ولا قصته في روسيا ، او انه اثر الصمت
لدخول احد الغرباء ، فاكتمى بوضع رجل على رجل وقال :

— الايام بيننا ...
وابتسم الاستاذ وقال :
— هذا احسن جواب ..

القسم الثاني

تصرّامان ونصف العام ..

وجلس نديم مظهر في مرآب الشيخ ضاهر الكبير وحوله بعض وجهاء الحي ، وامامه ساحة المدينة الرئيسية .

الساحة شبه مستديرة ، تقوم المقاهي على الارصفة الثلاثة المحيطة بها، وتقف في جوانبها ووسطها بعض السيارات وعربات الحنطور ، ومنها تتفرع الشوارع والازقة ، وعبرها تمر الطريق الرئيسية الآتية من مدخل المدينة ، وفي مواجهة المرآب يقع مخفر الشرطة ، وثمة حديقة صغيرة عمومية محاطة بسياج حديدي ، ومدرسة تجهيز البنين ، وبعض المطاعم ، ومحطة للبنزين .

كانت الانتخابات النيابية قد جرت منذ عامين، وتسلمت « الكتلة » الحكم ، وقام في البلاد اول برلمان بعد الاستقلال واول رئيس للجمهورية ، واصبح في يد الحكومة الوطنية الدرك والشرطة ، وظل الجيش وبعض المؤسسات في يد السلطات الفرنسية، كما ظل لها جهاز استخبارات خاص بها، ومثله للقوات العسكرية الانكليزية الموجودة في البلاد، واصبحت السلطة ، على هذا النحو ، ثلاثية الاطراف ، وان كانت ، ظاهريا ، في يد الحكومة الوطنية، وخاصة من الناحية الادارية، وظل جلاء القوات الفرنسية والانكليزية رهنا بانتهاء الحرب.

وبسبب من ذلك كانت البلاد تعيش في ترقب وقلق . لقد تمزقت الجيوش الالمانية في روسيا وانحسر ظل الحرب

فلم يعد ثمة تشديد على خنق الانوار ، ولم تعد الجموع تزدهم على الافران ، واصبح الكاز موفورا الى حد ما ، وازدادت الحركة في الميناء ، وقوي نفوذ ابي رشيد بسبب نجاح « الكتلة » في الانتخابات وتسلمها لمقاييد الحكم .

كانت اللاذقية ، كسائر المدن السورية ، فرحة بالحكم الوطني ، متحمسة له ، الا انها تتطلع ، كغيرها الى استكمالها ، واستخلاص ما تبقى في يد فرنسا من مؤسسات ، وفي مقدمتها الجيش . ثم انها ، اضافة الى ذلك ، تعاني مشكلة خاصة ؛ هي مشكلة المرشد الذي يهددها صباح مساء .

لقد تسلمت « الكتلة » الحكم وسط معارضة الذين مع المحور ، وانتقادات الذين يريدون الاستقلال فوراً ناجزا ، وكانت تتركز في حكمها على بعض عناصر الاقطاع ، فاستغل هؤلاء الحكم لمصلحة طبقتهم ، وبدات الحكومة تتعاس ، وتتناحر ، وتتلكا ، فاتحة بذلك ثغرات واسعة للهجوم عليها ، وقيام معارضة برلمانية وشعبية ضدها .

وكان وجود الفرنسيين والانكليز في البلاد يضطر الحكومة والمعارضة الى اتخاذ مواقف متقاربة في القضايا الخارجية ، الا انها ، في الشؤون الداخلية ، كانتا على خلاف يصل الى حد التضارب في البرلمان . ولم تكن المعارضة فئة واحدة ، كان بعضها من كبار الاقطاع ، وبعضها من صغار المزارعين والتجار ، ولها شعبية غير قليلة ، وتهدف الى زحزحة « الكتلة » وتسلم الحكم .

وكان المستعمرون ينشطون ليل نهار : يتصلون ببعض الحاكمين ، ويتصلون ببعض المعارضين ، ويؤلبون قبة على فئة ، ويجهدون لبعثرة الصفوف ، ويفرون بواد الحريات ، ويدفعون الى مكافحة اليسار ، ويروجون لمشاريع « الاتحاد » ، ويخلقون المزيد من الصعوبات .

وكانت فرنسا تعمل لحساب الاستقلال ، وبريطانيا تنشط لطرد فرنسا والحلول محلها ، ودعاة الملكية يسعون لنسف الجمهورية ، والجماهير تطالب بالجيش والجلاء ، وكان الكفاح يتسع ، والمناقشات تحتدم في كل مكان .

وراح نديم مظهر يتحدث الى جلسائه في المراتب فقال :
- سمعت ان بعض المعتقلين في « المية ومية » سيفرج عنهم قريبا .

- اذن تدخلت الحكومة لاجلهم اخيرا .
- نعم تدخلت ، ولكن لابقائهم لا لاخلاء سبيلهم !
- وكيف سيفرج عنهم اذن !؟

- انا قلت سيفرج عن بعضهم ، عن الذين كانوا مع المانيا وتابوا ، اما الوطنيون الذين هم ضد فرنسا والانكليز و . . . (نظر الى الصورة وراه) ضد الجماعة ، فلن يطلق سراحهم .

- والدكتور صبحي ؟

- ما اظن ، الانكليز يعذبونه ، ولن يتركوه بأي حال ولكنه سيخرج ويعود بالرغم عنهم ، الدكتور امل البلاد ، ويكفيه فخرا انه جاهد في فلسطين ، وترك عائلته وعيادته وذهب يقاتل الاعداء .

قال رجل من الحاضرين :

- والله صحيح ، الدكتور مفخرة ، وقد سمعت انه في الطب يفعل المعجزات ، فقد اصببت بنت احدي العائلات بالهزال حتى خشوا عليها السل ، وعجز الاطباء عن فهم مرضها ، فاخذوها اليه ، ونظروا لان اهلها متعصبون ، ويفضلون ان تموت ابنتهم من ان تنكشف على طبيب ، طلب منهم ان يربطوا بطنها بخيط ، ووضع نهاية الخيط في اذنه تحت السماعة ، فعرف مرضها . كانت البنت حبلى .

أحدثت القصة دهشة في الحاضرين ،وبان السرور على وجه نديم مظهر فقال :

- هذه معجزة ، ولو أراد الغنى عن طريق الطب لاصبح اغنى اغنياء المدينة ، لكنه فضل ان يذهب ويقاتل في فلسطين، بينما الجماعة يتربعون على الكراسي في دمشق ولا يفعلون لاجله شيئا . انهم معذورون لان اشغالهم في تعيين المحاسيب وتنفيذ الزلم والاقرباء لا تترك لهم وقتا يهتمون فيه برجالات البلاد . وقد بدأوا يهتمون ، مثلا ، بتطويب المدينة باسمهم واسماء زلمهم ، وامس سمعت انهم يدفعون احد اصحاب السيارات لفتح « كراج » في الشيخ ضاهر بقصد التحرش بنا ، فتأملوا !

وصاح الحاضرون :

- خسئوا .

وقالوا :

- يدهم وما تطول ، اذا كانوا قد استولوا على الميئاء،

فلن يستولوا على الشيخ ضاهر .

- اهذا ما كنا ننتظره منهم ؟

قال نديم :

- وماذا تنتظرون اذن ؟ ان يقبضوا على المرشد ؟

- وماذا يفعل المحافظ ؟

- يتلقى تعليمات النواب .

- والنواب ؟

- ينامون في المجلس ! هل سمعتم صوتهم ؟ ابدا ،

اقرأوا الجرايد تعرفوا كيف يتكلم نواب حلب وحماه وحمص،

وكيف يدافعون عن حقوق محافظاتهم ، هكذا يكون النواب ،

اما عندنا فانهم يقضون مصالحهم الخاصة ، ولا يهتمون الا

بتطويب الاراضي ، وتسليط فلان على فلان ، والسفر الى

دمشق .. والعودة منها .

- اما تربتوا من سنة ١٩٣٦ ؟

- لا ، ظنوا انهم وصلوا ، وغدا يتحرك المرشد وتبدأ

حركات الانفصال من جديد ، فمن يقف في وجهه دولة بدون

جيش ، عمركم سمعتم هذا ؟

- ومتى يتسلمون الجيش ؟

- حتى تفي فرنسا بوعداها !

- ومتى تفي فرنسا بوعداها ؟

- مرحبا وعد ، هي اعطته وهي تلحسه ،كنت البارحة

عند خيرى بك فقال : «المعارضة لن تسكت بعد اليوم ، فاذا

كانت الحكومة ضعيفة فنحن اقوياء ، نحن نعمل ..»

- وهم يعملون ، ولكن ..!

قال نديم :

- نعم ، نعم ، يحاولون الاستيلاء على الشيخ ضاهر ،

اليس هذا عملا ؟

رن جرس الهاتف . كان المتكلم احد العاملين في المرفأ،

وهو يشكو تأخير تحميل الشاحنات في المرفأ ، فوضع السماعة

وقال :

- وهذه من اشغال نوابنا ايضا . السيارات تنتظر في

المرفأ وزلم ابو رشيد يعرقلون تحميلها ، فاذا اشتكيننا قالوا

الحق علينا، واذا قاومنا تدخل النواب والمحافظ وهددونا ..

سأذهب وارى بنفسى .

تناول خيزرانتة من الزاوية وصعد الى سيارة شحن

فركب بجانب السائق وهو مضطرب ، ونهض الجالسون

فغادروا المكتب ، وعلت الجلبة في الساحة لان طلاب التجهيز

قد انصرفوا ، وظهر شرطيان يقودان رجلا الى المخفر

ويضربانه ، وهفت رائحة عطرية من امرأة تحنجل في مشيتها،

وحدقت بها عيون ، وقيلت كلمات !

ولكنه كان فرحا ، منتشيا برغم كل شيء . وكان عليه ان ينهض فلا يجد رغبة في النهوض ، وعجب لهذا الاحساس الحلو الغامر ، ولهذه المتعة الروحية السابقة ، ولم يدر الام يردّها : الى الحلم ؟ لقد صادف احلاما اكثر اغراء فلم يحدث معه ما حدث اليوم : الى اصوات النساء ؟ انه يسمعها دائما فلا يتأثر بها كما تأثر الان : الى الوقت ؟ يجوز ، كل هذه تعاونت على امتاعه كما يبدو ، يضاف اليها انه نام نوما عميقا قاما يصيب مثله في فترات القيلولة .

اطبق جفنيه وفتحهما ، واطبقهما وفتحهما ، حتى تلاشى الحلم كله ، وحلت اليقظة كلها ، وسعد سعادة غير قليلة ، شأن الانسان المحروم امام اول نفحة من عطاء . ولما كان لا بد له من النهوض فقد مد يده الى ستارة النافذة وسحبها بعنف لينبه امه الى انه افاق ، وليث كذلك قليلا فاذا بها تدخل عليه حاملة القهوة ، وسالها عن البيت فاخبرته خبر النساء الخائطات لدى شقيقته ، ولم تذكر ابنة الجيران بينهما ، ولم يلح في السؤال لثلا يثير ربيتها ، وانصرف الى قهوته وسيكارته وانصرفت هي الى عملها .

وحلا له التأمل ففعل ، ولعله ان يكون قد انساق الى ذلك بدافع من فرحته ذاتها ، فثمة اشياء كثيرة تحمله على الفرح : الانتصار القريب على المانيا ، وانفضاح مهزلة النازية ، وتحول افكار الناس ، وتحقق الاقوال التي كان يحتاج بها خصومه ، واقبال الكثيرين على فهم الجديد الطارئ على الدنيا ، وتوطد صداقاته ، وتعزيز علاقته بالطروسي .

ثم ذكر الساعات السوداء التي مرت به : كان هتلر يتقدم ، وانصاره لا تسعهم ارض ، وقد صاح احدهم : « انتهى الامر ، انتصرت المانيا » فاجابه : « ثم ينته شيء ، لا تسمروا قبل الوصول الى النهر » واحتد الرجل وصاح :

عرت الاستاذ كامل رعشة لاشعورية وهو يستيقظ من نومه . كان قد عاد من المدرسة فتغدى ونام ، وراى فيما يرى النائم انه يسير وابنة الجيران في طريق تحف بها الاشجار . لقد اقبلت نحوه من حيث لا يدري ، ونظرت اليه نظرة تشجيع فلم يصدق عينيه ، وتساءل : هل احلم ؟ وقبل ان يجيب على سؤاله كانت قد اقتربت منه والتصقت به حتى احس بانفاسها على صفحة وجهه وشعر بنشوة غريبة ارتعش لها جسمه وخفق قلبه . فلما اراد امساكها افلتت منه ، وتبعها فلم يلحق بها ، وشاء ان يركض وراءها فلم يستطع ، وجاهد فمها افلح ، ثم ابصر بها تطير ، وابصر نفسه يطير وراءها ، ويرتفع قليلا قليلا عن الارض ، ويعجب كيف يرتفع عن الارض ، وبعد ذلك سقط وارتطم وفتح عينيه في غرفته المسدلة الستائر ، فلم تقعا الا على خيوط من نور تتسرب من الباب والنوافذ ، واذ ذاك شبه له انه في الصباح ، وان النوم غلبه فتأخر عن ميعاد المدرسة ، فلما صحا تماما تذكر انه في الاصيل ، وان هذا وقت راحته ، وسمع اصواتا انسانية صادرة عن غرفة شقيقته ، فتمطى وابتمسم واطبق جفنيه يريد الاحتفاظ ببقايا حلمه اللذيذ .

مضت دقائق وهو على حاله ، يستعيد وقائع الحلم ، ويستجمع شتات صوره ، ويتذكر التفاصيل الدقيقة للوجه والعنق ، وبأسف لان ذلك كله كان حلما ، ولان الاحلام تهاويل رغائب ليس الا .

اكلتها روسيا حتى هنا (وأشار بيده الى امتداد اليد الاخرى)
وضحك الحاضرون ، فاستشعر لذلك الما وبفضا ، الا انه
حافظ على رباطة جأشه . فأين ذلك الرجل الان ؟ هل غير
رأيه يا ترى ؟

عادت اصوات النساء وضحكاتهن ترن في اذنيه وتصرفه
عن متابعة افكاره . وهاجته غنة الصوت بشكل ارغمه على
الاصفاء ، فتصور الاوضاع التي تتخذها الخائطات عند تجارب
الثياب ، وود لو كان خياطاً للنساء ، وتساءل : الا يرى الخياط
كل هذه المفاتن بشكل من الاشكال ؟

وقال في ذات نفسه : « ان ذلك لا يقع في مدينتنا هذه »
ذلك ان المرأة لا تظهر للرجل بكامل ثيابها ، فكيف بها اذا
تخفت منها للتجربة ؟ ثم ان الخياط لا يفكر على هذا النحو ،
لان حواسه تتركز في العمل ، وربما حملته الثثرة والمحاكاة
وصعوبة ارضاء الاذواق على الكفر بكل ملاحظات التوجس
والاجسام ، وانه ليعرف ذلك قياسا الى ما يسمع من تبرم
شقيقته وشكواهما المستمرة من هذه المزعجات .

اما بالنسبة اليه فقد اعتاد الجو ، واصبح لا ينتبه الى
الاصوات الا لاما . ولو خير في الامر لاختار الاستقلال في
البيت ، لكنه كان مضطرا الى السكوت لعجزه عن كفاية عائلته
بمفرده . فقد تمنى طويلا ان تزوج شقيقته كسائر الفتيات
وتفادراه ، ثم تواضعت امانيه فأصبح يأمل بزواج صفراها
فحسب ، غير ان هذا الامل لم يتحقق حتى الان، وانه ليأسف
اذ يفكر في هذا ، لان فقر عائلته قضى بعنوسة شقيقته
الكبرى التي ضحت بمستقبلها في سبيل دراسته ، ثم كبرت
الشقيقة الصغرى ، وتوفي الاب ، وازدادت نفقات الاسرة ، فكان
على الفتاتين ان تعملن ليل نهار للقيام بكل تلك المتطلبات ،
وعليه الان ان يضحي لاجلهم كما ضحتا لاجله .

ان التبعة ثقيلة : ثلاث نساء ورجل واحد ! يا لها من
مسئولية : ويا لهذا المجتمع الذي اضطر هذه العائلة الى هذا
المصير . لقد فكر في امر عائلته ، وفكر في امر جيرانه ،
وقارن بين حاله وحالهم فتعزى . وانتقل بتفكيره الى حيه ، ثم
الى مدينته ووطنه ، وخرج بذلك الى رحساب الانسانية .
واتصلت اسبابه بأسباب العالم ، وادرك معنى العدالة الاجتماعية
والحاجة اليها .

بهذا الشكل اهتدى الى مفهومه السياسي والتزمه ،
واختلف اهله في موقفهم منه : اشبعته والدته تحذيرا
وتنبيها ، وقيدته بحبها واشفاقها ، وحيدت اخته الصغرى
فكرته وشكت في نجاحها ، وناصرتها الكبرى بغير تردد ،
ورأت فيها بارقة رجاء ، فقد كانت ، كما كان ، على احساس
بالظلم الاجتماعي تمنى لو تضطرب الدنيا وتتغير الحياة
الرتيبة القاتلة من حولها .

عادت امه الى الغرفة وبادرته من قورها :
— سنسهر الليلة عند خالتك ، فهل تذهب معنا او تلحق
بنا ؟

— وماذا عند خالتي ، الا يطيب لك السهر الا عندها ؟
خطر له الجيران : لماذا لا تسهر امه عند الجيران ؟ على
انه لم يفتحها بالامر ، فطالما كن يتاح له ان يرى فتاته
فالامر سيان ، ثم هو على موعد مع بعض البحارة في مقهى
الطروسي ، وسيمكث ثمة حتى منتصف الليل ، وقد اعتاد
السهر الى ذلك الوقت في اكثر لياليه ، وتعزف امه انه لن
يذهب معها ولن يلحق بها ، ولكنها سألته لتعلم اين سيسهر
الليلة ، وهل هناك اجتماع ايضا .

قالت تستدرجه :
— اذا لم نسهر عند خالتك فأين نسهر يا عين امك ؟
دلنا على بيت لنسرع اليه (وغمزته ضاحكة) ..

لم يدم اجتماع عمال الميناء في مقهى الطروسي الا ساعة
وبعض الساعة ، وقد حضر الاستاذ كامل قسما منه ، وبحث
مع الحاضرين - وكانوا قلة - بعض مواد قانون العمل ،
وشرح لهم مضمونها . فلما انصرفوا بقي في الزاوية يقرأ
صحيفة محلية حيناً ، ويستعيد ما قاله العمال حيناً آخر .

كان طويلاً في غير اقراط ، ذا وجه اميل الى الطول ،
وشعر أسود ، وبشرة بيضاء ، وعينين صافيتين نفاذتين .
وكان صبوراً ، يالف الاجواء الجديدة بسرعة ، ويحب المقاهي
الشعبية ، ويصفي جيداً ، ولا يضيق بالنقاش مهما تفرع او
طال .

وكان الطروسي لا يفتأ يراقبه من وراء دكة المقهى ،
ويعجب لحماسته كما عجب لحماسة ابي حميد ، ويتساءل في
ذات نفسه عن سر هذا الولع بالسياسة عند الناس ، وكيف
يطبقون كثرة الكلام حول موضوع بعينه ، ولماذا يتعصبون
لأرائهم هذا التعصب ، واي شيء هذا الذي حركهم واخرجهم
عن طورهم ودفعهم الى ترك قضاياهم الشخصية والتعلق
بأشياء لم يكن يسمع بها من قبل .

فلما عاد ابو محمد الى المقهى ، اقبل الطروسي على
زاوية الاستاذ وسأله :
- اين صرنا ؟
- على الدرب .

- قريباً ان شاء الله .
- لا اصدق !
- نعم ، قررت ان احب .
- من فمك الى ابواب السماء ..
- ولماذا ترغبين كل هذه الرغبة في ان احب ؟
- ليفرح قلبي !
- ليفرح قلبك ، ام لانشغل عن الاجتماعات ؟
- قالت ضاحكة :
- لاجل الاثنين .
- عظيم ، غدا سأحب ، وسنرى اذا كنت ترضين بالتي
احبها !
- افعل ، حب ، وسأضع التي تحبها في عيوني .
- والذين احبهم ؟
- في عيوني ايضاً ، ولكن ..
- ولكن ماذا ؟ الا تعرفين انني احب ؟ ..
- وضحك وفكر : اليس الكفاح نوعاً من الحب ؟ لماذا لا
تفهم امه عواطفه ؟ وكيف السبيل الى شرحها ؟

واصفى الطروسي بانتباه . كان يهز رأسه ويستعجل الحديث ، حتى اذا بلغ الكلام نقطة مثيرة ، كواقعة بين العمال وزلم ابي رشيد ، او ملاسنة بين العمال والبحارة ، تدخّل ، واستقصى ، وعلق ، وأفضى بما لديه من معلومات ، وخلص الى احد « نتيجتين : الفرغ للمقاومة والصمود ، والفضب للاستخذاء والميوعة ، واطلاق الشتائم من حين الى حين ، تشجيما او استنكارا .

ومازحه الاستاذ كامل قائلا :

— شفت ! انت ايضا تتحمس ، فلا تستغرب حماسة الناس بعد اليوم !

— الناس يتحمسون للسياسة ، وانا اتحمس للميناء .
— وما الفرق ؟ لكل رأيه ، وكل رأي هو سياسة ،
والاشياء مترابطة ، قلو لم يناضل الشعب ما تحقق الاستقلال ،
ولولا الاستقلال ما أستطاع الناس المطالبة بحقوقهم والحصول عليها .

— هذا صحيح ، ولا انتقص من حماسة احد في سبيل الوطن ، ولا اتأخر انا نفسي ، لكنني استغرب حماسة الناس لالمانيا وروسيا ومشاكل العالم .

— مشاكل العالم تؤثر في مشاكلنا يا ابو زهدي . لو انتصرت المانيا لاصبحنا في مرتبة العبيد . النازية : كيف اشرحها ؟ طاعون ، اتعرف الطاعون ؟ لقد انهزمت المانيا الان ، ولكن الانكليز والفرنسيين يلعبون علينا ، يريدون سلبنا الاستقلال بكل وقاحة ، ولكنهم عاجزون ، عاجزون تماما ، الدنيا تغيرت ، واصبح لنا صديق قوي .

وقال الطروسي :

— ومن هو هذا الصديق ؟ واذاف مبتسما ، اعرفه ،
ولكن لو سمع ابو حميد ؟
— لا بد ان يتغير رأي ابي حميد يوما ، سيفهم الحقيقة .

— ومتى نصل ؟

— من سار على الدرب وصل ..

— ولكننا لا نسير ، الجماعة لا يسيرون .

— يسيرون ببطء ، هناك بعض التقدم .

— هنيئا للصابرين ..

— والعقبى للعاملين (وضحك) .

وتطلع اليه الطروسي وضحك بدوره :

— لا اصدق أنك مقتنع بما تقول . انت تضغط على

اعصابك كيلا تنفجر .

— ربما .. في الماضي كانت اعصابي تنفجر بسرعة ..

اما الان .. هناك بعض التقدم في هذه الناحية ايضا ، ما هي الاخبار ؟

— الاخبار عندك ، ماذا قالوا عن الميناء وابي رشيد ؟

— ابو رشيد يعرف انهم يجتمعون في المقهى ..

— ومن يشك في هذا ، دعه يعرف ، وليرسل ابن برو

آخر اذا اراد .

وشاعت الفبطة في وجه الاستاذ ، فشد على يد

الطروسي وقال :

— لا عدمنك يا ابو زهدي . اذا اجتمع عمال الميناء

وتوحدوا فانت صاحب الفضل الاول في ذلك .

— انا لا اتفضل على احد (وبعد وقفة) هل نسيت أنني

بحار ايضا ؟

— هذا صحيح .

— اذن اخبرني عن كل شيء بالتفصيل . اريد معرفة

ما يجري وما يقال في الميناء . هذا الحديث لا يثير حماسكم

كما تثيرها السياسة فلماذا هات ، اخبرني ..

قص عليه ما سمع ، وتحدث عن اهمية تأليف نقابة

لعمال الميناء ، والتمهيد لذلك بالاتصالات والاجتماعات .

— رايه لا يتغير ، لا اصدق انه يتغير .
— كيف ؟ أبو حميد طيب ، وسيعرف الحقيقة
ويتغير رايه .

قالها واسر في نفسه « سيفير رايه كما غيرت رأيك .
كنت مأخوذاً بأقواله عن المانيا ، وكنت تهزأ بكل حديث عن
تنظيم عمال الميناء ، وها هم يجتمعون في مقهاك ، وها انت
تقف في صفنا » .

ودخل نديم مظهر في هذه اللحظة فنهض الطروسي
للقائه ، وجلسا على طاولة قرب الباب ، وتناول الاستاذ
صحيفته واستأنف قراءتها ، ثم انصرف بتفكيره الى نديم
مظهر وأبي رشيد والطروسي وعمال الميناء .

٤

اتفق نديم والطروسي وقتاً غير قصير وهما يتحدثان .
كان نديم محتقناً مغيظاً ، وقد أدرك الطروسي ان ثمة حادثاً
جديداً ، ومع ذلك لم يسأله . ترك الامر حتى فاتحه هو به
واعلنه انه عائد لتوه من الميناء .

كان نديم ينشد الثأر ، ويفتش عن كل وسيلة لضعاف
أبي رشيد وتحطيم نفوذه، وقد تطور الخلاف بينهما الى درجة
تنذر بالانفجار ، ولو التقاه اليوم لوقع المحدثور، الا ان أبا
رشيد لم يكن في الميناء، او كان ولم يره، لذلك انتهى مهمته
وصعد باتجاه شركة الامبريال (١) قاصداً البطرنة .

ولم ينتظر تحميل الشاحنات ، فهذا العمل ليس من
مقامه ولا صبر له عليه . انه يحرص ، في كل الظروف على
الظهور بالمظهر اللائق ، ولا يتخلى عن اناقته ، وهذا بالذات
ما اضى عليه سيماء الوجاهة ، بعكس أبي رشيد الذي لا
يأبه لمظهره ، ولا يحمل في جيبه مالا ، يسلك الى هدفه طريقاً
مفارقة ، قوامها المسيرة ثم المسيرة ثم البطش في الوقت
المناسب .

لقد زعم المسئول عن تحميل الشاحنات انه اضطر الى
تحميل بضاعة موضوعة في الخلاء ومعرضة للتلف فيما لو هطلت
الامطار ، وان العمل جار وليس من تأخير مطلقاً . وهو يكذب ،
فالشاحنات التي ستسير ليلاً يجب ان تحمل قبل غيرها، وقد

(١) شركة اجنبية لشراء التبغ وتسويقه .

هتف نديم بذلك واوصى ، واوشك الليل ان يهبط ولم تحمل شاحناته ، ومعنى هذا انها ستتأخر الى الغد ، وهذا تعطيل مقصود لا يبرره فقدان الحمالين ، فهؤلاء موفورون ، ولو شاء ابو رشيد لتم كل شيء ، ولكنه لا يشاء ، ويعتمد عرقلة العمل ليشكو التجار ببطء حركة الشحن ، فيتخذ المنافسون من الشكوى ذريعة لادخال شاحنات غريبة تضارب على شاحنات آل مظهر ، فاذا عارضوا جابهوهم بأن شاحناتهم لا تؤمن الحركة ، والبوا عليهم التجار والسلطة .

« هذه هي الخطة ، ايظن ابو رشيد انني لا اعرف ماذا يبيت لنا ؟ انه واهم ، فالشاحنة التي تدخل المدينة ولا تمر بكراجنا ستتخطم ، وهذه الميناء يا ابو رشيد لن تطوب باسمك ، والسلطة التي تحميك اليوم لن تحميك غدا ، انها ستتغير ، فالكتلة الشعبية (١) هي التي ستحكم » .

كانت يده وراء ظهره ، وخيزراته تنجر خلفه راسمة خطأ متعرجا صاعدا من الميناء . وقد بدا في سيره مفضبا شأنه حين يخفق في الوصول الى غريم او طلب . لقد حسب انه سيصطدم بأبي رشيد ، ولكن ود ان يحدث هذا ، وان يقع الامر معه بالذات ، الا انه قال في نفسه حين فكر في ذلك « من غير الممكن ان اضربه ، انه كهل ، وضعيف ولا يليق بي ان ارفع يدي عليه ، لا لانه اكبر سنا ، بل لانني اخجل ان اضرب من هو اضعف مني بهذا المقدار » .

وفكر في سر قوة هذا الكهل « اهي رجولته ؟ جراته ؟ دهاؤه ؟ انه يسيطر على الميناء ، ويخضع كل من فيها لارادته ، والسلطة تسانده ، وجميع المواعين ملكه ، والحركة كلها بين يديه ، فكيف يمكن زحزحته بدون معركة ؟ واذا ما

(١) « الكتلة الشعبية » تجمع اقطاعي بورجوازي عارض الكتلة الوطنية

وتحول الى حزب سياسي فيما بعد .

نشبت معركة فالام ينتهي امرها ؟ سيذهب قتلى من الطرفين ، وربما قتل هو بالذات ، وسينظر ابو رشيد حيا ، لانه يدفع رجاله وينأى بنفسه ، وحين تتدخل الشرطة يتظاهر بأنه لا يعرف شيئا مما جرى ، بل ويستنكره ، وايا ما كانت الاسباب فنتيجة التحقيق الى جانبه ما دامت السلطة الى جانبه ، والحل الوحيد هو الاستمرار في العمل مع المعارضة ، وتحريض العمال ومناصرتهم ، ودعم كل من يريد ازالة مواعين لمضاربتة ، ولكن اين الرجل الذي يقدم على هذا ؟

خطر له الطروسي فورا : هذه هي الورقة الجيدة ، فلو كانت في يده للعب بها فورا ، اما وانها ليست في يده ، وان الطروسي لا يقدم على عمل الا بدافع من ذاته ، فلا بد من انتظار الفرصة . وهكذا قصد الى البطرنة ..

والتفت الى الطروسي الجالس قربه وقال :

« تعطلت الشاحنات اليوم ، وستتعطل حيننا بعد حين ، وهذا كله محتمل اذا لم يضارب احد على شاحناتنا ، فاذا وقع ذلك انتهى وقت الصبر واصبح الانتظار وخيما ، وعندئذ لن يفيد ابا رشيد تظاهره بالكياسة ، ولن يفيدني ان اقبل تمثيله بتمثيل من نوعه ، فانا لا اطيق هذا ولا اجيده ، ويحسن بنا ان نحسم الموقف .. يا ليتنا خرج الي منذ قليل ، ياليتنا قال اي شيء ، لقد زعقت في الميناء ، وكان هو يسمع بغير شك ، ثم هدأت وانصرفت ، ولا بد انه برز بعد انصرافي وتساءل عن سبب صياحي ، وهدد بحسم يوميات الذين تسببوا في التأخير ، فهل يظن انه يخدعني بذلك ، مهلا يا ابا رشيد مهلا » .

واوغل في الحديث على غير عادته . وكان الطروسي يصغي اليه بقلب مفتوح ورغبة حقيقية في المساعدة . وكان ، من حين لآخر ، يعود به التفكير الى الاستاذ فيذكر قوله

« الكتلة الوطنية والكتلة الشعبية من طينة واحدة ، ونديم وأبو رشيد يقتتلان لمصلحة شخصية » وكان الطروسي يعرف ذلك ، ويعرف ان الخصومة بين الرجلين ذات صلة بالخصومة بين الكتلتين ، ولا علاقة لهما ، إلا انه يعز نديما ، ويريد له الخير ، ومع اثاره لغو الحديث مع البحارة على كل فصاحة الدنيا ، فانه ما كان يضيق بكلام صديقه قط ، بل يجد فيه مبعثا للحماسة وسببا للاهتمام والمشاركة. وكان لقاؤهما ينتهي غالبا ببعض وجوه اللذة : طعام وشراب يذهب أبو محمد أو أحمد أو خليل لاحضارهما ، أو يوصي عليها نديم قبل مجيئه ، فاذا لم يكن مزمعا المكوث في المقهى ، اصطحب الطروسي الى احد البيوت التي تنفتح له كلما رغب في ذلك ، ويقدم اليه فيها الخمر واشياء أخرى .

وكان الطروسي ، في اول تعارفهما ، يرفض ان يدفع نديم ثمن الطعام أو الشراب ، ويحس هذا ان صاحبه يتكبد ما لا طاقة له به من مصروف ، فجعل يتحايل على ذلك ، ويتوسل بأنهما مدعوان كلاهما ، أو انه اوصى على الاغراض قبل ان يحضر ، ثم قال له بعد زوال الكلفة « أسمع يا أبو زهدي ! حين احضر الى المقهى لا امد يدي الى جيبى ، فهذا مقهاي ، وثمان فنجان القهوة ، مع انه لا يذكر ، هو كبير عندي ، لانك تقدمه من استطاعتك ، وحين اوصى على بعض الاغراض ، وهي لا تذكر ايضا ، اقدم من استطاعتي ، ولهذا فنحن متعادلان ، واحب ان تصارحني فيما اذا كنت ترتاح الى هذا ، فاذا رفضت ذهبت ولم أعد ، فماذا تقول ؟ »

وابتسم الطروسي وقال في ذاته « نديم يفهمني » وقامت ، من ثم ، علاقاتهما على اساس من التكافؤ ، ورغم هذا كان الطروسي نادرا ما يسعى الى نديم ، وكان يؤثر ان تأتي الدعوة منه ، فاذا لم يأت اليه ويخرجه من مقهاه ، لزم الشاطيء لا يغادره . ان المدينة لا تجتذبه ، أو انها تفعل

ولكن جاذبية البحر اقوى ، فهو يرتاح الى مسارة الموج ، والى هدهدة أغاني البحارة الآتية من بعيد ، تلك الاغاني التي لا يسمعها الا وحده . كان يجلس على الكرسي بصورة جانبية ، ويتكئ الى الجدار ، ويضع ابظه الايمن على مسند الكرسي ، ويرسل ابصاره عبر الباب الى الماء الازرق المنبسط امامه ، ويستغرق في تأمل متعبد ، ينشطر خلاله الى روح تهيم فيما وراء المدى المترامي ، وجسم قعيد المقهى ، لا يصله به الا انه موجود فيه .

وحين جهز لهما أبو محمد القهوة وانركيلتين خرجا وجلسا عند طرف الصخرة . كانت الشمس توشك ان تغيب ، والامسية دافئة ، كأنها ليست من اماسي الشتاء ، وكان تكسر الموج تحتها على حوافي الصخور يلامس المشاعر ولا يستثيرها ، واطراف السماء تشير الى صحو الطقس ، وبخار خفيف يتصاعد من فنجاني القهوة ، وفي ذات نديم يعتلج حنق يمسك به عن التفجر لئلا يظن به الطروسي انظنون . كان يريد ان يناق بالحديث عن الميناء وأبي رشيد كسي لا يبدو عليه المقت ولا يخطر في بال سامعه انه يحرضه ، أو يوقع الملل في نفسه .

وكان أبو محمد ، وراء الدكة ، فرحا بلقاء الرجلين . ففي كل زيارة له عطاء يجعله سعيدا لعدة ايام ، ثم ان وجود نديم في المقهى يعني شيئا بالنسبة اليه ، فهو اكثر اطمئنانا واوفر ثقة ، ولقد حرص وهو يقدم المشروب ان يسمع طرفا من الحديث ، ثم طاف على من بقي في المقهى مزهوا لغير ماسبب ، وقال للفتى أحمد « لا تتحرك من المقهى ، يمكن يرسلك الطروسي لاحضار حنطسور أو سيارة أو بعض الاغراض ، سأعطيك من الحلوان ، لا تخف ، ديناتك انشطبوا اليوم باذن الله ، وغدا ، اذا عاد الطروسي للبحر ، يأخذك معه ، واذا اردت ان تتعلم سوق السيارات يشغلك نديم عنده ، اليس

هذا افضل من العفرتة في الميناء ؟ قل ! » واشاح أحمد عنه هازئا . انه لا يحتاج الى ترغيب لتلبية اي طلب للطروسي ، فهو مفتون بالرئيس وشجاعته ومهارته ، وقد اثلج صدره انه ضرب ابن برو وازاحه من الميناء ، فقال في نفسه « لا بد ان يزيج الطروسي ابا رشيد يوما ، وعندئذ يستطيع الانسان ان يسترزق »

واستفسر نديم عن الشغل ، وعما اذا كان رجال الامن والجمرك وزلم الميناء ما زالوا يضايقون القهى ، فقال الطروسي « انهم يفعلون ، يأتون من حين الى حين ، ولكنني لا احفل بهم .. وماذا عندي لاحاف ؟

الاستماع الى برلين اصبح حرا ، لان برلين نفسها لا تذيع الآن ، والتهريب ممنوع ، وهم يعرفون ذلك ، ويأتون لان ابا رشيد يريدهم ان يأتوا ، وانا لا ابالي بمجيئهم او ذهابهم ، ولا انهض لهم عن الكرسي » .

— اذا جاءوا من جديد فلا تسمح لهم بالدخول ، ومن يجرو على فعل اي شيء ابلفني اسمه لاحرمه من المرور « بالشيخ ضاهر » .

— لا داعي لذلك ، خيزرانتني في يدي دائما ، فاذا اعتدوا فلست اجهل رؤساءهم ، وسأقوم بزيارة الى الميناء عندئذ .

طرب نديم مظهر للجواب : رؤساؤهم ؟ جميل هذا ، جميل والله ، فأبو رشيد هو الذي يدفعهم لتنفيذ رغائبه في توقيف فلان ، وضرب فلان ، واذا ما تجرأ الطروسي على زلم الميناء فسيتجرأ عليهم العمال والبحارة ويفقد ابو رشيد كثيرا من هيئته .

— الا تزور الميناء ؟

— ازورها ، ومن ينعني ؟ اصحاب المراكب يرحبون بي ، والبجارة يكرمونني ، ورئيس الميناء يدعوني الى مكتبه ، وابو رشيد يلقاني مرحبا ، فأبادله التحية بمثلها ولا ازيد ،

وعندئذ يروزي بنظراته ويسأني عن الاحوال .. انه يريد ان يعرف ما اذا كنت اتوي العودة الى البحر .

— وهل ستعود ؟

— نعم .

— ومتى ؟

— عندما يؤون الاوان .

— ما رأيك في المواعين ؟

— لا ارجب في هذه الشغلة .

— الا تريد منافسته ؟

— لا تهمني المنافسة ولا ما ينتج عنها . ان عدت الى

البحر فسأعود ريسا كما كنت ، انا اهوى البحر لا الانتقاع في الميناء .

كف نديم عن الاسئلة . وقال في ذاته « لو اراد الطروسي المساعدة لبذلها له فورا ، ولبعت بناية واقتضت واشترت له المواعين ، اما ان يصبح صاحب مركب ويسافر فهذا لا يزعج ابا رشيد ولا ينازعه السلطة في الميناء »

ولكي يغير الحديث اقترح :

— ما رأيك في سهرة عند يوركو ؟

— في الخمارة ؟

— لا ، فوق الخمارة ، (قالها وغمز باحدى عينيه)

— كما تريد ...

واسرع احمد لاحضار الحنطور ، وجاء ابو محمد فرفع صينية المشروب ونال العطاء المعتاد ، وسار الرجلان عبر المنشية لينتظرا العربة عند رصيف الشارع ، وفي الطريق سأل نديم عن ابي حميد ولماذا لا يأتي الى الشيخ ضاهر ، فقال الطروسي :

— لم اره منذ مدة ، اظن انه ملاحق .

— ولماذا يلاحقونه ؟

— لا ادري ! الذين كانوا مع المانيا اطلقوا سراحهم ، اما هو فما زالوا يسألون عنه ويلاحقونه .

— واين هو الآن ؟

— في الشحادين .

— ارسل وراءه وابعث به الي . قل له لا تخف من احد ، فقد سمعت انه يشتم الكتلة ، واظن ان الكتلوين هم الذين يحرضون عليه .

— معقول ؟ اسماعيل كوسا صاحبه ، فهل يعملها معه ؟

— ما في امساكه عن الخروج من باس على اسماعيل ؟

يتسلى معه من جهة ، ويحول بينه وبين شتم الكتلة من جهة ثانية .

— ولماذا تريده ان يخرج انت ؟

— لاتصيب عليه ! (وضرب على كتف الطروسي ضاحكا واضاف) اما سمعت ؟ يريدون السيطرة على الشيخ

ضاهر ايضا . هذه ضربة جديدة من الكتلة ، وسنرى من نصيب في النهاية .

ترجلا من العربية ودخلا زقاقا ضيقا ، ثم عبرا بابا واسعا وصعدا « عليّة » اعدّها الخمار لمثل هذه الخاوات ، وحين جلسا الى طاولة الشراب نسي كل منهما افكاره ، وراق مزاجه ، واصبحا نشيطين مرحين ، واقبل الخمار يخدمهما ، واعد لهما مائدة عامرة ، وصف لهما زجاجات الشراب ، وظل يذهب ويجيء ويفرك يديه امامهما معلنا استعداداه لتلبية اي طالب ، حتى سمعت ضحكة نسائية وعلا نقر على الباب ، ففتحه وادخل امرأتين جميلتين متبرجتين ، وسأل عما اذا كانت لهما حاجة به بعد ، فلما اجيب بالنفي غادر الفرقة لان مهمته انتهت ، وستبدأ ، منذ اللحظة ، مهمة المرأتين ، وكانت احدهما قد باشرت مهمتها بالتخفف من ثيابها ، ورفعت فستانها لتفصم العروة بين جوربها والمشد ، وبانت استدارة فخذها بيضاء وردية مكتنزة باللحم .

شكا خليل العريان في اليوم التالي من اعتداء وقع عليه وهو يصطاد في الميناء . فقد جاء بعض المقرين من ابي رشيد وامروه بان يخرج من حوض الميناء ولا يعود اليه قط . وحسب انهم يمازحونه باديء الامر ، لانه ما اعتاد ان يؤذي احدا ولا ان يلقى السوء من احد ، غير ان الذين تحرشوا به جدوا في طرده ، وقالوا له انهم سيرمون في البحر اذا عاد ثانية الى الميناء . ولما سألهم عن سبب ذلك وهددهم بالشكوى الى ابي رشيد شتموه وقالوا له اذهب واشك الى من تشاء ، فالذي يعمل في المقهى لا يصطاد في الميناء .

وهز الطروسي راسه ولم يقل شيئا . لقد فهم ما وراء الحادث فورا ، وتأكد انه السبب في قطع رزق خليل من الميناء ، ومع ذلك أثر عدم التعليق ، وقال لخليل « تعال واصطد في البطرنة غدا ، وسأساعدك بقدر ما استطيع » .

وصعد خليل باتجاه المدينة ليبيع صيده ، وغابت الشمس وهو يطوف حتى باع سمكاته القلائل ، ثم قصد ، في طريقه الى البيت ، خمارة توفيق ، وطلب كأسا من العرق كرعها دفعة واحدة ، فلما اتحدت من حلقة شعر بلذع النار في جوفه ، فأعاد الكأس فارغة وقال محتجا :

— الذي يفشني في المشروب لم يخلق بعد . . هذا عرق تين يا توفيق !

قال توفيق غير مكترث :

— فشرت ، عرق عنب مثلث .

لا يسكر الا على الواقف
 - على الواقف ام على القاعد ، عسادة الشرب في
 الخمرات بطلناها .
 - والكأس التي في يدك ؟
 - زوادة طريق (ضحك في الخمار) لا تضحكوا ، زوادة
 طريق حتى نصل البيت .
 قالها وافرغ كأسه الثانية ، ومد اصبعه الى المملحة
 فلحس قليلا و اضاف :
 - هات البطحة يا توفيق ! عرقك اليوم .. (وغمز
 بعينه)
 - عرقى مثل المسك ، عنب مثلث .
 - عنب صحيح ، ولكن يانسونه قليل ..
 - يانسونه قليل ؟ خذ بطحتك وبلا كثرة كلام ، توفيق
 لا يبيع العرق قبل ما يشرب منه ، والشرية امامك فأسألهم .
 قال الحاضرون :
 - خليل لا يفهم بالعرق ، ذوق يوق « (١)
 - العرق الطيب يتعقد حوله جنزير .
 فامسك توفيق بالزجاجة وخضها وقال :
 - وهذا الجنزير ؟ ما قولك فيه ؟ انا لا اغش زبائني
 ولا ابيع عرق التين .
 فاحتج ابو خضر :
 - اذكروا محاسن موتاكم يا جماعة ، لا تدموا عرق التين .
 وقال توفيق :
 - عرق التين لا يضر : وبعضهم يفضل على عرق العنب ،
 اما انا فلا اتعاطاه ، رائحته كريهة .
 - كريهة ام غير كريهة ، الا يسكر ؟

(١) « يوق » كلمة تركية تعني « لا يوجد »

- برحمة بطرس ..
 - لا تحلف ، انا لا ابيع عرق تين .
 - قلت لك برحمة بطرس .
 - طيب بطرس اله ؟ اقول لك انا لا ابيع عرق تين
 فتقول برحمة بطرس ، تأملوا هذا الزبون الذكر يا جماعة !
 التفت خليل الى وراء فرأى بضعة رؤوس تنظر اليه
 وتضحك . وثمة ، في الزاوية ، رجل يجلس الى طاولة صغيرة
 فارغة الا من كأس ، يعصب راسه بكوفية عتيقة ، وبشكل
 قميصه بدبوس ، وقد خلا فكه الاعلى الا من سن واحدة ،
 طويلة ، صفراء . قال :
 - اين سمكاتك يا خليل ؟
 - نفقنا .
 - بيت السبع لا يخلو من عظام .
 - السمكات قلال اليوم لذلك بعثهم كلهم .
 - مد يدك الى جيبك .
 - اي جيبى نهر ؟
 - احسبه كما تريد ، هات ..
 - ما معي يا ابو خضر ..
 - هات كم فرخ ..
 - برحمة بطرس .
 قال توفيق الخمار :
 - عدنا الى بطرس ورحمته ؟ اين « بطحتك » ؟
 - هات كأس على الواقف .
 - وليش على الواقف ، الا تعجبك القعدة معنا ؟
 - هذه العادة بطلناها .
 - بطلتها ؟ ما شاء الله ، ومتى ؟
 قال ابو خضر :
 - بطلها بعد وفاة المرحوم .. خليل حادد يا شباب ،

– ولكن السكر ليس كل شيء ..

فصاح ابو خضر :

– لا تتظاهروا بالآدمية ، المهم هو السكر .

– الا تخاف ان تحترق من السكر ؟

– المكتوب ما منه مهروب ، كل يوم اسكر وكل يوم

اسهر ولا يحدث شيء .

كان ابو خضر وقادا في حمام عمومي ، وكان يسكر وينام

في القميم ، وحدث ان غلبه السكر فحرق فراشه وكاد

يحرق نفسه .

قال خليل :

– انتبه يا ابو خضر ، ما كل مرة تسلم الجرة .

– انا متنبه ، اما انت فحافظ على بياضك من كلب البحر .

وضحك الحاضرون في الزوايا وقال احدهم :

– اذن انتبه يا خليل ، المثل يقول « اذا راحت بياضاتك

طلقتك مراتك » .

وقهقه ابو خضر مسرورا وقال :

– كل شيء ولا هذا ، خليل ببياضات ما مقبول ، فكيف

اذا فقدتها ؟

– من جهتي لا يكون لكم فكر ، انا في البحر العن من

كلب البحر .

وقال صاحب الخماراة :

– هذه لا يجادل فيها احد ، انت صياد كفوء ، اما

مسألة العرق فلا تؤاخذنا .

– ذوقه « يوق »

فوضع خليل بطحته في جيبه وقال :

– ذق « وار » اما « باراه » (پ) يوق .. قيد يا توفيق

على الحساب .

(پ) « وار » يوجد ، « باراه » نقود ، والكلمتان تركيتان .

فصاح توفيق منتهرا :

– عرق .. وبالدين ؟ وتك اخت هذه الصنعة ، هذه

آخر مرة يا خليل ، اكثر السمكات غدا ، سمعت ؟

– انا سمعت ، بقي ان يسمع الذي فوق (قالها و اشار

الى السماء) .

كان الليل قد انسدل ، والناس يسرعون الى بيوتهم

هربا من برد المساء ، فمضى خليل في زقاق « العناية » الى

البازار ، ومن هناك الى سوق البالستان ، وانعطف الى جادة

مقلقة تنتهي بدرج يفضي الى فسحة كبيرة تقوم على جوانبها

غرف حجرية وخشبية قديمة بشكل دائرة ، تقطنها عشرات

العائلات ، ويسكن احداها خليل منذ تزوج .

وكانت زوجته قد اشعلت الفحم ، وجهزت له السمكة

وطعام العشاء ، وانصرف اولاده الى دروسهم او الى النوم ،

فلما دخل هبوا اليه يسألونه عما يحمل معه ، فأرسل يده

في جيبه وراح يوزع عليهم انحمص الاصفر !

ولما اقتربت منه زوجته وشمّت رائحة العرق نفرت

وقالت :

– شربت اليوم ايضا ؟

اخرج الزجاجة التي انقصها عمدا وقال :

– لا انكر ان رائحتي عرق ، فقد شربت من بطحتي

مقدار اصبعين بسبب البرد .

تطلعت الى شفته السفلى فاذا هي تلتئم وقد ارتخت

قليلا ، ورات بداية احمرار في عينيه فقالت :

– مقدار اصبعين لا يغير هيئتك ، انت شربت فسي

الخماراة .

– برحمة بطرس ما قعدت في الخماراة .

– ولماذا تأخرت ؟

– حتى بيعت السمكات . درت السوق كله حتى جاءني

سعر مناسب ، الا يكفي انهم لا يستأهلون حتى ابيعهم كيفما كان ؟ هاتي العشاء وابعدي النار ، مهما يكن البرد ضارا فالنار اضر ، انسا لا اطيقتها .

جاءته بطبق من قش وعليه السمكة والعشاء ، وساد السكون الا من طقطقة الحمص تحت اضراس الاطفال ، فأخرج زجاجة العرق وشرب منها جرعة وقدمها لزوجته قائلا « خذي ! » فلما رفضت تجشأ وقال « لولا العرق لمت ، لا ينفض البرد غيره ، خذي بلعة » .

ورفضت ان تأخذ وظلت ترمقه بنظرات الاستنكار . وتحاشى هو نظراتها ما استطاع ، لعلمه انها ستنسى بعد قليل ، وتصبح كيسة ، وعندئذ يمكنه ان يتبسط معها ويلكزها مداعبا مستثيرا شهيتها الخامدة ، فاذا لم يفلح ، ولم يلعب الورق ، ذهب الى السهرة ولم يعد الا بعد منتصف الليل .

ولم تكن تحاسبه على سهراته وتصرفاته . لقد عاتبته حتى ملت العتاب فتركته ليقينها انه لن يتخلى عن البحر والسكر . ثم انها خبرت طباعه ، وعرفت انه يتركها ولا يترك الصيد ، فلماذا تعارضه؟ الصيد مهنته ، والبيت حافل بالشباك والمطارين والاقصاب والصنارات والاصداد والاسفنج ، وانها لتذكر انه نهض من فراشها في اليوم الثالث لزواجهما وهو يقول « غليئة ! غليئة » وركض الى المطبخ فتناول عدة الصيد وذهب فأيقظ زميلا له وقطعا مسافة خمسة كيلومترات او اكثر في طلب الصيد ، فلما توفقا ، وكان الصبح قد اوشك ، اقترح عليه زميله ان يشعلا نارا ويستدفئا ، فأجابه وهو يرتجف « الحقني ، لا يدفئنا الا خلع السراويل ! » وجاء من فوره واندس الى جانبها عريانا في الفراش .

وقد عرفت منه بعد ذلك كثيرا من امثال هذه التصرفات ، فعارضتها أولا ، واستسلمت لها اخيرا ، ثم

افتتنت بأحاديثه وقصصه عن البحر والصيد ، ولم يعد شيء من ذلك غريبا عليها .

واخذ يأكل ويتحدث قائلا « لو لم يخرجوني اليوم من الميناء لاصطدت ١٠ كيلوات ، السمك في الميناء كثير ومعلوف ، ولكن اولاد الحرام كثيرون ، وابو رشيد هذا .. قاطعته قائلة :

— دائما لو ، منذ اخذتك وانت تقول لو ، وكل الصيادين يقولون لسو ..

— برحمة بطرس يا حرمة ..
— لا تحلف ، اترك بطرس الى رحمة الله ، لقد حفظت كلماتك من كثرة ما رددتها .

— انت لا تصدقين ، وسأريك بعينك . الطروسي قال لي : اصطد غدا في البطرنة ، فاذا فتحها الله في وجهي عوضت خسارة الميناء وتخلصت من المضايقات ، المهم ان يستمر صحو الطقس .

وطرق الباب في هذه اللحظة ، فدفق صياد وزوجته وطفلهما ، ثم جاء آخر ، وبعض الجيران ، فخلعوا نعالهم عند العتبة وجلسوا على الطراريح ، وكلما دخل قادم جديد بادره خليل والموجودون بتحية المساء ، فيردها هذا لهم ، ويستأنفون ما كانوا فيه من حديث .

وكان حديث خليل يدور حول الصيد كعادته ، حتى ضاقت زوجته به فقالت « اما لك من هم غيره ؟ » قال « بلى ! عندي هم آخر هو انت ، انت احسن صيد حصلت عليه في حياتي ، وبعدها نشفها الله في وجهي » وضحك الحاضرون فقالت الزوجة « ليت الذي علمك هذه الصنعة مات قبل ان يراك » فأجاب « لقد مات المسكين منذ رأني ، فورثت امراته فراشه ، وورثت أنا صنعته » .

صاح احد الجيران « اعفونا من قصص الصيد ، هاتوا الورق ، اقعدي يا خليل قبالي » فتمنع الحاضرون قائلين « خليل لا يلعب معه ، اما ان يفش او يسب الدين » قال خليل : « اذا لعب شريكى على الاصول لا افتح فمي » فقال شريكه « ستفتح فمك كيفما كان ، فخذ حريتك » وضحكوا ، فنهض خليل على ركبتيه وقبل صلعة شريكه قائلا « وهذه بوسة على الحساب ! » عندئذ انتهره قائلا « هذه العادة النجسة اتركها ، الف مرة قلت لك لا تقرب علي ، رائحة العرق تقتلني ، الله يساعد زوجتك » فضربت زوجته على صدرها ولم تزدد ، وصاح هو :
- فتوا الورق .
- ودار اللعب ..

وبعد اللعب تحدث خليل عن ذكرياته في انجندية : كان قد تطوع في جيش الشرق في اوائل الحرب العالمية الثانية ، وسئل عن مهمته فزعم انه « طباح » وكان احد الضباط الفرنسيين بحاجة الى طاه فطلبه للعمل عنده . ولكي يرضي رئيسه ولا يترك البحر ، استغل وقت الراحة واصطاد كمية من السمك كانت كافية لتفطية تقصيره في الطهي ، وكان الضابط يأكل من السمك ويوزع ، ومقابل ذلك يتساهل مع خليل اذا ما ضبطه سكرانا ، وقد اغتاظ منه يوما فأرسله الى الرماية ، وهناك اثبت موجودية حملت الضابط على اعادته الى البيت .

سأله « وما هي هذه الموجودية ؟ » قال : كلما صاح الضابط Feu قلت Prôt ، فضحك الجنود ، وضحك الضابط وقال : كفى ، ارجع الى البيت ، انت تصلح للبحر لا للجندي .

قال احد الحاضرين :

- يا لك من عفريت !

فقال خليل :

- عفرتني في مسألة الارانب العن . . فقد دعا الضابط بعض أصحابه الى الغداء ، وجاءني بأرنبين لطبخهما ، فذبحتهما وسلختهما ووضعتهما في صحن كبير وذهبت الى السوق ، ولما عدت وجدت القطة قد اكلتهما . كان موعد الغداء قد اقترب ، ولم يكن السوق قريبا ، وخفت العاقبة ، ففتحت النافذة ودعوت القطة بعد ان وضعت لها نفايات السمك ، فلما اقبلت امسكت قطين وذبحتهما وقدمتهما للضابط وضيوفه ، ولما انتهى الغداء وانصرفوا شكرت الله وقلت « سترها ربك يا خليل » .

- والضابط ، الم يعرف ؟

- حلمكم علي . جاء الضابط في اليوم التالي وسأل « اين الارانب يا خليل ؟ »

ماذا اقول له ؟ اعترفت بالحقيقة وانا خائف ، فضحك وقال « بون ! بون ! » لقد عرف القطة من عظامها . واوصاني باصطيادها دائما ، فقلت في نفسي « وهذه شغلة ثانية يا خليل ، اصبحت صياد قطة ايضا ! »

وضحك الحاضرون وقالوا :

- خليل له مئة كار ..

ودقت زوجته على صدرها للمرة الرابعة وقالت :

- خليل كثير الكارات قليل « البارات »

وفتح خليل عينيه الحمراء وقال :

- لو كان حظي مثل لسان امراتي لاغتنيت ..

عن الصورة التي عرفه بها بحارنه . صورة الرئيس الذي يقف على الدفة في مصطخب الانواء ، هازنا بالموث ، صامدا للريح ، باعنا الثقة في نفوس الذين معه ، صانحا بهم ابدا « هورسا يا شبيب ! »

وكان الماء ، اليوم صافيا شفافا من تحته ، ينداح عن دوائر وفقايع ، بفعل تيار جوفي ، او بسبب خروج الهواء من الماء . واسراب السمك تمر بالفلوكة آمنة مطمئنة ، وهو يفت لها الخبز ، فتقلب في سيرها ، وتنجدل على بعضها ، وتتهادى . وتتجمع ، وتتفرق ، مشكلة مئات الدوائر ، راسمة آلاف الحلقات اللولبية ، عائمة بتيهه ، غاطسة كسهم ، منزلقة في يسر .

وعلى نحو ما ينفتح المندل لفتى طاهر القلب ، وتنشق رقعته ليرى فيها المنجم ما لا يراه الآخرون ، كان قعر البحر ينفتح امام الطروسي عن رؤى ذات آوان والوان . تعكسها السماء ، وتطرزها الاسماك ، وتجميلها مخيلة بحار قديم تختزن الكثير من صور الماء والاسماء .

وراح او محمد يتابع الطروسي مشوقا الى حركاته التي لم تذهب برشاقتها الاعوام . الجسم الاسمر الضامر بغير هزال . والوجه النحيل البيضوي ، بدقنه المستديرة ، ونظرتة الجارحة . وانفه الاقنى ، وهذا التجرح الذي يشطر الخد الايمن ويترك اثره عليه ، وهاتان الكتفان المجمعتان ، المتحفظتان ابدا لمواجهة خطر مجهول ، كل ذلك جعل للرئيس سيماء رجل صلب مشبوب النزوات ، نرق الطباع . لا تنال منه السنون الا ما يناله الموج من صخرة الشاطيء ، يخرش بعض جوانبها ، لكنه يعجز ان ينال من سموخها وصلابتها .

فرغ ابو محمد من فطوره فوقف وتنحنح ليلفت نظير الطروسي اليه . كان يرتدي معطفا عتيقا اسود ، فوق شروال

٦

امتد صحو الطقس بضعة ايام اخر . كان شباط يوشك ان ينتهي ، وكانت الدنيا صباحا ، وقد جلس الطروسي في الفلوكة الصغيرة « ام السعد » على مقربة من المقهى ، وراح الموج يداعب دفتها ويتكسر على جانبيها فتهتز تحته وتميل وتستقيم ، وكانت الشمس تملأ الفضاء بأشعة دافئة يستحم بها البحر ، وحيوانات الماء الصغيرة تتحرك في شقوق الصخور لاحساسها بأن فصل العواصف مضى ، وبامكانها الآن ان تخرج الى وجه القمر ، وتتقل ، في الجذور المعشوبة ، نقلة او نقلتين .

كان يرتدي صدارا مزركشا فوق شروال اسود ضيق الساقين ، ويلف خصره بزنا صوفي ترك طرفه بارزا من وراء ، ينتهي بخيوط كخصلات الشعر ، ويفتح صدره ننسيم ويراقب شيئا ما يدب في القاع . وكان ابو محمد يجلس على الصخور يتناول فطوره مع كوب من الشاي ، ويراقب الطروسي متابع حركاته بعينين تطوف فيها نظرة حب وحنان . انه ليذكر الحكايات التي سمعها عنه من البحارة ، ويذكر قولهم « كانت لنا ايام وكان لنا رئيس » يقولونها وينفخون متحشرين بغير طائل . البحر هو البحر ، لكن الرجال تغيروا ، عصرهم الذهبي مضى ، زمن الشراع ولى وفات ! وكان الطروسي يظل ، امام هذا الفيض النابع من اعماق الشعور في نفوس البحارة والصيادين ، سادرا لا يتكلم ، متماسكا لا يسمح لنفسه بأن تتلاعب به عاطفة تخرجه

قصير الكمين ، وكانت ذقنه طويلة ، وشعراته الباقيات قد تفرقت في ام راسه، وحاجباه الكثان يتهدلان فوق جفنيه تهدل شاربيه فوق فمه ، وفي رجليه « شحاطة » يبرز منها ابهام قدمه اليمنى ، والصخر من تحته مرتفع عن البحر، والى يمينه ياطر مكسور ومجذاف ملقى وكومة من حبال .

تنحج من جديد قلم يلتفت اليه . ربما كانت نحنحته ضعيفة لم تبلغ مسامع الطروسي المستغرق في رقعة المنديل! وكانت الشمس الدافئة من حولهما تشتد كلما ازدادت ارتفاعا في صفحة السماء ، وابو محمد يتشاءم من شمس شباط هذه ويقول عنها « شمس شباط مثل المخباط » ويهرب من حرها او يضع على راسه خرقة لاتقاء الزكام .

صاح بالطروسي بعد ان يش من جذب انتباهه بالنحنحة وحدها :

— ابو زهدي !

فنظر اليه وغمزه غمزة مؤداها « ماذا تريد ؟ »

قال ابو مجهد :

— اذا سأل عنك احد فماذا اقول ؟

— غير موجود .

اهتزت الفلوكة اهتزازات غير عادية . ما معنى هذا ؟ هل تغيرت الريح؟ استدار الطروسي ونظر صوب الغرب ، ثم رفع كفه في مسرى الريح وقال « لا يمكن ان يكذب ظني، شباط غدار » .

ونادى ابا محمد قبل ان يتعد :

— اذا كان البحارة في المقهى فقل لهم لا تعمقوا اليوم،

الليلة نوء .

واضاف يحدث نفسه « هزة الفلوكة لا تعجبني ، الدنيا غيار والريح متقلبة » .

وضع قدمه في الماء ، وانتظر ، ثم عاد ينظر الى الغرب فرأى سحابة رقيقة في طرف الافق، ترتفع وتنتشر باستمرار، وعندئذ هز براسه هزة يقين ، وشد الحبل الذي يربط الفلوكة بالصخر ، فاقتربت من الشاطيء ، وقفز منها الى الصخر ، ووقف عليه . كان يريد العودة الى المقهى ، لكنه صرف النظر اذ تذكر المركب الجديد الذي سينزل اليوم ، وهكذا سار على الشاطيء .

وكان الشاطيء حافلا بالناس : الصيادون ينشرون شباكهم على الصخور ، والفلاّك قيد الاصلاح ، يطليها اصحابها بالقار ، او يجددون ما بلي من اخشابها في الماء ، والى ابعد مركب كبير الى جانبه نار ، وبحارة يدفعون المركب الجديد لانزاله في البحر ، وبعضهم يشد عزائم بعض، وينتخون بصيحات كخوار الثيران : « هيلا ، هيلا ، هيلا » .

صاح رجل يقف في مقدمة المركب :

— بس ، هاتوا لاطة .

احضر البحارة لوحا خشبيا سميكاً وضعوه تحت المركب من امام ، وصاح هو بالرجال الاقوياء الذين يشدون الحبال : — خذوا عليكم يا شباب ، شدوا الى اليمين ، لا تتركوا المركب ينحرف عن النزلة ، ركزوا المساند من الخلف .

فتقدم بحار مسن وابدى هذه الملاحظة :

— انتبه يا ريس الى التوازن ، اذا شدوا اكثر فقد

المركب توازنه ومال الى جانبه الايمن . . . جلسوا المقدمة اولا حتى يستقيم النزول .

نظر الريس في وجه البحار المسن وقال :

— يا ابو حسن معك حق ، ولكن المساند قوية من

اليمين ، وستقويها اكثر ، هاتوا لاطه يا شباب !

الجانبين ، في دائرة كبيرة ، تحلق الصيادون والمتفرجون والاولاد ، وفزع البحارة كلهم للمساعدة في انزال المركب « التوفيق » الى البحر .

وعلى الجانب الايمن للمركب ، وفي مقدمته ، طبعت بالدم كف بحار عملاق ، ذلك ان صاحبه ذبح خروفا فدية عن مركبه وتذكارا ، فغمس بحار كفه بالدم ودمغ الخشب وهو يقول « باسم الله مجراك ومرسالك . . اللهم احفظه من الحرق والفرق وتعهد به بعنايتك ورعايتك يا ارحم الراحمين ، امين » فاطلق البحارة هممة يمازجها الخشوع : « امين يا رب العالمين » ، وزغردت النساء ، وتقدم الفقراء من صاحب المركب فمد يده الى جيب شرواله الجوخ المقصب واخرج حفنة من النقود الفضية وشرع يوزعها ، واعلن ان لحم الخروف سيوزع كذلك يعد سلخه وتقطيعه ، وقال بصوت عال « ادعوا لنا بالتوفيق » فدعا له الجميع بالتوفيق والخير ، وشرع « اللنش » الذي وصل رافعا العلم السوري يزمر في الماء ويهدر كان في جوفه رجلا اتخذ من البحر ناركيلة وهو يسحب نفسا مديدا مديدا لا ينتهي ، وراح الماء يفور ويرغي ، والنش يتراقص بين مجموعة الفلائك المنتشرة حوله ، والريس يصيح « ليوا يا شباب ، ليوا ، ارموا الحبل لنقطر المركب ، قولوا باسم الله » .

ووقف بحار اسمر يلبس سروالا من الشيت الازرق ذي المربعات ، وعلى راسه لبادة ، وامسك بالجيل ولوح به في القضاء عدة مرات ثم رماه الى الشاطئ ، فسقط على الرمل المبتل ، بين اليابسة والماء ، وترك اثاره عليه ، ثم جاء الموج ومحا الاثر ، واسرع البحارة والتقطوا الحبل وناولوه الى البحار الواقف على مقدمة المركب ليربطه « الشكارمو » وتقدم الريس ليراقب عملية قطر المركب ويعطي تعليماته .

ولكن ابا الحسن اصر على رايه :
- المساند لا تكفي وحدها ، المركب ينزلق بسرعة ، وهو ، ما شاء الله ، مثل جبل ، واذا اختل التوازن ولو شعيرة صعب عليكم تجليسه ، اقرصوه بدون شد .

رفض الرئيس مرة اخرى نصيحة البحار ، وتظاهر بانه غير مقتنع بها ، الا انه امر الرجال :
- لا تنتروا اتحبال من اليمين . زيدوا الضغط من اليسار ، شدوا ، شدوا .
واضاف :

- جلسوا ، جلسوا ، يا عبد ، يا مصطفى ، يا محمد ، اقرصوا من عند الدفة .

ابتسم ابو الحسن في ذاته نفسه : الرئيس سلم براهه ، وسيمود المركب الان الى التوازن ، وينزل باذن الله سالما الى الماء .

والقى ، وهو مطمئن ، نظرة عاشق الى البحر ، لقد كان هو ايضا ، بحارا ذات يوم . كان يقف على الدفة ، ويتلقى التعليمات ، ويقلل النصح بغير ضيق « انما ليس كل الناس على خلق واحد » قال ذلك في نفسه ولم يبرح مكانه .

كان المركب مبنيا على منحدر رملي ، وقد اسند ، من خاصرتيه ، بأعمدة خشبية قوية ، ووضعت تحته لاطات مشحمة لينزلق عليها ، وشد من جانبيه بحبال قوية ربطت الى اوتاد حديدية ، وشد الى اعلى التل بسلسلة حديدية ضخمة ملفوفة على بكرة من حديد يديرها رجلان ، اخذا يخلان السلسلة حلقة حلقة ، حسب تعليمات الريس الذي ما انفك يصيح « بيرا ، بيرا ، ستوب ! يا الله يا رجال ! » فيأتيه جواب الرجال « يا الله ! » تخرج من اعماقهم مرعدة هادرة وهم يضعون اكفهم على بطن المركب ومؤخرته ويدفعون . وعلى

في هذه اللحظة وصل الطروسي واضعا يديه وراء ظهره،
متمهلا ، مفكرا . كان يرفع راسه وينظر الى الغرب ، فيرى
السحابة الرقيقة التي عند الافق تميل شيئا فشيئا الى
السواد !

وصاح الرئيس مرحبا به :

- اهلا ابو زهدي ، بارك لنا !

- مبارك ، تشوقون الخير على وجهه ، اللهم احرسه .

قالها وأشار الى بعض البحارة الواقفين :

- يا الله يا شباب ! اين فزعتكم ؟ العرس لنا ام

للجيران ؟ هاتوا ايديكم ، اسمعوني اصواتكم ، ادفعوا بقوة ،
بقوة ، بقوة اكثر .. اكثر ، ولك اكثر ، هिला هिला ..

اندفع عدد كبير من الحاضرين ووضعوا اكفهم على بطن
المركب وصاحوا ملء حناجرهم : هिला هिला !

توقف الطروسي فخلع سترته والقاهها على الرمل وصاح :

- ما سمعت

- هिला هिला (ثم بصوت جماعي اعلى) هिला ، هिला .

- ما سمعت !

- هिला ، هिला ، هिला

- والله ما سمعت (قالها وقد اتخذ صوته لهجته

الحذاء ، واصبحت نبرته عنيفة قاسية)

- هिला ، هिला ، هिला

رفع سبابته في الفضاء وصاح بنفس النبرة ولكن بصوت

اسرع واعنف :

- المركب مركبنا ..

وردد الجميع :

- المركب مركبنا (قالوها بنفس النبرة وب نفس العنف

وقد نفرت العروق زرقاء في رقابهم ، وشمخوا كأنهم يتحدثون

القوة بقوتهم)

كرر بعنف اكبر وانفعال اعظم :

- المركب مركبنا

وراحوا يرددون معه :

- المركب مركبنا

- والخام جوانحنا

- والخام جوانحنا

- والريح بتدفعنا

- والريح بتدفعنا

- والبحر بيحملنا

- والبحر بيحملنا

- والمولى حارسنا

- والمولى حارسنا

- والمركب فرسنا

- والمركب فرسنا

- ونحن الخيالة

- ونحن الخيالة

- هिला !

- هिला !

- ما سمعت ..

- هिला ، هिला ، هिला ..

تحرك المركب فوق اللاطات المشحمة ، وانحدر ضخما

كجبل نحو البحر ، وتراقص « اللنش » وازداد هديره ،

وتصاعد الزبد اغبر كأن المحرك قد مس القاع ونبشه ، وتوتر

الحبل الذي يقطر المركب وانشد نحو البحر ، وكرت البكرة

الحديدية من وراء معطية للسلسلة التي تقوم مقام الكابح

المدى اللازم للانزلاق ، وركض الرئيس الى امام والى وراء

منفعلا بحماسة الجو ، ثم صعد الى ظهر المركب ، وفتح

ذراعيه وحركهما موزعا تعليماته بصوت متهدج ، وشمل كل

ما حوله بنظرة واحدة ، ووازن بين الجميع ، وسيطر . كقائد
فرقة موسيقية ، على الجميع .

لقد نسي كل شيء الا انه الرئيس ، القائد ، وعلى الجميع
ان ينظروا اليه ، ان يسمعه بدون أن يتكلم ، ان يروا الى
حركات يديه التي تقول لهم ما يجب ان يفعلوا . ان وجهه
ويديه وعضلاته كلها تتكلم في هذه الساعة ، وارادته تتجمع
في نظراته ، واهتزازات آلية شرواله تتوافق ايقاعيا مع جسمه
الذي ينتفض من رأسه الى اخمص قدميه .

الشمس ما تزال ساطعة ، والفيمة تكبر عند الافق ،
والدفء يغمر الدنيا بحرارة شال صوفي ، وبعض الفتيان قد
خلعوا ثيابهم وسبحوا الى الزورق الذي امتلأ ظهره بالناس ،
وصيادو السمك هرعوا من كل ناحية ، والطروسي يدفع
بكفيه بطن المركب ، واضعا وجهه عليه ، مستنشقا رائحة
الخشب التي تفعم رئتيه ، حتى اذا مست شفتاه الخشب
احس بنشوة غريبة ، نشوة بحار قديم يحتضن مركبا جديدا
ينزل الى البحر .

المركب ينزلق : وانزورق يشد به ، وبكرة الحديد تكرر
وراءه . والرجال يدفعون ويحفظون التوازن من على الجانبين ،
واللاطات المشحمة التي خلفها وراءه تنقل وتوضع امامه ليتابع
عليها ما تبقى من الطريق ، والرئيس يقود جوقة العمل من
على ظهر المركب ذاهلا عن كل شيء الا انسجام اللحن العظيم :
لحن المركب المنحدر بعظمة وجلال الى ابحر .

وارتفع صوت الرئيس من مقدمة المركب في صيحة حارة
« ستوب » وقطعت ذراعاه الفضاء قطعاً حاسماً ايضاً ،
فتوقف كل شيء : شدت البكرة الحديدية من وراء وتراخى
الحبل الذي يقطر المركب من امام ، وتراجع الرجال من على
الجانبين ، وداعبت اول موجة مقدمة المركب في تحية حارة ،

ومدت المياه السننها ولثمت عارضيه ، وقبل الزبد جوانبه
قبلة اللقاء .

لقد دنت الهنيهة الحاسمة : دنيا البحر ، ذراعاه
الكبيرتان ، صدره الرحب ، موجه ذو الدوائب ، اعماقه ذات
الاسرار ، ستتلقى كلها مولودا جديدا بعد طول مخاض ،
مولودا جديدا سيذهب ويجيء ويستقر ويضطرب ويعيش
ويكبر ويهرم ثم ينتهي ، وسيعرف ، بين بدايته ونهايته ،
اشياء كثيرة واسرار كثيرة ، سيتعلم الكفاح والصبر ، ويتذوق
حلاوة الانتصار ومرارة الانكسار ، وسيجربه البحر ويلطمه
بقبضتيه الجبارتين ، وعليه ان يكون قويا ليسلم ، مكافحا
لينتصر ، والا ضاع ابتلعه الاعماق ، فالبحر ، كالفرس
الشموس ، لا يعتلي سرجها الا الفارس المغوار .

قفز الرئيس عن ظهر المركب ومضى بخفة الى وراء ، الى
رأس المنحدر ، ليعرف ما اذا كان التوازن تاما .

فكر في ان يصيح بالطروسي يأخذ رايه ، وكان هذا
ينتظر ذلك ويتوقعه ، انما كان يعرف ، كريس قديم ، ان
التدخل بغير تكليفه أمر غير مستحب ، وحتى لو فعله سواه
فلن يفعله هو . حسبه انه يشارك في الفرجة ، انه يفرغ الى
المعاونة ، كما تقضي اخلاق بحار ، والمهم ، قبل هذا ، ان
ينزل المركب الى البحر ، وان يطمئن الى نزوله ، وان يكحل
عينيه بمرآه وهو يشق صدر الماء بحده المسنون .

صرف الرئيس النظر عن استشارة الطروسي . كان يحبه ،
ويتمنى لو سافر مرة معه ، وهناك ، في البحر ، سيطلب منه
ان يقود المركب فيرى الى مهارته التي يتحدثون عنها ، ويعرف
ما اذا كان حقا كما يقولون ، اما هنا ، امام هذا الجمع ،
فلن يفعل ذلك ، ولن يسلم براى الطروسي فيما اذا عارضه ،
واذا قال الطروسي كلمة ولم تسمع كانت تلك نهاية الصداقة
بينهما .

هبت نسمة باردة ارتعشت لها جسوم العراة من الرجال، وبدأت الوجوه المنداة بحمرة الحماسة والجهد ، والعروق النافرة في السواعد والاعناق ، تتمدد في استرخاء بفعل الراحة . وتقدم البحار الذي سبق واعطى ملاحظة عن توازن المركب وهمس باذن الرئيس كلما لم يسمعه الآخرون .

كانت الأرض رملية ، عن يمين المركب، تميل قليلا الى الانخفاض ، وفي حال كهذه يجب ان يزداد الشد من يسار ، وان تزداد المساند من الجانب الآخر كتدبير احتياطي .

وفهم الطروسي من اشارة البحار انه ينبه الرئيس الى ذلك ، وكان يود ان يأخذ الرئيس بهذه الملاحظة ، وبسرعة ، قبل ان تبتدد جسوم الرجال ، لكن الرئيس راوغ ولم يوافق موافقة صريحة . وكان ذلك حريا بان يفضب الطروسي لولا ان عالمه الداخلي كان على درجة من الانسجام والصفاء كبيرة، لا تعكرها امثال هذه التصرفات . وقد حكم في ذاته على الرئيس عبدالحميد بانه عنيد اكثر من اللازم ، ولا يعرف كيف يستفيد من بحارته ، ولا كيف يتعاون معهم .

وقال الرئيس عبدالحميد وهو يصعد الى المركب مجددا:

— همتكم يا رجال !

وقبل ان يبدأ باعطاء التعليمات ، مال الى جانب المركب وقال :

— يا ابو زهدي ، شرف لعندي خي ، خلينا على الظهر مع بعضنا ، بدانا نزل في البحر .

استقبل الطروسي هذه اللفتة بالرضى . لقد جاءت متأخرة ، ولكن ما قيمة ذلك ، يكفي انها جاءت وان الرئيس حيته ، وعليه ان يرد التحية بأحسن منها. ثم ان البحر اصبح تحت المركب ، وسيقف على المقدمة كما كان يفعل من زمان، وسيحظى ، مرة اخرى ، بفرصة نزول البحر على مركب

جديد ، وسيستطيع ان يحكم عليه لمجرد انه على ظهره وهو يلامس الماء يتهادى عليه .

ومع ذلك اعتذر ، واصر على ابقاء بين البحارة ، وكان راضيا بذلك ، وقد ازداد رضاه حين اصدر الرئيس تعليماته التي تنطبق ، ولو قليلا ، على ملاحظات البحار ، فزاد المساند من يمين ، وشد الحبال من يسار .

وعاد ينخي الرجال :

— خلصنا هه ، همتكم يا شباب ، قولوا يا ميسر .

هدر ازورق وزمجر مخرجا الرمل من قاع البحر . وتقلص ارتخاء الحبل الذي يقطر المركب ، ثم اشتد وتوتج واستعد الجميع ، ونظر الرئيس حوله : كل شيء جاهز: شمس شباط ساطعة ما تزال ، وأرمال تبتسم ، والفلائك تتجمع ، ولم يبق الا ان يعطي الاشارة ليبدأ العمل ، ويقطع المركب المسافة الصغيرة الكبيرة الفاصلة بين عالمين : عالم الأرض وعالم الماء .

.. واعطى الرئيس ، اخيرا ، هذه الاشارة ..

وصر شيء ما صريحا حادا فوق اللاطات . وانحدرت الكتلة الخشبية الجبارة فانشق لها صدر الماء وتلقاها. وضرب الطروسي مؤخرة المركب بكفه ضربة فارس على كفل حصانه وهو يبعث به وحيدا لاداء رسالته . ومخر الزورق قاطرا المركب وراه ، وتقدمت الفلائك بمجازيفها تحف به من جانبيه، وصفرت سفينة في الماء صفيرا مديدا تحية له ، وتراكمس البحارة ونزلوا في الفلائك ، وصاح صاحب المركب « انقضاء عندي يا شباب ! »

كان خط عريض ازرق يرتسم خلف المركب ، وصيادون يقتربون من الشاطئ ، وعشرة منهم يسحبون الشباك ، والحبال على شكل حدوة حصان ، طرفاها الى البر وقنطرتها

الى البحر ، ولها عقد يتمسك بها الصيادون وهم يسحبون متراجمين وأقدامهم تفرز في الرمل ، وافواههم تنشد باجماع وببطء : « شد حبالك شد ، شد » والحبال تنكوم على الرمل ، وقطع الغلين العائمة تقترب ، والمسافة بين طرفي الحبل المسحوب تضيق ، والساحيون يتجاورون ، والغناء يتواتر وينداح بنفس البطء ونفس العمق : « شد حبالك شد ، شد ! »

وانتهى ، بعد طول عناء ، شد الحبال ، وخرجت الشبكة وفي داخلها السمك ، فاشرقت أسارير الصيادين ، وركضوا نحوها بالسلال . لقد توفقوا اليوم ، ان سهرهم وشدهم لم يذهب سدى كما حدث امس ، ومعنى هذا ان قوت عيالهم قد تأمن . وكانت الاسماك ، باحجامها المختلفة فضية اللون ، تلمع حراشفها تحت الشمس وهي تنط وتحاول الافلات من الشبكة ، وقد اعطى خروجها جانبا اخر مضيئا للوحة الشاطئ البهية في هذا اليوم المشرق ، فبدا كل شيء يضحك للحياة ، يضحك لهذا الوجود المتفتح كازهار اللوز .

رجل واحد لم يضحك ولم يعبس . كان لا مباليا بما حوله ، يسير وكأنه مكلف بنوبة حراسة يؤديها على الساحل . هذا الرجل هو الطروسي الذي توقف قرب صياد القى صنارته في الماء وراح ينتظر ، فشرب معه سيكارة وتابع طريقه الى امام .

المركب الجديد يبتعد ، وعلى ظهره خلق كثير ، وسيقوم الان بجولة قصيرة ثم يعود الى الميناء ، فيترك فيها حتى تمتص اخشابها الماء وتلتحم ، وتقام على ظهره الصواري ، ويجهز جهاز عرسه ، ويزف بعد ذلك الى البحر ليقوم بأولى رحلاته في دنيا الماء .

وكان الطروسي ، يفكر في امر نفسه ، وهو يسير ، ويفكر في مركبه الذي ضاع منه ، ويسائل نفسه مقهورا : « ان اصبح صاحب مركب مرة اخرى ؟ »

واجاب على سؤاله فورا : « بلى ! سيكون لي مركب ، سأعود ريسا كما كنت ، وسأناقر الى بعيد ، الى قبرص والاسكندرية ورومانيا وكل شواطئ المتوسط ، وسأنزل في جميع المرافئ : سأزور مرفا كونستانتزا وارى « ماريا » ، وسألقى في كل مرفأ بحارة يشربون نخبي ، واصحابا كنت اعرفهم ، واصحابا اتعرف اليهم . فقط لتنته الحرب ، وسأبيع القهى ، لا ، لن ابيعه ، سأهبه لابي محمد ، ولكن اذا اصر على اللحاق بي ؟ على السفر معي !؟ »

وقرر في ذات نفسه حاسما الموضوع : « سأخذه معي ، لن اتركه مقطوعا على الشاطئ » .

وتابع مسيره الى حي الرمل ، فقد كان موعد خلوته بام حسن قد ازف منذ وقت طويل .

على ان معركة اليوم كانت حامية ، وقد تطورت حتى لم يعد يستطيع السكوت ، فهم باثبات وجوده فعليا ، ولكن الموقف كان قد افلت تماما ، وجعل البحارة يتضاربون ، وتدخل احمد في المعركة دونما سبب ، فصاح به ابو محمد :
- يا احمد ، يا حيوان اتركه ، اتركوا بعضكم ، اطلعوا من المقهى ، اوباش !

ولم يتلق جوابا على صيحاته كلها .

كانت التكراسي قد انقلبت ، وتاركيلة قد انكسرت وانسفح ماؤها على الارض ، وتحطمت بضعة فناجين ، ووقف الزبائن فتدخلوا ما بين مختلص وناصح ، وبجهد استطاعوا اخراج المتعاريكين من المقهى ، وارسل ابو محمد وراءهم جملة المعتادة :

- روحوا بدهية ، لا ردكم الله .

وتكاثرت الرجال ، وتراكض البحارة ففرقوهم ، وعاد الجميع الى المقهى لتصفية الخلاف وابو محمد يقول مهددا :
- اتركوا كل شيء على حاله ، اتركوه حتى يرجع الطروسي ويتحاسب معكم .

قال بحار كبير السن محترم المقام :

- لا داعي لذلك يا ابا محمد ، افرطها ، يلعن الشيطان وساعته ، كل شيء راح يرجع الى موضعه والخسارة علي .
- الخسارة كبيرة ، كل ما معهم لا يعوضها (وهو يخرج من وراء الدكة) وانا لا اتدخل ، سأحكي الذي صار للطروسي وهو يدبر الموضوع .

صرخ احمد الذي كان وجهه قد ازرق بفعل الكلمات :

- شف هذه الآلة المزفتة ، شف !

فسحب ابو محمد ملقط النار وهجم عليه :

- يا ابن الجرو ، اذا لم اخبر الطروسي اضربي بنعلك .

- طيب اخبره !!

٧

علا الصباح بين بحارة قدري الجانودي فجأة في مقهى الطروسي .

كانوا يجلسون في الزاوية ويقتسمون آفلة بهدوء ، ثم اختلفوا وهكذا بدأت المعركة .

لم يتحرك ابو محمد من مكانه وراء الدكة . ذلك انه لا يستطيع تفريقهم ، وليس مستعدا ان يتلقى ضربة على راسه او كتفيه ، ثم ان الطروسي ، وهذا هو المهم ، اوصاه الا يتدخل ، لان هذه المشاجرات يومية ، فالبحارة يبدأون باقتسام آفلة في البحر ، ثم يكملون الحساب على الشاطئ ، ويصفونه في المقهى ، ويتعاركون لانفسه الاسباب ، ثم يتصافون ويعودون الى الصيد والعراك مرة اخرى .

وكانت مشاجرات البحارة تقع في غياب رياسهم غالبا ، اما بالنسبة لقدري الجانودي فان غيابه وحضوره سيان ، فهو يحب عراك البحارة ، ويعتبر عراكلهم ، في غير اوقات الصيد ، ضربا من تزجية الوقت ، وهو الى هذا ، يعلم ان الزعيمسق والشنائم هي بضاعة مثل هذه المناسبات ، وحين توضع امامه التاركيلة ويمسك بالنربيش يستسلم الى بلادة جسدية يصعب عليه معها ان يقلق او يثور ، ثم انه يرغب في ان تغلو الضجة حوله وان يتصايح الآخرون ، فهذا يتيح له ان يعلق ، بين سحبتين من التاركيلة ، على المشكلة موضوع الخصام ، وحين يفعل ذلك لا يحسم الخلاف ، بل يطلق كلاما لا يعطي فيه الحق لاحد ، ويبدو متفرجا اكثر منه ريسا يتعارك بحارته امامه .

فاتخذ ابو محمد وهز الملقط مهددا ، وتضاحك البحارة ،
وبدا المتشاجرون بالتفاهم . قلما ان هذا كل شيء ، قال ابو
محمد متابعا تحذيراتة :

- يا اوباش ، لا اشتهي الا ان تعملوها والطروسي داخل .

ثم وجه اليهم هذا السؤال :

- لماذا لا تجربون رجولتكم امامه ؟

واجابه ايسهم راسا :

- اذا داس انسان على رجلي طبقت اضلاعه ولو كان

ابن السماء !

- فشرت !

- انا ؟

- اي اتت ، طظ . . .

سحب الملقط ثانية ، فضحك الجميع وقام اليه البحار
فاتحضنه ورفع عن الارض ، وهلل احمد لهذه الحركة وراح
ابو محمد يصيح :

- اتركني هه ، اتركني والا شويت نعمتك من الضرب .

ولكن البحار حمله الى موضعه من الدكة ، وظل الجميع
يمازحونه ويسمعون الى شتائمه كأنها مدائح !

واستمر يصيح :

- انا قلت لكم الف مرة لا تقسموا الفلة في المقهى ، لا

ياتيني وجع الراس الا من وراء حساباتكم ، هاتوا دينتكم
وروحوا عني ، بحارتك ياريس قدرني لا ياتيني منهم الا البلاء .

- وبحارة غيري ؟ اغنتيتم من ورائهم ؟ (ملتفتا الى

بحارته) اسمعوا ما يقوله ابو محمد ، انا ما عدت اتساهل
يا شباب ! لا اريد ان يعيرني احد فيكم ، سأقسم الفلة في
السوق ، وكل واحد يذهب في حال سبيله بعد اليوم .

- هذا هو الصحيح ، بحارتك ما اراد .

فصاح البحارة هازئين وقد جلسوا يلعبون الورق :

« هات ركب (١) . . خلصنا »

- لا اركب ، هاتوا ، ادفخوا ! ديونكم وصلت للسقف .

- منتك على حالك ، ركب !

- هذه اخر مرة هه ، كل واحد يمد يده الى جيبه .

- قلنا لك ركب ، اي العمى ما خلصنا !؟

- انا لا اركب الا للذي يكفله ريسه او يدفع عنه ، القهوة

لها ثمن ما من عند امي .

- اف كلامك كثير ابو محمد اليوم ، بالغ فنوغراف ؟

قالها احمد وهو يهرش براسه ، فشتمه ابو محمد ،

وركب له مع ذلك ، ثم شده من اذنه وقال :

- لا فائدة ، ابن كلب !

وصفق الرئيس قدرني الجانودي طالبا « بصة » للشاركية

ثم قال :

- اتركونا من لعنة اللعب ياه ، خبرونا الى اي جهة

راح الاولاد اليوم .

قال ابو فضل :

- الله اعلم ، الرحموني راح الى صيد « المرمور »

والاولاد « جونوا » ، سيقضون اليوم في البحر ، الدنيا

« غليظة » .

جاء صوت ابو محمد من وراء الدكة :

- لا تفركم غليظة شباط ، الطروسي قال : الدنيا

« فرتونة » والريح « شلوق » بعد العصر .

قال الجانودي :

- ما اظن ، الطقس حلو .

فرد ابو محمد :

- الطقس حلو صحيح ، ولكن شباط غدار ، الطروسي . .

(١) التركيب في لغة رواد المقاهي الشعبية يعني تقديم مشروب جديد

يدفع ثمنه الذي يخسر اللعب .

فانبرى له الجانودي :

- يعني كلمة الطروسي نزلت من السماء!؟

- نزلت واكثر!؟

- استغفر الله ، هذا كفر يا عم ابو محمد .

- كفر او غير كفر ، انا لا اعرف بالطقس ، مثل ما

سمعت قلت ..

فنزع الجانودي نريش الناركيلة من قمه وقال :

- كلامك على راسي ، ولكن لا تجادل بالمحسوس ،

الطقس حلو اليوم ، شف الشمس .

وعلق بحار على هذا الكلام وقد التفت الى المتحدثين

ريشما يتم خلط الورق :

- صحو او مطر ، هذه حياة البحر ، المسلم هو الله .

واجمع البحارة على تصويب رايه :

- لا شك ، المسلم هو الله .

وعلا صوت احمد صائحا :

- ابو محمد ركب ، صار ثلاثة !

قال ابو محمد :

- خلاص هاتوا مصاري ، مدوا ايديكم الى جيوبكم

(موجهها الكلام الى احمد) وانت يا حيوان ، قم فاشتر الناركيلة

التي كسرتها قبل ما يرجع الطروسي ، اللعب لا ينتهي ، لكن

الطروسي راح يكون في المقهى بعد الظهر .

وقال ابو فضل ناصحا ومتعنيا الخلاص من ضجة اللعب:

- قم يا احمد ، لا تجلب تنا وجع الراس يا ابني .

فتمتم احمد بكلمات غير مسموعة ولم يتحرك ، وقال في

نفسه : « الطروسي الآن في البحر ، ولن يعود قبل المساء ،

والى المساء يفرجها المولى » .

الا ان ابا محمد جاء وهمس في اذنه قائلا « قم هات

الناركيلة ، الطروسي في حي الرمل وليس في البحر » .

٨

كان حي الرمل في الجهة الشمالية الشرقية من اللاذقية، وفي هذا الحي قرب السجن ، كانت تسكن ام حسن ، والى جانب بيتها بيوت قليلة متناثرة ، بناها اناس جريئون ، فكانت النواة الاولى للحي الكبير فيما بعد .

وفي منطقة الرمل هذه يقوم مبنيان متميزان ومكروهان من سكان المدينة الذين يتنزهون على الشاطئ . كانوا يصلون في نزهاتهم الى هذه النقطة ويعودون ، كأنها الحد الفاصل بين المدينة والريف ، ويقول الطلاب وهم يمضفون المبادئ الاولى لدروس الاخلاق والاجتماع : (انظروا المتناقضات ، هنا العبودية .. وهناك الحرية) يقولونها ويشيرون باصابعهم الى السجن والى المبني انعام ، ويتركون، بعد ذلك ، لمخيلاتهم ان ترسم صورة الحياة في المكائين .

وكان السجناء يتعلقون بالنوافذ العالية في اتقوا ويش ، ويضعون وجوههم على قضبان الحديد وينظرون الى بيت البنات الاحمر نظرات شرهة تومض بالشهوة والحسرة معا ، فاذا خرجت بنت الى السطح صفروا لها او لوحوا بالمناديل مطلقين في اثرها كلمات داعرة ، فتجيبهم البنت بكلمات اكثر دعارة ، او تهرب منهم الى الداخل .

وكانت موسيقى صاخبة واغان بلدية تتصاعد من الفونوغرافات ، وتسمع احيانا بعض الاغاني التركية . اما الاغنية المفضلة فكانت لفريد الاطرش « يا ريتني طير لاطير

حوالك « وقد تملأ الأصوات المرعبة مرافقة للفونوغرافات ، وتظهر البنات في التوافد بالثياب الداخلية ، أو يتخطون امام الابواب ، وتنفث رائحة الخمر على السجن قيتنشقتها السجناء ويعلقون قائلين « اذا خرجنا غدا فلا بد ان نزور جاراتنا زيارة تعارف وسلام ! »

فيقول المحكومون منهم لمدد طويلة :

— اذكرونا اذن وانتم تتنعمون !

ويجب الذين انتهت احكامهم :

— لا تفتكروا ، دفعة الحساب الاولى على اسمكم ، ويا بخت التي تقع بين ايدينا ، نحن ياعم لنا ثارات .. ارسلوا حريصا ولا توصوه .

وكثيرا ما تعالت ، في اوصاف الليالي ، اصوات الممارك في المبغى ، فيفريق السجناء من نومهم صائحين :

— علقت عند جاراتنا يا شباب ، لن يتركونا ننام . في النهار عذاب وفي الليل عذاب ، من هو الشيطان الذي بنى السجن بجانب المبغى ؟ يبدو انه ابن زنى : من الخير ان البيوت بعيدة ، والا كانت النساء فحشت اكثر من الرجال .

وكانت البيوت تقع وراء السجن ، نحو الشمال ، فلا تطل على هذا المحل ولا تراه ، ورغم هذا كان السكن قليلا في المنطقة ، يزحف اليها ببطء .

ولقد فكرت ام حسن كثيرا « لماذا اسكنني الطروسي هنا ؟ هل لانني لست زوجته ؟ هل يريد ان يخفي علاقته بي عن الناس ؟ »

وصارحته بذلك مرة فاجابها :

— كلما ابتعد الانسان عن المدينة كان ذلك افضل . لا

احب البيوت المتلاصقة وكثرة الازدحام .

كان يريد ان يعيش على هواه في كل شيء ، حتى في

نوع البيت والمرأة ، وقد اعتادت ام حسن طباعه هذه ، واطمأنت الى ان المسألة مسألة مزاج ، واستشارت زكية فقالت لها :

— الوحدة عبادة . ابتعدي عن الناس بقدر ما استطعت . يكفيك الطروسي ومجلسه . لو كان عندي رجل مثله لعشت معه على رأس جبل .

وأمنت بكلامها . بيد ان الفراغ اترهيب الذي تستشعره يجب ان يملأ فماذا تفعل ؟ هل تزجي وقتها بالزينة ؟ تكفيها ساعة لذلك ، بالقراءة ؟ لا تعرف ان تقرا . بالشغل ؟ ليس لديها شغل ، فلم يبق امامها الا ان تنام ، ولم تكن تقصر .

ثم اصبح لها ، مع الايام ، بعض التسليلات : لعب الورق مع زكية ، وسماع الراديو ، وتحضير المازة للطروسي ، وانتظار مجيئه وهي على ما يريد لها من عطر وثياب . وقد كانت هذه الاشياء تستغرق بعض وقتها ، ويظل لديها وقت كثير للتفكير بماضيها ومستقبلها على السواء .

وكانت اليوم في ثوب مزهر ، ومن شعرها وصدرها الكاشف عن نهديها يتضوع عطر « الريف دور » ، وفي غرفة النوم خوان عليه زجاجة عرق وقدحان ومزهريه وابريق ماء .

لقد عرفت ، منذ ليلة امس ، ان الطروسي سيأتي اليوم ، وسيكون عندها قبل الظهر ، فيشرب ويتغذى وينام . وقد استعدت هي للشرب والافداء .. والنوم ايضا .

وجاء الطروسي متأخرا عن مواعده المعتاد . كان هادئ الخطوات ، كان هذا التأخير ليس مما يحسب له حساب . سألته :

— لماذا تأخرت ؟

— كنا مشغولين بانزال مركب .

— وكيف جئت وتركت اصحابك ؟

— عزموني على الغداء فاعتذرت، قلت لهم سأذهب لانزال مركبي انا ايضا .

وضحك وهو يأخذها الى قربه ، فمدت يدها البيضاء التي وسوست فيها الاساور وطوقت رقبتة وقالت :

— وهل تستطيع انزال مركبين في يوم واحد ؟

— اذا لم تعاكسني الريح !

— واذا عاكسك الخام !؟

واجابها وهو يهصرها بين ذراعيه :

— هذه شغلة الرئيس !

ابتسمت زكية من المطبخ وهي تنظر من خصاص الباب الى المشهد المائل امامها، ثم تنحنت ودخلت حاملة صحيفة المازة ، فنأى الطروسي عن ام حسن ، وجلس جلسة طبيعية امام العجوز .

الا ان ام حسن لم تكف عن مداعباتها . قالت تلاففه :

— كيف شفت المازة ؟

— اي منها ، هذه ام هذه ؟

ومد يده الى شفيتها .

— لا ، هذه (واشارت الى الخوان)

— عظيمة ، الله يعطيك العافية . (ثم اضاف) من

انجبل ولا تكون مازتك عظيمة ؟ ما معقول ، الجبل ابوالكيف ،

اما اشتقت الى بلدك ؟ سنذهب اليه قريبا .

غيرت الحديث بسرعة . .

انها تحب ان تذكر بلدها . . وهي تذكره كثيرا ، ولكن

ليس الان . . « هذا لطف منه » ولكنه لطف في غير وقته ،

فهي لا تريد ان تذكر ، في هذه اللحظة ، الاله ، لا تريد ان تعود

الى بلدها ، ولماذا يريد ان يعود ؟ الكي يتركها ؟

رفعت الكأس وشربت . انها تجابه افكارها السود

بالشراب . يكفيها الان انها معه ، وحين تكون كذلك تفرق مخاوفها في بثر اللذة التي تمتع منها .

ومن ثم اكلا ، وناما ، فلما افاق الطروسي وجد غيوما متفرقة في السماء ، وريحا نهب من الغرب ، فhez براسه وقال « صدق ظني ، الليلة عاصفة ، يا ترى رجع الرحموني والاولاد ؟ »

وارتدى ثيابه وترك ام حسن وعاد . .

على ان الدين في الغاب لا يرون غضب الطبيعة وهو
يتجمع من فوقهم ومن حولهم ، تكون الاشجار قد حجبت عنهم
حقيقة الاشياء ، فيخدعهم هدوء الطبيعة عما وراءه، ويفتحون
عيونهم على حين غرة فاذا العاصفة تطبق عليهم ، وكف الغضب
تعصف بقشورهم ، وعندئذ يولولون ويركضون ، لكنهم
يصبحون في قبضة النار كما يصبح الطير في كف النسر . .
لا مفر !

وشان الدين في البحر شأن الدين في الغاب : يمضون
على سطح الماء حتى يقلب لهم ظهره ، واذا ذلك يدركون ان
الهدوء الذي ران من حولهم كان هدوءا خادعا .

كانت الشمس مشرقة فوق شخورة الرحومني المتهادية
على سطح اليم في طريقها الى مناطق الصيد، وكان شراعها
الايض منشورا على الصارية ، تنفخ فيه الريح فتندفع
الشخورة في مسراها بعيدا عن الشاطئ ، والمدري ملقى
الى جانبها والمرسة تستريح في المؤخرة ، والفلوكة الصغيرة
تربض على الظهر وفي قلبها المجاذيف ، والرحومني وبحارته
يتحدثون ويستجمعون .

ان لديهم وقتا ما يزال ليشرعوا بالعمل ، وقد طعموا
في الاصيل وجلسوا يدخلون ويتندرون ، بينما امسك احدهم
بالدفة يوجهها في الاتجاه المقصود .

كانوا خمسة ، ومعهم شباك ضيقة الحبك لاصطياد
« السلطان ابراهيم » و« المرمور » وكان عليهم ان يذهبوا
بضعة كيلومترات في البحر ليبلفوا المنطقسة ويشرعوا
بالصيد ليلا .

وكان الرحومني يتحدث عن الدين عملوا معه في مركبه
« السعد » . وقد توقف عند ذكر جميل سعود من جزيرة
ارواد فقال :

— انا اول من اخذه في رحلة الى مرسين ، وقد تدرب

كانت شخورة الرحومني تتجه الى مناطق صيد
« المرمور » . لم تفته الغيمة التي عند الافق ، فهو ايضا ريس
مجرب معروف بالدقة وبعد النظر، الا انه لم يقدر ان شيئا
غير عادي سيحدث قبل عودته .

ثم انه اقلع ، فهل يضيع يومه سدى ويعود صفرا ليدين
بغير صيد ؟ وخبرات الاولاد ؟ واجور البحارة ؟ والاطمئنان ،
بعد ، الى اخوة البحر ؟ كل ذلك كان له في نفسه اثر من
نقة ، فمضى هكذا الى امام على بركة الله .

لكن العاصفة حين تحدث لا ترسل انذارا الى الناس .
هي نفسها لا تدري انها ستحدث ، فمن قلب الهدوء ينفجر
شيء ما بالغضب الاكبر ، وتشور عناصر الطبيعة على بعضها
في قتال لا رحمة فيه ، ويصبح الناس عندئذ ، اطفالا عاجزين
تسحقهم رحي الحرب المندلعة بين اعداء غير منظورين .

ان ثارات الانتقام لا تتراءى في النظرات دائما بل تكمن
في الاعماق ، وتتجمع في موقد النار عودا بعد عود ثم تنفجح
الشرارة فيشتعل الغاب، وتنفجر براكين الحقد في كل مكان،
ويحدث فجأة الحريق العظيم . وكذلك هي العاصفة : تتجمع
عناصرها في كبت شديد ، وينتشر لهما فوق الارض وعلى
سطح الماء ، ويظل الهدوء ، مع ذلك مخيما ، وتظل الشمس
مشرقة ، ثم فجأة ينطفئ النور، وتسود الظلمة ، ويقفئ
الغضب ، وتندلع من صدر الارض والسماء ثورة الطبيعة التي
هي ام الثورات .

بسرعة واصبح بحارا اليوم .

— اصبح بحارا وصاحب مركب .

— الله الموفق .

— بيت سعود نبحوا يا ريس .

— من جد وجد . تعبوا وواجهوا الموت مرات حتى

صاروا . اسألوني انا عنهم ، هذا جميل حسب يوما في الاموات ، لكن الاعمار بيد الله .

وتنهذ كمن يستعد لرواية واقعة بعيدة ومؤثرة فقال :

« بعد ما تمرن معي سنتين ، اشتغل هو واخوه في

مركب بيت حمرا ، ، وفي سفرة بين الاسكندرية وارواد ، صادفتهم نوية هددتهم بالفرق .

« في تلك الايام لم تكن المراكب تسير بالموتورات . كان

الخام هو الموتور (وصمت قليلا واردف) آه من الخام ، حلو

ومر ، حلو اذا واتت الريح ومر اذا عاكست . وقد عاكست

الريح اولاد سعود وواجهتهم امواج مثل الجبال بعد ما خرجوا من ارواد باتجاه بيروت .

« كانت نوية شديدة لم يروا مثلها في حياتهم ، وكان على

المركب حوالي عشرة بحارة ، وريسه مصطفى ابن سعود

الكبير ومعه اخوه جميل ، وجميع البحارة من ارواد ، وجميعهم

مثل الاخوة ، لكن في ساعة الشدة تضيق انطاسة ، لا يعرف

الريس اين يقف بحارته ، ولا البحارة كيف يتفاهمون مع

ريسهم ، وتختلط الاصوات بعضها ببعض ، والشاطر من

يتمسك بما يجده بجانبه ، كي لا تقذف به الريح الى البحر .

« قلت كانت الامواج كالجبال ، والمركب يضطرب فيها

مثل طاسة ، فيعلو الى القمة ويهبط الى القاع ، والبحارة

ينضحون الماء ، وينزلون الخام ويبتهلون الى الله .

وقاطعه البحار الجالس الى الدفة :

— مثل العادة يا ريس !

وضحك البحارة ...

— تماما ، اخلاق البحارة لا تتغير يا ابني . صلاة في

وقت الشدة ، وكفر في وقت الرخاء . في البحر يسجدون لله

ويزقون قمصانهم ويندرون الندور ، وعلى آلبر يحرقون الدين

كما يحرقون ورق السيكرات . ما في الكون مثل البحار ،

مؤمن اكثر من ناسك في وقت ، وكافر اكثر من ملحد في وقت ،

وحياته تعب في تعب ، ولكن جربوا ان تدلوني على بحار ترك

البحر ؟ اين هو ؟ اين هذا البحار : البحر قطعة

من حياتنا . للفلاح ارضه ، وللعامل معمله ، وللبحار مأوه ،

هذا (وأشار الى البحر) ارضنا ، هنا نحيا وهنا نموت ،

والذي يستطيع ان يتخلص من هذه « السوسة » اعسده

صاحب ارادة ، ما رأيكم ؟

اجاب البحارة وقد اثرت فيهم كلماته :

— صدقت يا ريس ، هذه حياتنا .

وارسل هو هذه الملاحظة :

— بييا الى اليمين يا شمسي ، خليك مع الريح .

وادار شمسي الدفة قليلا ، فبدأت الشخورة بالانعطاف

وتابع هو قصته :

« قلت لكم ان الامواج كانت كالجبال ، وكان هم الريس

ان يخلص المركب من الفرق ، لذلك أنزل الخام ، وغير الاتجاه

في دورة كبيرة ، وعاد الى ارواد ، وبدأت الريح تدفع المركب

كسهم من قوس ، والريس يصيح :

« خلصنا باذن الله ، لا تخفوا من السرعة ، نحن مع

الريح والعاصفة ستهدا ، انظروا الى فوق !

« نظر البحارة الى فوق فوجدوا انقشاعا في الجو .

العاصفة تمر ، وقد اوشكت ان تتركهم وراها ، فعاد اليهم

الامل ، والامل يعود ، لمجرد ان الريس موجود ، لمجرد انه

يقف على الدفة ، لمجرد ان اعصابه هادئة . ما اكثر ما يحب

البحارة رينسهم الشجاع يا اولاد ، وما اشد ما يشقون به .

قال بحار :

— لكنهم لا يحب بعضهم بعضا .

وقال آخر :

— المسألة عداوة كار ..

اسكتهم الرحموني :

— لا تقولوا هذا . البحارة جسم واحد وروح واحدة ولا

عبرة لما يجري بيننا على البر ، نحن عائلة واحدة مهما اختلفنا ، ولو كان البحار عدو البحار لا يتركه اذا رآه في خطر . البحر فروسية ، انا هكذا افهم هذه الصنعة الملعونة ، ولكن ظروف البحر غير ظروف البر ، تأتينا ساعات يتخلى فيها الاخ عن اخيه . يبكي ، ولكن ما نفع البكاء ؟ اذا كان لا بد ان يموت الاخ فالأفضل ان يسلم اخوه ، واذا كان لا بد ان يموت الاثنان فلا موجب لان يموت الكل . البحر غدار لا يرحم ، والرجل من يضبط اعصابه ويسلم أمره لله ، وهذا ما فعله ابن سمود ، فعندما ادار الدفة وانطلق بالمركب في طريق العودة ، سقط اخوه في البحر .

سأل البحارة :

— كيف سقط ؟

فرفع الرحموني يده وقال :

— لا تسألوني ، لا اذكر ، ولا اعرف . جميل نفسه لا

يعرف ، اذا وقع القدر عمي البصر ، ما احس الا وهو في طيات الموج ، ويا له من موج ! ويا لها من ساعة ! جميل يصرخ من البحر « يا خيي . » ومصطفى يجيب ، من المركب « يا خيي ! » والبحارة يتراکضون ، ويلقون له الاخشاب والاطارات ، ولكن لا الاخشاب ولا الاطارات وصلت اليه . المركب يسير بسرعة الريح ، وفي كل لحظة يتعد عنه عشرات الامتار ، وهو يصارع الموج ويقاوم الريح والمطر والليل ، والعاصفة ترمجر

وصوته يختنق ويضيع .

« امر مصطفى بانزال قارب النجاة ، وقال انه سينزل

وحده فيه ، فرفض البحارة الفكرة ، وركض ابو ياسين ، اكبرهم سنا ، فاحتضنه ونصحه :

— لا يا مصطفى ، لا تفعل يا ابني ، ارحم شبابك ، اذا

فجعت امك باخيك فلا تفجعهما فيك ، واذا رفضت نصيحتي اخذت القيادة منك ، ارواحنا بين يديك فلا تضيع نفسك وتضيعنا .

« والقي مصطفى رأسه على صدر ابي ياسين وبكى .

الاخ حلو يا شباب ، لو كان الانسان اجبن جبان ، وكان اخوه

في ضيق القي بنفسه الى الهلاك لاجله . كان البحارة لا

يسمعون الا صفير الريح ، ولكن مصطفى انتفض وصاح :

« اسمعوا صوته ! اسمعوه ! مستحيل اتركه ، خلوني انزل ،

ساعدوني يا شباب ، ساعدوني كرامة لخاطري ، يا ابو

ياسين خذ القيادة وخفف سرعة المركب واتجه الى الشمال . »

« كان البحارة يتراکضون على سطح المركب في زعر

وهياج وتائر ، وثيابهم تلتصق على اجسامهم من المطر ،

والمركب يتمايل ويتقلب ومياه البحر تجري بين اقدام البحارة ،

والريح تزار بين الخام وانصواري ، ومصطفى يقول انه يسمع

صوت اخيه ، ولم يكن هناك صوت غير صوت الريح ، ومع

ذلك اخذ يصرخ : « يا جميل ، يا خيي ، لا تخف جئتك ، جئتك

بالتقارب . »

« وانزلوا له القارب يا اولاد . . انزلوه مرغمين ، وتطوع

بحار للنزول معه . كان تصرف مصطفى غريبا لا يليق برئيس ،

ولكن الاخ حلو ، وقد فقد مصطفى شعوره بالخطر ، ولم يعد

يحسب حساب الموت ، وكان من المستحيل امساكه بعد ان

هدد بالقاء نفسه في البحر . لكن القارب ما كاد يلامس الماء

حتى لطمه الموج وقذفه على بطن المركب ، وقذفه ثانية وثالثة

حتى قلبه ، وبدا ان الريح ستمزقه ، وانه سيظل يرتطم بالركب حتى يتحطم او يحطمه ، فقرروا رفعه ، وكان الموج اسرع منهم فكسر جنبه وانقطع الجبل في مقدمته ، وعندئذ اسرع بحار وقطع انجبل من الطرف الآخر ، فراح القارب يطير كالريشة ، ويتقلب على بطنه وظهره حتى اختفى وضاع ، وضاع معه كل امل ، واستسلم مصطفى لحكم القدر ، وعاد المركب يتابع طريقه الى ارواد .

« وفي ضحى اليوم الثاني تجمع اهالي الجزيرة على الشاطئ .. راوا المركب يعود من بعيد ، فعرفوا ان عودته اضطرارية ، وان حادثا وقع له .

« كان المركب يقترب بطيئا جدا ، فقد هدأت الريح ، وترك العاصفة وراه ، وخنق بحارته العلم دلالة الحزن ، فكانت هذه الاشارة كافية لاعلام اهل الجزيرة ان على ظهر المركب غريقا .

« وكان البحارة يقفون على جانبيه بغير حراك ، ومصطفى يقف قرب الدفة وينظر الى الشاطئ وفي عينيه حزن شديد ، وآثار المصيبة ظاهرة عليه بشكل لا يمكن اخفاؤه .

« توجه ريس الميناء في زورق الحكومة ، ورجال الجمارك في زورق الجمرك ، ونزل البحارة في الفلاك ، واحاطوا بالمركب العائد كأنهم يحيطون بنعش ، ودخلوا به هكذا الى الميناء ، وانزلوا مصطفى والبحارة ونقلوهم الى بيوتهم ، وبكت النساء ، واطرق الرجال ، وقرأوا انفاحة وقالوا في سرانهم « الله يرحمك يا جميل » وتساءلوا « كيف صار ؟ كيف غرق ؟ » .

« وقمنا كلنا ، وكنت في المقهى ، الى بيت سعود ، ناخذ بخاطرهم ونعزيهم ، وسرنا بغير كلام ، وكل واحد منا يفكر بنفسه ويذكر مصيره ومصير اولاده . وما قطعنا ٢٠٠ متر حتى تعالت الاصوات من الميناء تنادينا للرجع ، فتلفتنا وراءنا وتساءلنا عما حدث ، فابلفونا ان مركب محمد دقماق وصل

واطلق رصاصتين قبل الاقتراب من الميناء . فقلنا في سرنا « خير ان شاء الله » وابتهلنا الى الله ان يجعل العاقبة على خير ، وان لا يكون وراء اطلاق الرصاص خبر سيء ، ولا تفجع الجزيرة فجيعتين في يوم واحد ، وسألنا عن العلم فقالوا « منصوب » ، واسرعنا الى القوارب ونزلنا البحر من جديد ، وكانت هذه المرة بشارة خير ، فقد عاد جميل على مركب بيت دقماق ، ولكنه عاد بين الموت والحياة . ودبت الفرحة في الجزيرة . وزغردت النساء ، وحتى امرأة رئيس الميناء نفسها زغردت قسما بالله ، وتراكض الجميع الى بيت سعود ليلفوهم النبأ فخرج مصطفى حافيا ، وكان يبكي من الفرح ويصيح « يا خيي ، يا جميل ، الحمد لله على سلامتك ، الحمد لله ، الحمد لله » ويقبل الارض ورئيس الميناء يمسكه من يمينه ، والافراح قامت على الشاطئ ، وخرجت الجزيرة كلها ، ورفع البحارة العلم على مركب بيت سعود من جديد ، وراحوا يوزعون الصدقات . وكان الطبيب قد نزل الى المركب ، واسعف جميل ، ثم حملناه وانزلناه ونحن نهنئ مصطفى ونشكر الله ، ونستمع الى محمد دقماق يحكي لنا كيف وجد جميل على الرmq الاخير ، وكيف استطاع انقاذه باعجوبة ، فقد رآه قبل ان يقترب اليه ، وكان الصباح في اول شروقه ، والعاصفة هدأت ، وجميل الذي ربيته ودربته معي حتى صار مثل الدرفين يقاوم الموج مقاومة الابطال حتى نجا من الموت .

والتفت الرحموني الى بحارته وقال : « يا اولاد انا لا انسى ، مهما عشت ، هذا اليوم ، ما احلى الفرحة بعد حزن ! » ونظر في الجو .. القيمة سوداء تكبر ، لكنه لم يبالي بها ، فلا بد من الصيد ، وعلى الشباب ان يستعدوا . واستعد البحارة ..

واستعدت العاصفة ، وارسلت اولي تذرهما عصفه قوية هبت من الغرب ، تبعتها ريح اهتاج لها البحر .

خرج ابو حميد اذليله من مخبئه في بيت اسماعيل كوسا
بعد صلاة العشاء . كان قد مضى عليه زمن وهو متوار في حي
الشحادين ، وكان يسأل اسماعيل كوسا حين يكون في بيته :
- خي اسماعيل ، كتبت الجرائد عني ؟
- لا يا ابو حميد .
ويفكر ابو حميد ويقول :
- يا للعجب ، كتبت عن الكل الا عني ، يا ترى عملوها
بقصد ؟
- من يدري ؟
- في رايك ان الانكليز منعوا نشر الاسم ؟
- ربما .
- يا اولاد القاهرة .. وما هي اخبار الجماعة ؟
- جماعتك؟ بعضهم في « المية ومية » وبعضهم مختبئون،
والاكثرية صارت مع الكتلة .
- والكتلة تسلمت الحكم ؟
- واخذت الاستقلال .
- مرحبا استقلال !
- ما عاجبك ؟
- لا ، الاستقلال الحقيقي بعد طلوع الفرنسيين والانكليز
من البلاد .
- بعد انتهاء الحرب سيطلعون .
- بالوعد يا كمون ..

- ستري ..
- نعم ساري .. امس كنت في المدينة ورأيت ..
سمعت اقوال الناس بحق الكتلة .

كان ابو حميد يخرج احيانا من الشحادين ، ويطلق لسانه
السليط فلا تلبث الشرطة ان تسأل عنه ، ولا يلبث ان يعود
الى الاختباء . ولقد جاءه اليوم من يقول له ان نديم مظهر
يسأل عنه ، ققرر الخروج ، واخبر اسماعيل بذلك ، فعندهذا
الى تخويفه قائلا :
- واذا مسكوك ؟

- فشروا (وبعد وقفة) واذا مسكوني ؟ انا لا اخاف
السجن ، وعلى كل حال سيسألونني: هل تكتب وتقرأ ؟ فأقول
لا ، وعندئذ يطلقون سراحي او يرسلونني الى المعتقل .
- الى المعتقل ؟
- آي ، الى المعتقل .

- ما أظن ، المعتقل للزعماء ، اما انت فيرسلونك الى
السجن . انت « باش بزق » .
- انا من رجالهم .

- الجماعة اصبحوا بلا رجال . اقلية لا يهتم بها الا
انت وبضعة اشخاص امثالك . هتلر راح يا ابو حميد ،
والناس تفيروا .

احتد ابو حميد :
- الذي تغير هو انت وجماعتك ، اما انا فساظل مع
هتلر ولو انكسر .

ضحك اسماعيل كوسا لئرفزة ابي حميد ، وصفق طالبا
القهوة ليخفف من ثورته ، ثم القى له بهذا التبا :
- سمعت ؟ المحافظ راح الى الشام .
- مع السلامة .

– والمرشد لا يجرؤ على الخروج من وكرة. هذه هي اعمال جماعتي.

– جماعتك ما عملت اكثر من غيرها . الشغل للشعب .

– ولكن الزعماء منها .

– اي حط بالخرج .

– ستندم على هذا الكلام يا ابو حميد .

فهاج ابو حميد وقال :

– اندم ؟ على اي شيء ؟ اذا كانوا سيعدمونا فلا

تخلصونا ، اي فلقطنا . الشعب يركض وجماعتك تتصدره ، اي على هذه الذقن ؟

– اذا سجنوك غدا نسفع صياحك .

– انا ، فشروا ، ولك صرمايتي (وضرب على نعله) فلا

تهتز . السجن للرجال ، وبيننا وبينكم يوم .. بخاطرك.

حاول ان يمنعه من الخروج فما استطاع . كان ابو

حميد يهتز لفرط تأثره ، وبعد ان شرب القهوة انحدر الى

البحر عن طريق الكنيسة المعلقة مارا بحي الموارنة فكنيسة

اللاتين فالميناء ، وكان يخب ويسرع ويبطئ ويفكر بالطروسي:

« ترى هل هو في المقهى » ؟

خطر له ان يقوم بجولة على الشاطيء . كان الظلام كفيلا

بحجبه عن العيون ، وقد راق له ان يعرف الناس ولا يعرفونه ،

وان يملأ رئتيه بالهواء ، ويشبع من السير بعد ان ظل مدة

حبسا في بيته او في غرفة ارضية من بيت اسماعيل كوسا .

لشد ما حن وهو في مخبئه الى الحياة ، الى المقاهي

و« زبائن الليل » ! . ولشد ما كره البيت الذي اظلم في عينيه

رغم رحابته وضوئه . كان يدور بين الجدران الاربعة

ويستقيد لهجة مذياع برلين وصوته وشتائه فتنبسط نفسه ،

او ينظر عبر زجاج النافذة الى صحن السدار حيث تدرج

الحمامات وتتطاير ، وتحط عصافير الدوري فتلقط الحب ،

وتخبط فرس اسماعيل كوسا رجلها في ارض الياخور ، وتمد

راسها من الباب الخشبي ، وتنظر اليه والى الحمامات

والعصافير ، وتترقب العلف بعينين نهمتين تتجلى فيهما

رغائب حيوان جائع .

ولقد شعر ابو حميد وهو في السُحادين انه في حصن ،

وتمنى لو كان يقرأ لكي يطالع الصحف والمجلات . ولقد طلب

من اسماعيل مصحفا فجاءه به ، وجعل ينظر فيه ويجود

مما حفظ من آيات « اقرا باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان

من علق ، اقرا وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان

ما لم يعلم » .

اثنان عتب عليهما وهو في مخبئه : الطروسي ومصطفى

خادم الجامع . وكان يقول « ولك الطروسي فهمنا عذره ،

انسان تصبح وتسي فتراه على البحر ، اما مصطفى ؟ » .

ويسال اسماعيل كوسا فيقول له :

– الذي يغيب عن العين ينساه القلب . جماعتك نسوك

يا ابا حميد .

– باطل اسماعيل . الغائب عذره معه ، وغدا نخرج

ونلقاهم بخير ، اشتقنا ، اي وآله اشتقنا .

انهى دورته على البحر ، ودخل حديقة المنشية وتوقف

عند عين الماء فيها ، ثم سار نحو المقهى مجتازا الصخور ،

وقبل ان يصل اليه فكر برجال الامن وتساءل : « من يضمن ان

لا يكون واحد منهم في المقهى ؟ » .

لطى عند الصخرة وانتظر خروج ابي محمد ليساله .

قال في سره « لماذا نرمي بانفسنا الى التهلكة ؟ » .

ومضت دقيقة ، ثم اخرى ، وثالثة .. وخامسة ؛ ولم

يخرج احد . كان الطقس قد انقلب ، وما قاله الطروسي في

الصباح قد تحقق في المساء ، فتكاثفت الغيوم حتى حجبت

وجه السماء ، وعصفت ريح غربية قوية ، وتدافع موج هائج فوق الصخور ، واقفرت الميناء واختبأت فيها المراكب والشخاتير .

وفتح باب المقهى فجأة ووقف فيه رجل لم يعرفه احد . وانتظر الرجل لحظة ، ثم اشار الى الطروسي بسبابته : اخرج .

لو ان خمسة تصدوا للمقهى ، ولو ان مخفر الشرطة هاجمه لما اضطرب الطروسي كما اضطرب لراى الرجل المجهول المثلث ، يقف بين الظلمة ومشارف النور ، ويشير اليه بسبابته ان يخرج . لقد قفزت الى مخيلته صورة ابن برو فورا ، فزعق :

— من انت ؟ ادخل !

كان صوته حادا ، يرتعش بالتأثر على غير عادته ، ويده اليمنى تقبض على الخيزرانة . واندفعت الريح الى انداخل واطارت اوراق اللعب ، وومض برق في الخارج وانطفأ كسهم من نار في البحر .

لم يجب الرجل بشيء . بل تراجع حتى ابتلعت الظلمة . وظل الباب مفتوحا والريح تمسك به وتهزه وترطمه بالجدار الصخري حتى اندفع الطروسي الى الخارج صائحا :

— ولك مقهى الطروسي لا يفتح يا .. سأريك كيف يكون الفلدر ، خذ ، خذ ، خذ ...

اين كانت تقع الضربات ؟ على من ؟ ماذا سيكون مصيرها ؟ ابدا لم يفكر الطروسي بشيء من هذا . كان يضرب ، يضرب بكل قوته على الشبح المتحرك امامه في الظلمة ، ويتوقع ، لدى كل ضربة ، ان يتلقى الجواب ، لكن ضرباته ظلت بغير جواب ، وقد عقدت المفاجأة لسان المضروب .

كان يدفع يديه فوق رأسه ليتقي الضربات ، ويقفز ،

ويفتح قمه فتصوت الكلمات على لسانه ، وبصعوبة استطاع ان يقول في شبه نواح :

— لا تضرب يا طروسي ، انا ابو حميد ياخي ، قتلني ، لا تضرب .

كان ابو محمد واحمد والزبائن قد تراكضوا في اثر الطروسي ، وابو محمد يصيح : يا احمد خلصه المسكين ، امسكه لنسلمه الى المخفر !

فلما سمع ابو حميد كلمة : «المخفر» احس بها موجعة اكثر من ضربات الخيزرانة ، واندفع يصيح مدعورا :

— انا ابو حميد يا شباب اقتلوني ، اقتلوني ، اقتلني يا طروسي ، اقتلني ياخي ، فداكم يا شباب !

وكما تتوقف السيارة المندفعة بسرعة وقد قفز في طريقها طفل ، كذلك توقف الطروسي مبغوتا عن الضرب ، وسس على شفتيه مقهورا ، وصاح :

— انت ابو حميد ؟ يحرق ... ولك ليش عملت هذه العملية ؟

— نصيب !

واحتضنه الطروسي وادخله المقهى وقد بلغ به التأثر حده ، وراح يلعن الشيطان ويحرقل ويسأل :

— هل جرحتك ؟ لماذا فعلت هذا ؟ لماذا لم ترد علي ؟ حسبتك ابن برو .

قال ابو حميد :

— خفت ان يكون في المقهى غرباء !

وعلق ابو محمد على ذلك وهو يسرع بقدح الماء :

— لا حول ولا قوة الا بالله .. الله لا يعطينا العافية على هذه الشغلة ، ابي اشكر ربك ما قتلك ، كنت رحت بكيس حالك ، وليش متلثم يا سيدنا ما شاء الله ؟

قال احمد :

- لانه من رجال السياسة !

وانتهرهم الطروسي :

- اتركونا من هذا العلاك ، روحوا الى اشغالكم .

ثم التفت الى ابي حميد وقال :

- اعوذ بالله من هذه الليلة .. الله يقضيها على خير ،

قلبي انبأني بالشر يا جماعة ، لا حول ولا قوة الا بالله ، ضربناه

وهو بمقام الاخ ، لا تواخذني يا ابا الحمد ، لا تواخذني على

هذه الغلطة .

فجاء صوت ابي محمد من وراء الدكة :

- الغلطة غلطته ، اي حاسب نفسه الشيخ تاج حتى

مثلتم وخائف !

فتكلم خليل العريان لأول مرة وقال :

- لا ، ما الشيخ تاج .. ابن عمه !

وقال بحار يجلس الى طاولة مجاورة :

- هذه نتيجة الشغل بالسياسة !

فصاح الطروسي :

- خاصنا هه ! بلا فلسفة وتعليقات ، اي العمى ، بدها

ذوق ، ابو محمد هات فنجانين قهوة وناركيلة ، وكل واحد

منكم يروح الى شغله ، والخبر ما يطلع خارج المقهى ، هنا

حفرنا وهنا طمرنا ، وانا من جهتي مستعد ان اقبل يده

(وانجرد الى يد ابي حميد) هات يدك ابو الحمد (قالها

ب لهجة حارة صادقة)

وحاول كثيرا فلم يعطه ابو حميد يده ، واذاك

انحنى عليه وقبل رأسه ، فتأثر ابو حميد وقام فقبل

الطروسي بدوره وهو يقول :

- باطل ابو الزهد ! حياة شرفك لو كان عندي ولد

وذبحته ما سألتك ماذا تفعل ! انت رجل وتعرف قيمة الرجال .

وظل الطروسي ، رغم ذلك ، يحوقل ، ويلعن الشيطان ،

ويطلب منه الا يؤاخذ ، شاعزا شعورا عميقا بالاسف . ثم

تأنيه الضحكة فيحبسها في حلقه ، وابو حميد يهون عليه ،

فلما رفع الكوفية ظهر جرح عارض في جانب الرأس فأصرع

ابو محمد بقليل من القهوة لقطع الدم . وسأله من جديد :

- احك لنا كيف صار الحادث بالله !

وتجمع البحارة حتى اضطر الطروسي الى القول نافذ

الصبر :

- استحيوا ، قلنا لكم اتركونا ، ما سمعتم !

وهز ابو حميد رأسه وقد راودته ضحكة وقال :

- هيك وهيك من اخت هذ الليلة . طلعلنا نسمع الاخبار

فاكلنا نصيبنا ... وممن ؟ من يد الطروسي ، لو كان غيره

كان لنا معه حساب ، اما ابو الزهد .. !

وضحك البحارة وقالوا :

- فداء هتلر !

- ولك فداء ، المهم اسمع الاخبار ، هل بيننا غرباء ؟

- لا .

- اذن هاتوا من عندكم ، حدثونا : ما هي الاخبار ؟ وهل

تشرشل بعده موجود ام سقطت عليه قنبلة ؟ (والتفت الى

الطروسي وقال بصوت يشبه الهمس) والزبائن ، اين هم ؟

- يبحثون عنك . حالة هتلر عدم ، والمحافظ راح الى

الشام ، جايينا محافظ جديد .

- اذن جماعة المانيا قتلوا ؟ (وبعد وقفة) ضربة روسيا

اثر ، هتلر غلط .

- نعم غلط ، ترك الانكليز ولحق الروس ..

- الروس ! اعوذ بالله منهم !

- الناس بدأوا يحبون الروس يا ابو حميد . يقولون

ان هتلر استعماري اكثر من تشرشل .

— لا تصدقهم ، انا اعرف الذين يقولون هذا الكلام ،
وصاحبك اسماعيل صار من هذه الزمرة ، وانت ؟ شايف
حماستك لهتلر خفيفة اليوم يا ابو الزهد ؟
— الافكار تغيرت يا ابو حميد . انكسار هتلر في روسيا
جعله يسقط في انظار الناس .

انتفت شهية أبي حميد الى الكلام . وانقطع عن طرح
الاسئلة ، قال في نفسه « الاخبار سيئة ، فلماذا خرجت
الليلة ؟ هذه مدينة متقلبة ، امس كان الناس مع الالمان ،
واليوم مع الروس ، وغدا الله اعلم . اما انا ؟ انا مع الالمان، نعم
مع الالمان ، لن اتغير ، سأظل مع هتلر ولو انكسر » .
— السلام عليكم .

— وعليكم السلام ورحمة الله .

دخل عدة شبان وجلسوا في الزاوية، فالتفت الطروسي
وهمس في اذن ابي حميد :
— جماعتك !

نظر اليهم وابتسم :

— ما اسمهم ؟ وهل عرفوني يا ترى ؟
— اسأل ابن الجمال ، هو الذي جاء بهم .
— اذا جاء بهم فعلى رأسي ، اولاد اوادم اذن ، يا ترى
يعرفون اسمي ؟
— لا بد ، انت مشهور يا ابو حميد .

« انا مشهور ؟ اين الشهرة ؟ امس رفضت الجرايدنشر
اسمي ، واليوم ضربت حتى شيعت ، وغدا لا ادري ماذا
يحدث لي ، ولكن لا بأس ، لا بد ان تعرف قيمتي »
— تقول ابن الجمال جاء بهم ؟ وهو ، متى يأتي ؟
— هه ، اقترب موعدة .
— والراديو ؟

— الراديو حر ، اسمع الذي تريده ، انت في مقهى
الطروسي .

قال ابو حميد مجبور الخاطر :

— عشت ابو الزهد ، والله لولاك لهاجرت من البلد ،
ما عاد لي فيها شغل .
— ودكانك ؟
— ما فتحتها من مدة .
— انت ضيعت نفسك يا ابو حميد .
— لعيني هتلر .

وابتسم الطروسي : « هل معقول هذا ؟ لو صدر عن
طالب ، عن معلم مدرسة، عن شاب ، قلنا له عذر ، ولكن
مثل ابو حميد ، رجل كبير يترك شغله ويلحق هتلر ؟ ! »

وفتح الباب ودخل نديم الجمال ومعه اربعة او خمسة
شباب ، فقام ابو حميد وعانقه هائفا :
— حي العرب !!

لم يشارك الطروسي ابا حميد وجماعته في سماع الاخبار . انها العاصفة في الخارج ، وصاعقة سقطت في مكان ما فارتجت لسقوطها ابعاد انقضاء .

وفي جو المقهى خيمت كآبة عكسها الجو ، وهطلت امطار غزيرة ثاقبة كالرصاص اوحلت الارض واجرت السيول . وتصاعد بخار الشاي حارا في الفناجين ، واناير البرق اطراف الافق ، وامتدت السنة شهابية من شقوق الباب . وانخلعت الخيمة وانهارت على طرف الصخر ، فقال الطروسي « يا حفيظ ! » ونهض عن كرسيه واخذ ينظر من النافذة ويفكر في هذا الذي يجري من حوله ، ويعيش العاصفة بوجدانه ومشاعره كلها .

واخذت المدينة تعيش العاصفة على نحو آخر ، اقل رهبة على اية حال . فاذا كان بعض الاطفال قد وضعوا اصابعهم في آذانهم ولاذوا باحضان الامهات ، فان الحياة المعتادة كانت تتابع مجراها : الاضواء داخل البيوت، وطاولات المذاكرة للاطفال ، والحصر التي يجلسون عليها وارجلهم تحتهم كأنهم يسجدون امام الكتاب وهم يفكون حروفه الاولى ، وقذور الحساء التي تغلي ويتصاعد بخارها ، وموائد الشاي ، واجتماع العائلات حول المدافئ ، واختباء الذين ليس عندهم نار تحت ما لديهم من اغطية ، والدفع المنتشر في الفرف والمعلقة . وسهرات الشتاء ، وقطرات المطر على الزجاج ، والمقاهي وصلات السينما والرواد ، والمداخن النافثة لهائنها ،

كل هذه الاشياء كانت تسير سيرها متكيفة مع الشتاء ، مخففة من الاكفهرار ، جاعلة المدينة تشعر بالعاصفة شعورا اخف من شعور الذين هم في البحر او على جوار منه .

الشاطيء وحده يعيش الشتاء والعواصف بلا بيت ولا اهل ولا اصحاب . انه يتيم الان ، مهجور ، شجرة عارية تحت المطر ، طريق مقفرة لا يعبرها الا الصيادون والبحارة العائدون الى منازلهم ، وحتى السكان الذين يقطنون على مقربة منه ، يديرون له ظهورهم في الشتاء ، ويفلقون نوافذهم وشرفاتهم ويحتجبون .

وكذلك يفعل الصيادون والبحارة . . انهم لا يقيمون على ود من الشاطيء كل فصول السنة ، بل يهجرونه الى قلب المدينة واطرافها ، الى بيوتهم التي تتجمع اكثر ما تتجمع على مبعدة يسيرة منه ، في الاحياء القريبة المجاورة .

ثمة بعض المقاهي الصيفية تظل على ولاء ، الا انه ولاء فاتر ، ينوس كهذه الاضواء الواهنة المنبعثة من مقهى العصافيري ، او مقهى « شناتا » ، اما مقهى الدورة فقد اغلق لان زبائنه الاغنياء انتقلوا الى النوادي والمجتمعات العائلية في قصور المدينة ، او في فندق الكازينو الكبير .

وفي مثل هذه الليالي التي يقفز فيها الشاطيء ومقاهيه يحلو لصاحب مقهى « شناتا » ان يتحدث عن امجاد مقهاه فيقول :

— هنا غنى عبدالوهاب شخصيا !

اما مقهاه نفسه فما زال محتفظا من ماضيه ببعض الآثار : نماذج لاعلانات عن الفرق الفنية المصرية التي مرت في اللاذقية وعملت على مسرحه : فرقة كشكش وبديعة مصايني والست نادرة وعبدالوهاب وغيرهم . وكان عبدالوهاب في هذه الاعلانات فتى يافعا نحىلا ، يلبس الطربوش القصير ، ويطيّل سالفه ، ويمسك وردة بيضاء ، وكشكش بك في

عمامته وقفطانه وعشونه وضحكته الشهيرة ، والسبت نادرة
تحتضن العود ، وبديعة ترقص ، وتمع ، مع الاعلانات بقايا
من المسرح ظلت قائمة كأنها آثار في متحف .

والمنازة البعيدة على قوس انشاطيء ، عند ابن هانيء ،
تشع وتخبو في رتابة وكسل ، والظلمة حانكة ، والبحريهاجم
الصخور بغير كلل ، وشيء ما ينوح على امتداد الساحل من
الميناء الى السجن ، واضواء المقاهي الناعسة لا تشجع احدا
على الدخول ، والماء المالح ينصل اصباغ الجدران فتغدو باهتة
متشققة كالارض العطشى في حمارة اقيظ .

كانت المدينة كلها تنتزه ههنا في الصيف : الشبان يلاحقون
الصبايا ، والصبايا يصطدن الشباب ، والنساء يسرحن وقد
ملسن حيطان البيوت ، والطلاب يمرحون وقد فرغوا من هموم
الدراسة ، والشيوخ يستعيدون ذكريات الصبا ، والسيارات
والحناطير وعربات الاطفال ، كل المدينة تكون على الشاطيء ،
وفي المقاهي والحمامات . اما الآن فليس من اثر لهذه المباحج .
لا عاشق يضرب موعدا ، ولا مفامر يبحث عن مفامرة ، ولا
امراة تتسلل وراء رجل ، ولا منتزه يملأ رثتيه بهواء البحر .
فندق الكازينو وحده عامر . لكنه منفلق على بنائه
الضخم ، تجري في غرفه اشياء لها فضائح ، ويدور لعب
البوكر والبريدج ، يلتقي السراة والملاكون ، وتقام الحفلات
الراقصة ، ويمتد بناؤه المربع فوق اليابسة والماء ، وقد
تكاثف العشب البحري الاخضر على جذور جدرانه .

وفي مقهى « شناتا » يسهر بعض الرجال . يتوافدون
من البيوت القريبة ، ويتجمعون في اقصى المكان يشربون
النراكيل ويتحدثون عما جرى لهم في يومهم ، ويبدو المقهى ،
وسط انظلمة المطر ، ككوخ حارس على الساحل ، ودي
واجبا لا مفر منه ، بينما يرهف الجالس فيه اذنيه لنبا جديد
مثير : اصياد يدخل مبللا ، او بحار يسأل عن شيء ، او غريق

يبحث اهله عنه ، او هدير الموج يعزف لحنه الازلي .

وعلى الرمال والصخور ، حيث ينداح الزبد ويترك ملاءته
البيضاء ، تدب في الليل اشباح الافكار والاصداء فيكون لها
تجسيد في مخيلات الصيادين وزوجاتهم واطفالهم : يتصورون
سمكة ستقع في شباكهم يوما ، وفي جوفها خاتم كخاتم
سليمان يامرونه فيطيع . . يقولون هذا في سهراتهم ، فسمع
الزوجات ويحلمن ، ويفسلن السمك وهن على رجاء ان تنشق
واحدة منه عن هذا الخاتم ، ولا يهم ان سمكة ما لم تتكشف
يوما عن شيء ، ذلك ان الامل يصبح حياة معاشة عند
المحرومين ، وله حبل طويل طويل يمتد الى آخر العمر .

ويسمع الاطفال ذلك ايضا فتنبت الحكايات في نفوسهم
اغراسا للرؤى لا تلبث ان تصبح اشجارا ذات جذور ، وهكذا
يدخلون عالما له تهاويل الف ليلة وليلة ، وله سندباد يحذب
اشواقهم ومشاعرهم بخيط سحري .

وينزل الصيادون الماء وفي صدورهم نفس الرجاء : لقد
صدقوا ما خدعوا به غيرهم . يقولون : « من يدري ! ربما . . »
ويجوسون خلل الرمال والصخور وقد استحالوا الى جزء
من الاسرار التي تعيش فيها ، ويزداد انفعالهم حين تسود
الظلمة ، او ينسكب ضوء القمر كشلال فضي من فوهة سد
كبير في السماء ، ويتذكرون ما سمعوه عن انفتاة الفنية التي
انتحرت ، وجنية البحر التي تعشق ابناء آدم ، واسمكة التي
نصفها امراة ، وجثث الفرقى التي يقذف بها البحر ، والاشقياء
الذين يختبئون في المغاور ، والعشاق الذين يتواعدون بين
الصخور ، ويعودون الى بيوتهم فيقصون كل الحكايات ، كل
التفصيلات الدقيقة ، كل التخيلات التي ابتكرتها مشاعرهم او
اوحى بها اليهم رغائبهم ، ويروونها على انها حوادث وقعت
لهم او لسواهم .

وتعيش هذه الصور بدورها في بيوت الصيادين والبحارة ،

وتطوف الاخيلة في هذه البيوت ، وتنتشر رائحة البحر من ادوات الصيد ، وترسم الرؤى على القصبة المسندة الى جدار ، والصنارة المدلاة من سقف ، والشبكة المعلقة على مسمار ، وتجتمع النساء على اخبار الازواج ، ويسهرن على حكايات الرحلات والصيد .

ولقد اضطربت نساء البحارة والصيادين الليلية ، واشفقن على ازواجهن وانفسهن مما تحمله العاصفة للذين هم في البحر .

ثم نامت المدينة كلها الا هن . كن ساهرات يتمثلن ازواجهن في صراع الموت مع الموج والريح ، وسط اللجة البعيدة التي تبتلع الرجال .

وكن يسترجعن قول هؤلاء الرجال : « الداخل الى البحر مفقود والخارج منه موالود » ثم تنطلق السننهن بتضرع حار الى الله ان يعيد المفقودين سالمين ، ويشارك الاطفال في الدعاء ، ويشارك به الرضع بالنظرات . وتمضي الساعات تلو الساعات وايس من خبر او وقع قدم على الطريق .

« ماذا جرى لهم ياترى ؟ في اي مكان من البحر هم الآن ؟ متى يعودون ؟ وهل يعودون ؟ » ويتصل اقلق ببعضه ، ويتحول الى خوف ، وينقلب الخوف الى دموع ، ويمتزج اقلق بالخوف بالدموع ، وتظل نساء البحارة في رعب وترقب لحادث مشؤم يطرق عليهن الباب .

هنا الالم . في منازل البحارة الالم . امرأة البحار تعيش على التضحية . تسلم زوجها الى البحر كل يوم ، وتسلم معه قلبها ومصيرها ومستقبل اطفالها كل يوم ، وتروح تنتظر ، وتنذر الندور ، وتبتهل الى الله ان يعيد زوجها الغائب ، وتقوم الى النوافذ تفتحها ، والى الابواب تقف وراءها ، وترسل بصرها عبر الشارع متسائلة : متى يعود ؟

قالت امرأة الرحومني لنساء البحارة المتجمعات عندها :

— لا تخفن ما دام الرحومني معهم . منذ عرفته وهو في البحر ، وفي كل مرة ، ومن كل عاصفة ، يعود ومن معه سالما محروسا بعناية الله .

نظرت اليها النساء في سهوم وقلق « هذا كلام للتطمين سمعناه كثيرا ، ليت الرحومني لم يبحر اليوم ، ليت عاد مع الصيادين العائدين منذ المساء » . وعادت هي تقول :

— سيعودون ، قلبي مطمئن بحمد الله .

وكان قلبها غير مطمئن : « هل سيعودون حقا ؟ البحر ! آه من البحر آه من هذا العدو ، آه منه كم حرمني النوم واسهرني وابكاني ! » .

كانت العاصفة ما تفتأ تتفجر غضبا شديدا ينصب على الارض . وقد خلعت الريح مصاريع النوافذ واطفأت فوانيس الكاز . وفي الخارج ، حيث لا تدري النساء ، تتساقط صواعق تفجر في قلوبهن الدعر ، بينما الاطفال قد رقدوا في حضون الامهات وعيونهم تنطبق على صور الاء الغائبين ، والبيوت الصغيرة العارية تسمع وتعي كل شيء ، لكنها لا تقول شيئا ، ولا تند عنها نامة سوى ما ترجمه من صدى العاصفة في الخارج ، وما تعكسه الصنائير والشباك من خيالات مضطربة الظلال .

اقترحت امرأة صياد ان يذهبن ليسألن في الميناء ، وتطوع ابنها الفتى قذهب وعاد يقول « لا خبر ولا مخبر » ومضى بعض البحارة من الجيران ليسألوا فما عادوا ، ودقت ساعة السراي العاشرة ، ثم الحادية عشرة ، فالثانية عشرة ، وبدأت كل دقيقة تقطع جزءا من خيط الامل وتهيء الاحاسيس للانفجار .

واخيرا انفجرت عاطفة احداهن ، وسالت دموعها على خديها ، فأعلنت انها ذاهبة الى الميناء بنفسها ، ولم تفد جهود

امراة الرحموني في تهدئتها وتطمينها ، فخرجت وتبعتهما
النساء ، ووقفن على الابواب ، وتجمع الجيران ، واستيقظ
الاولاد ، وذهب بعض الرجال معهم ، وتغطت امراة الرحموني
لائتها واوصت جارتها باولادها وسارت في الميناء .

المطر يرذ ، والريح تعوي وتعصف الموج ، وطريق البحر
للم مقفر ، ومقهى « شناتا » ما يرح ضوؤه ينوس ، وقد
رج من بقي فيه على صوت الجلبة في الشارع فانضموا الى
سائرين نحو الميناء ، وذهب بعضهم الى مقهى البطرنة
فاخبروا الطروسي ان الرحموني وبحارته لم يرجعوا بعد ،
فقام مع الرجال والنساء الى الميناء ، وتبعه ابو محمد وخليل
المرين وبعض البحارة ، وظل ابو حميد وجماعته في المقهى
يتحدثون عن آخر الاخبار .

وقال ابو محمد لمن حو اليه من البحارة شامتا ومؤنبا :
- اما قلت لكم ان شباط غدار ؟ الطروسي يعرف اكثر
منكم . من الصباح قال ان فرتونة ستحدث ، فلما حذرتكم
صحتم « المسلم هو الله » خذوا اذن !

وصاح به رجل تخلف عن القافلة الاولى المنحدرة من
وراء شركة الامبريال الى الميناء :

- افتح فمك على خير ، المسلم هو الله على كل حال ،
لا تقنطوا من رحمة الله يا جماعة ، لا تصيروا مثل النسوان !
وكان في الميناء ناس كثيرون ينتظرون : بحارة ، درك
وخفراء جمرك ونساء واطفال ، ثم جاء رئيس الميناء وكشف
اسماء المراكب التي ابهرت والشخاير التي ذهبت الى
الصيد ، فظهر ان شختورة الرحموني وحدها لم تعد بعد ،
قال :

- يمكن تكون « جونت » او اتجهت الى قبرص ، او
التجأت الى جيلة او بانياس .
ودخل مكتبه واجرى اتصالات مع الموانئ القريبة ، فقبل

له ان شختورة الرحموني لم تصل اليها ، وقالت بانياس ان
زورقا سيخرج للبحث ، وكذلك وعدت طرطوس وارواد ،
وقال رئيس الميناء وهو يفضي بهذه الاخبار الى الحاضرين :
- ونحن ايضا زورقنا جاهز ، لكن البحر من جهتنا
مكشوف !

انشأ البحارة يلفطون ويتكهنون ويعطون اراءهم في
الموقف ، والنساء يبكين ، والطروسي يقول لمن يصادفها منهن :
- لا تخافي يا اختي ، ما دام الرحموني معهم فسينجون .
الرحموني قضى حياته في البحر . ولا بد ان يكون « جونت »
مع الريح ، وغدا يعود .
سألته امراة :

- كيف يعود والبحر جبال ؟
- هذا شغل ، البحر لا يخيف الرجال ، الموج جبال على
راسي ، ولكن الرجال اقوى من الجبال ، الرجال تهد الجبال ،
روحى الى بيتك ونامي .

قالها ورفع راسه الى السماء . ظلمة وريح ومطر وغيم ،
وليس من نجم في السماء . « اين زرقة السماء ؟ اين صحو
الصباح ؟ اين الطقس الجميل الذي بدا به النهار ؟ يا لك
من غدار يا شباط » .

رفع يده في مسرى الريح ، فجاءته موجة كبيرة
وارتطمت برصيف الميناء وقفزت فوقه فبللت النساء والرجال
الذين تراكضوا الى وراء . وعندئذ اوصى بابتعاد النساء
والاطفال عن الرصيف ، واتجه الى حلقة رئيس الميناء وقال :
- لا بد من خروج زورق الانقاذ . الريح غربية شديدة ،
ولا يمكن للشختورة ان تخلص وحدها .

اجاب رئيس الميناء :
- الميناء مكشوفة من جهتنا يا ابو زهدي ، ومن الصعب
ان يخرج الزورق في هذا النوء .

سأله الطروسي بحدة :

— والرجال الذين في البحر يا ريس ؟ هل نتركهم يموتون !؟

— انتظروا لنرى ، فقد تدركنا رحمة الله .

قال الطروسي باصرار :

— اذا انتظرنا اكثر ضاعت الفرصة . الرحموني خرج لصيد « المرمور » و« السلطان » وهو الآن مع الريح باتجاه الشرق ، والمقاومة ، يا ريس ، لها حد .

ووافق البحارة على رأي الطروسي فوراً : « نعم المقاومة لها حد ، ومن الافضل ان يخرج الزورق » وتحمس بعضهم ، وايد آخرون ، ومع ذلك لم يتطوع احد للتزول الى البحر . ووجد رئيس الميناء نفسه محاصراً ، لكنه حاول التهرب من جهة ما :

— اذا ارسلنا الزورق فلا بد ان يكون معه ريس وبحارة .

معنى هذا انه لن يخرج ، ولن يسمح بخروج الزورق . وساد الصمت لحظة حتى قطعه صوت الطروسي قائلاً :

— انا انزل يا ريس !

كان احمد يقف في طرف الحلقة ، فما وجد نفسه الا وهو يقول :

— وانا انزل مع الطروسي .

وقال بحاران آخران : « ونحن ايضا » ووافق رابع ، وابتسم ابو محمد في الظلام ، وقالت امرأة الرحموني وهي ترفع يديها الى السماء :

— ليحفظكم الله ويكون معكم .

وانهال الدعاء من جميع الافواه « يا الله يسر ولا تعسر » وقال الطروسي قاطعاً طريق التراجع على رئيس الميناء :

— اسرعوا ، اسرعوا ، كل دقيقة لها قيمة ، هاتوا جنزير وحبال وطوافات .

جاءت موجة هائلة وقصفت اسمنت الرصيف فتطاير رشاشها وانحط على الرؤوس والاكتاف ، وعندئذ هرع الجميع متراجعين نحو الباحة ، وظل الطروسي يصيح : « اسرعوا ، قربوا الزورق من الرصيف » . ركزوا المدري والاطارات حتى لا يرتطم الزورق بالرصيف . وقال احمد بصوت حماسي « هاتوا المصباح الكهربائي حتى نرى الجبل » . فاعترض رئيس الميناء قائلاً « لا تنسوا اننا في الحرب » ثم ركض الى وراء ليتفادى اندفاع موجة عاتية ، وازداد منتهرا الذين اشعلوا الضوء : « البارحة وصلت غواصة المانية الى قرب بيروت وضربت باخرة يونانية وهربت » .

كانت كلماته تضيع ، ليس لانها غير معقولة فحسب ، بل لانه كان يقولها بدون قائدة منها ، وبدون ان يقتنع هو نفسه بها . ووسط الظلمة والمطر والموج والضجة المرتفعة من كل اطراف الميناء ، كان قد اضاع القدرة على ان يفعل شيئاً او يعارض في شيء ، وكان البحارة يلوحون كأشباح تقف وتنحني وتركض وتصرخ ، والزورق الذي يشدون به نحوهم يضطرب في مهب العاصفة حتى ليوشك ان يرتطم على الرصيف ، فيضطرون الى ارخاء الجبل لتفادي تحطمه .

واقترح احمد ان يقفز الى الزورق ، فلم يوافق الطروسي ، وعندئذ امسك بالجبل والقي بنفسه في الماء وجعل يشرئب ويتناول وهو يتدلى عليه بين الرصيف والزورق ، والبحارة يوجهونه للامساك بالشكارمو ، والطروسي يركض بالحبال والاطارات والمدري . فلما صعد احمد الى ظهر الزورق القى اليه بهذا الامر : « اضرب رجلك في الارض وادفع بالزورق نحونا وانت تشد بالحبل » .

وجرب احمد لكنه فشل . .

— انتبه ! (صاح به الطروسي من الرصيف) استعمل المدري ، قل يا الله .

قال الرحومني وهو يحرق خلل الظلمة : « اين نحن الان ؟ » لم يعد البحر منبسطا من ماء كما عرفه ، او كما كان قبل العاصفة ، وليست الشخورة وعاء خشبيا كبيرا فوقه . انه يحس بأن ما تحته ليس سوى لوح عائم يضطرب ويدور بغير اتجاه ، وثمة مياه تنساح فوقه ، وملح يحرق عينيه ، وحرقة في صدره تمنعه من التنفس ، ودوران شديد يكاد يفقده الوعي .

لقد انقطع عن التفكير بما جرى وكيف جرى . لم يعد يتساءل أين الشباك والطوافات والحبال والرجال « حكاية أخرى كحكاية اولاد سعود ، نفس البداية ونفس المعركة .. ولكن النهاية ؟ »

صاح بصوت اراده قويا فخرج واهيا محشرجا :

— بشير ، حسن ، عبدالرحمن ... شمسي !
ظل يردد الاسماء فترة كأنه تحت وطأة حمى خبيثة ، ثم خفت صوته ، وتلاشى « لقد ذهبوا ، ماتوا ، ولن يبقى احد منا ليخبر عنا ، ستضيع اثارنا في البحر ؟ »

اغمض عينيه واستجمع قواه ، واستدعى وعيه بكل ارادته وفكر « اين نحن الآن ؟ »

الشخورة تعلو ، الشخورة تهبط ، والظلمة دامسة ، جدار من فحم ، والموج شلال يتساقط فوق خشبة تفرق في المصب المزبد ، وشخورة الرحومني تدور مع الاعصار : تعلو ، تهبط ، تعلو ، تهبط ، وهو يجلس القرفصاء حول السكان ، ويدها تلمس مكان بالدفة بعناد « كن اتركها مهما حدث ، سنموت معا او نخلص معا » .

امتد مديان بشكل متعكس بين الرصيف والزورق ، علقت صنارة احدهما بحلقة حديدية في الزورق ، وصنارة الثاني بحلقة حديدية في الرصيف ، وشد احد من جهة ، وبحار من جهة مقابلة ، قاقرب الزورق حتى كاد يلاصق الرصيف ، والقي الطروسي بنفسه الى الزورق قائلا « هه جئتك ، هات عنك ، هيليا شباب ، القوا حالكم بسرعة ، ارموا الاطارات والحبال والسلم » .

اصبحوا جميعهم في الزورق : الطروسي واحمد وثلاثة بحارة ، وبدأ المحرك بهدر ففرقع الماء من تحته وانتشر الزبد والزيت على السطح ، ثم رفعوا الياطر فكوا الحبال من الرصيف فأخذ الزورق يتراقص ويجمع كفرس ، بينما الرذاذ يتطاير من كل صوب ، والامواج تلطم الزورق فتقصيه وتدنيه . وتولى الطروسي القيادة فصاح :

— اغلقوا باب الموتور ، وحافظوا عليه من الماء .

ثم التفت الى الرصيف ، وأشار بيده الى رئيس الميناء والبحارة والحاضرين وصاح :

— ادعوا لنا يا اخوان .

— اللهم يسر ...

— بحفظ الله وتوفيقه .

جاءته هذه الكلمات وهو يضرب بيده على ظهر غرفة الموتور ويعطي اوامره بالمسير :

— هولا يا شباب ، غرب جنوب مع سبلة الريح ، ثم في خط مستقيم حتى نخرج من الميناء .

اقلع الزورق فاتحا لنفسه طريقا بين الامواج ، كأنه يجتاز نفقا مائيا ، ولم يلبث ان ارتفع على رابية ومال على احد جنبه فصاح الطروسي :

— اوكسو ، اوكسو ..

وتسلم الدفة لأول مرة منذ اعوام واعوام ، وشد بها جيدا بين يديه ، واندفع بالزورق الى امام .

عشر ساعات مضت ، انها ليست ساعات زمنية ، وليس الوقت الذي مر وقتنا عاديا . لقد احس به طويلا كدهر ، قصيرا كأنه تجمع في اللحظة التي يعيشها ، ثم لم يشعر بشيء اسمه وقت ، فقد انفصل عن الزمان والمكان واصبح نقطة سوداء في متاهة مائية ليس لها حدود ولا قرار .

لقد انتفى الادراك المكاني والزماني . امتصتهما غيبوبة اليقظة لحواس متعبة معطلة عن تمييز الاشياء : تخلعت الصواري وتمزق الشراع . وتحطم كل ما في العوامة السوداء النائية او تعطل ، وبقيت ارادة الانسان متشبثة بالحياة . بيد انها كانت في صراعها العنيد مع العدم ، تتبدد حتى لتوشك ان تستسلم ، وتتجمع فتنتفض وتقاوم من جديد .

« ستهدا الريح قريبا ، ستهدا ، ولكن راسي؟ آه لو كانت معي حبة اسبرين ! شربة ماء ! جرعة شيء حار ! ومع ذلك سأصبر ، سأغمض عيني ، لن افكر بشيء ، حتى ولا اين انا ، سأطبق فمي ، عيناى فقط ستظلان مفتوحتين ، الملح يحرقهما ، ما احدث طعم الملح ، ما اشد هذه الظلمة ! »

الشختورة تعلو ! الشختورة تهوي « انها تتدحرج الى الوادي ، كلانا يتدحرج الى الوادي ، لقد تحطمت ، تفككت اخشابها .. اسمع صرير المسامير والاشخاب ، هل اغفيت وانا على الدفة ؟ نحن على جبل ، فما اعرق الوادي الذي تحتنا ! اننا نهوي ، تتدحرج مرة اخرى الى القاع ، سأغمض عيني ، سأستريح ، فقط لو استريح ، لو يتوقف دوران الراس ! »

ولم يتوقف دوران الراس ، ولا خف الصداع ، ولا زالت حرقة الملح . النقطة السوداء في المتاهة الكبرى ، والريح المجنونة ، والموج المسعور ، ورجل يتحدى البحر .. يمكن لرجل ان يتحدى البحر ؟ والصلاة يا بحر ؟ والزوجات والاطفال على الشاطيء ؟ والصحبة الطويلة ؟ وليالي السفر ، والاغاني ؟

والافراح ؟

خيل اليه انه يسمع اصواتا من بعيد ، وامامه ، على صفحة البحر ، راي قاربا فيه بحارة يجذفون ويتقدمون نحوه فرحين . انهم بحارته ، وقد عادوا لانتقاذه « آه ما احلاكم واشجعكم ايها الرجال ! اقتربوا ، اقتربوا .. »

واقترب البحارة ، وانصبت اصواتهم في اذنيه ، وتعالى النغم مع وقع المجاذيف :

عندك بحرية .. يا ريس !

بزنود قوية .. يا ريس !

ابدا لا تخاف .. يا ريس !

ابدا لا تخيس .. يا ريس !

ابتسم الريس ومد اليهم ذراعيه . حاول كثيرا ولم يبالغهم . سقط في الماء . رفع يده ليمسك بالقارب فلم يدركه مضى القارب ! ابتعد ، ابتعد ، وبقي وحيدا يصيح « تعالوا ، اقتربوا ، اقتربوا » غير انهم لم يقتربوا ، لم يستطيعوا « الموج يا ريس ! البحر يا ريس ! البحر يا ريس » اختفى القارب وظهر مكانه مركب يضطرب وبحارة يتراكضون واصوات تصيح :

البحر جبال .. يا ريس !

قطع الجبال .. يا ريس !

مزق الخام .. يا ريس !

حطم الصواري يا ريس !

وغاب كل شيء فجأة كما ظهر . لا قارب ولا مركب ولا بحارة . الظلمة والموج والريح والحقيقة المؤلمة .

لقد اغفى في شبه سهو لفرط التعب . فلما استعاد وعيه اغمض عينيّه وتمتم « الحمد لله انني لم اسقط ، عقلي ظل واعيا ، لا بد ان انجو ، لن استسلم ابدا ، جميل سعود لم يستسلم ، البحار يثبت والريس ينهزم ! والشختورة ؟ كيف اترك الشختورة ؟ والاولاد ؟ انهم ينامون الآن . لا ، لا ينامون ،

يشرئب اليهم كفول ، والى الهاوية تنفتح من تحتهم ، والى المياه تغمرهم وتجرف ما تصادفه في طريقها على الظهر ، والرحموني يمسك بالدفة ويوجههم ، او ينصحهم قائلا :
- لا تخافوا ، سننجو ، صلوا ، صلوا .

ركع البحارة حيث هم ، وتعالّت اصواتهم وسط الظلمة والريح تتلو آية الكرسي « الله لا اله الا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الارض ، من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ، يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم » صدق الله العظيم .

مزق بحار قميصه ونذر ان يذبح خروفا اذا وصل البر . وقبل بعضهم الارض ، وقال الرحموني « انضحوا الماء ، انضحوه بسرعة والا غرقنا » .

اندلع برق مزق حجاب الظلام ، وتلاه رعد هدار تقلبت موجاته وتدحرجت فوق رؤوسهم ، وسقطت صاعقة وغابت في البحر ، وعصفت ريح هوجاء ارتفعت الى اعلى ورفعت معها الماء وامسكت بالشخورة وهزتها بقوة كأنها تريد ان تصعد بها ، وبعد ان رفعتها الى اعلى تركتها تسقط في الفور السخيق الذي انفتح تحتها وغمرها بردم مائي حتى غابت مؤخرتها وانقصفت بعض اعمدها ، ثم استوت من امام وغاصت من وراء وفقدت توازنها وانقادت كقصاصة من ورق ليد العاصفة القوية التي جعلت تلهو بها وهي تهقه في هزء وشماتة .

نضح البحارة الماء حتى تعبوا . وبدا لهم ان انقاس الشخورة مستحيل ، فاقترحوا على الرحموني ان ينزلوا في الفلوك الصغيرة للنجاة بانفسهم : « المجاذيف وحدها يمكن ان توصلنا الى الشاطئ » ، اما الشخورة فنرخي ياطرها ونتركها في البحر .

خديجة قالت انهم لا ينامون حتى تعود يا سليم ، ترى هل تعرف خديجة ابن سليمها الآن ؟ وهل يعرف الاولاد ابن والدهم ؟ ساحكي لهم كل شيء ، سأضمهم الى صدري ، وسيجلس فوزي الصغير على ركبتني ، ويعبث بشاربسي وصدري ، ما احلاك يا فوزي ! ما احلاك يا اولادي ! كلكم الآن في البيت ، وانبجاة على الشاطئ ، والزوجات فسي احضان الازواج ، وانا هنا وحدي ! ذهب البحارة ، ذهبوا كلهم وتركوني في البحر ، اي بحر هذا واين أنا ؟ » .

عاد اليه الدوار فأحس بقواه تخور . كان الليل قد انتصف ، وساعات طويلة قد مضت منذ عصفت الريح وتغير اتجاهها . حدث ذلك في مثل لمح البصر ، بسرعة غير متوقعة ، فتطلع الى الجهات الاربع وادرك ان العاصفة قطعت عليهم طريق العودة ، وان عليه ان يتجه مع الريح الى الداخل .

سأله البحارة : كيف الحالة يا ريس ؟ فقال « لا شيء يخيف ، اسرعوا في جمع الشباك ، ودعونا نمضي بغير خام ، سننجو باذن الله ، اعملوا بأيديكم وادعوا في قلوبكم والله المنجي » .

انطلقا « اللوكس » ففاصت الشخورة في الظلام ، ولم تمهلهم الريح ليجمعوا الشباك فتقطعت بين ايديهم ، وترنح الصاري وتمزق الخام ، وظلت الحبال وحدها مدلاة بين الصاري والسطح كأوتار قيثار ضخمة غير مشدودة ، وعلى وجه الماء هب اعصار غضوب وهام مسعورا وعناصر الطبيعة تواكبها ، وتزارر معه ، وتزارر على بعضها ، وتمسارك ، والشخورة تختلج كأنها فريسة صرع مخيف .

تراكض البحارة في كل ناحية صائحين « ياريس » ومالت بهم الشخورة على احد جنبها فتساقطوا ، ونهضوا ليعودوا الى الركض فالسقوط ، وتمسكوا بالسارية والحبال وبيعضهم ، وتذكروا حناية جميل سعود ونظروا الى البحر

تفرق البحارة حلقات في مقهى انطروسي يشربون
النراكيل والقهوة والشاي بانتظار الفرج والاخبار التي ستأتي
عن المفقودين في البحر .

وعادت النساء الى بيوتهن . وبقي قسم من البحارة
والرجال في الميناء . واقفلت حركة البحر فلا غدو ولا رواج
وهربت المراكب الى داخل الميناء ، واطارت الريح سقوف
البيوت الخشبية التي يقرع عليها المطر قرع زنجي على طبل
صغير ، وانحدرت سيول فاضت بها الانهار ، وتشققت
الجدران وحدث زعر عظيم في المدينة .

وقال خليل العريان الذي عاد راكضا الى الميناء عندما
سمع صغير باخرة : « ضاع الطروسي ، كان عليك ان تمنعه
من النزول يا ريس » .

واجاب رئيس الميناء محتدا :

— قلت له لا تنزل فما سمع ، ماذا تريد ان افعل ؟ هل
استعين بالشرطة بعد ان هاج وهيج البحارة معه ؟
اطلق هذه الكلمات امام البحارة المجتمعين في مكتبه بعد
ان انفجرت اعصابه كأنها بحاجة الى من يثقب صمامها . فرد
عليه أبو محمد الجالس القرفصاء قرب الباب :

— انت صادق يا ريس ، ولكنك لم تقل له لا تنزل !

— نعم قلت ، اي قلت .

— انا ما سمعت .

— انت اطرش .

نظر اليهم الرحموني وفكر . كانوا في حالة زعر واعياء ،
والشخورة توشك ان تفرق ، والعاصفة تزداد ، والبحر
يهتاج ، ولا فائدة من النصيح ولا الكلام ، بل انه لا يريد النصيح
ولا الكلام « البحارة على حق . لو كنت مكانهم لفكرت بما
يفكرون ، ليذهبوا وسابقي ، ساظل في الشخورة ، ولن القي
الياطر ، وسأتجه مع الريح ، دائما مع الريح » .

— ماذا تقول يا ريس ؟

— اذهبوا انتم ، خذوا الفلوكة والله معكم .

— وانت !؟

— ان اترك الدفة .

احسوا به يصفعهم على وجوههم بكفه انخسنة المبللة .
وادرك الرحموني ما يستشعرونه من خجل واسى فخطبهم
جادا حازما :

— اذهبوا .. اذا كنت سأموت انا فلماذا تموتون انتم ؟
نسيتم قاعدة البحر ؟

وسكت قليلا و اضاف :

— من المصلحة ان تذهبوا .. استطيع الثبات حتى
تصلوا الشاطيء وترسلوا الزورق ، وفي حالة كهذه تنقذون
انفسكم وتنقذونني معكم وتخلصون الشخورة من الفرق .
وترددوا ، ثم ذهبوا بعد لاي ... نزلوا في الفلوكة
واخذوا يجذفون ويفنون ، وكان ريسهم يسمع من على ظهر
الشخورة غناءهم البائس الذي يقاومون به اتعب والخوف ،
فتمتم في ذات نفسه محزونا :

« ليحفظكم الله ، ليحفظكم الله ، اذهبوا واخبروا عني »

وغابوا عن عينيه .. تلاشى صوت غنائهم ، وامحى اثرهم ،
وابتلهم الليل ، وبقي وحيدا في البحر ، وحيدا امام العاصفة ،
جلودا حتى النهاية ، او هكذا عقد العزم .

- وكيف لم يسمع هو ايضا ؟
 - هو ؟ صاحب الرأس العنيد ؟
 - هو يعرف شغلته ، فلا تخافوا عليه . من الصباح
 قال ان نوبة ستحدث الليلة ، فرد البحارة « الله ما اعطى
 علمه لاحد » وها هي النوبة فما رأيكم ؟
 قال رئيس الميناء يحاول اقناعه :
 - ولك يا ابو محمد ، كلمة وقالها .. عجينة ولصقت ،
 يعني هو افرس من غيره ؟ اي والله ما فيه واحد افهم مني
 في البحر ، ومع ذلك شيبتني المفاجآت .
 واوزبحار حكاية البحر بهذه العبارة :
 - البحر مثل شباط ، ما له رباط .
 بيد ان ابا محمد عاد الى الدفاع :
 - البحر له مفاجآت ، ولكن الطروسي يفهم .
 - يفهم بالغييب ؟
 - لا ، بالنجم !
 - وانت ؟ بماذا تفهم انت ؟ بالفلك (وادار قفاه وضرب
 عليه) انت تفهم بهذه (بالاذن من الحضور) .
 قهقهة الحاضرون جميعا ، ومنهم من اغرب في الضحك ،
 فتبدد الوجوم ، واربد وجه ابي محمد لهذه الحركة التي صدرت
 عن رئيس الميناء ، وكنتم غيظه مكتفيا بهز رأسه ، وقال بينه
 وبين نفسه متوعدا « اذا عاد الطروسي نتحاسب » .
 واردف رئيس الميناء بلهجة الاعتذار عما بدر منه :
 - يا ابو محمد ارجوك ، انت ابونا ، والطروسي
 اخونا ، وكلامك على رأسي ، لكن اترك الدور لغيرك . مليح ،
 الطروسي يفهم ، أي يفهم خي ، انا لا اجادل ، ولكن نحن
 نفهم ايضا ! هذه الشرائط (ومد يده الى الشرائط التقليدية
 المقصبة على كتفه) من بيت ابي ؟ وجناب محمد ما طلعت الى
 قطعة في البحر من « الفرقطة » الى « البابور » السى

« الفيز » الى الفلوكة الا واثبت وجودي . رئاسة الميناء ما
 جاءني من بيت ابي ، والانسان لا يتكلم عن نفسه ، وانا لا
 امدح فهمي ولا انتقص من فهم الطروسي ، تكن الشيء المقول
 حلو .. اي نهار .. ونجوم ؟ عمرها صارت ؟ المفامرة حلوة ،
 أي خي ، المفامرة حلوة ، انا غامرت بعدد الشعر الذي في
 رأسي ، لكن ما من ابن المرأة برأسه عقل ويخرج من الميناء في
 هذا الجو .. الحق عليّ انا ، كان يجب ان امنعه من الخروج .
 انا المسئول عن الميناء لا هو ، ومئة مرة قلت له ؟ « يا ابوزهدي
 انا اعزك واحترمك لكن لا تخرجني ، اترك الميناء ، لا تتدخل
 في امور البحر والبحارة ، لكن من يسمع ؟ كل يوم علقه ؟
 هذا البحار ترك فلوكته بغير « ياطر » يأتي ويبهله ، وهذا
 الصياد القى ديناميت يأتي وينشر عرضه ، وهذا الرئيس
 اختلف مع بحارته يأتي ويشد مع البحارة ، ونحسن نحسب
 خاطره ، أي خي ، نحسب خاطره ، لكن لكل شيء نهاية ،
 البحر للطروسي ، آمنة وصدقنا ، البحر له ، فليهبه لنا
 ويستريح ، أي علم الله المقهى مزارب ذهب تو تفرغ له ،
 ولكن لمن تقول ؟ سوسته في البحر ، يريد ان يفرض نفسه
 بالقوة على الميناء ، ولكن الميناء لا يجوز ان يكون لها رئيسان ،
 الميناء لها رئيس واحد هو انا (وضرب على صدره) انا رئيس
 الميناء ، انا ! وكان عليّ ان لا اسلمه الزورق .. اذا كان لا
 يسأل عن روحه فما ذنب البحارة ؟ ومن المسئول عن الزورق ؟
 وماذا ستقول السلطات غدا ؟

واستمر هياج رئيس الميناء وقتا طويلا ، وقد وصف
 خليل العريان كلامه بأنه « كلام بدون طعمة » فاجابه ابو محمد
 وهما يعودان الى البطرنة :

- بدون طعمة وبس ؟ كليك راح يعضني .. آخ لو
 كان الطروسي في المحضر لقلع اضراسه (وبعد وقفة) انت
 صدقت انه يخاف الطروسي والبحارة ؟ لا تصدق ، كل

خوفه على الزورق .. تفو ، اي الذي رضع حليب فرنسا
وقبل الايدي والارجل حتى صار رئيس ميناء راح يكون الا
على هذا الشكل !؟.

حرضه خليل قائلا :

– فاتح الطروسي بالموضوع .

لا ، خي اذا عرف الطروسي هجره من الميناء كلها
ولو دخل السجن من تحت راسه .

– برحمة بطرس قلبي خايف عليه يا ابو محمد

توقف ابو محمد وسأل :

– على من ؟

– على الطروسي .

استأنف السير وقال :

– لا تخف عليه ، انا ما نزلت معه الى البحر ، لكن

البحارة حدثوني .. قسما بالله لا يخاف الانس ولا الجان .

وومض خاطر غريب في رأس خليل العريان فقال في

سره : « من يعلم ؟ ربما احبته جنية البحر وهي التي تحميه ! »

ورغب في اخذ رأي ابي محمد فسأله :

– من ادراك يا ابو محمد ان الطروسي لم تعشقه

جنية البحر ؟

تفرس فيه ابو محمد مدهوشا وقال :

– ممكن !؟

– ممكن ونصف ، يا ما عشقت جنية البحر ويا ما جننت

الرجال وقتلتهم !

– ولماذا تقتلهم ؟

– لانهم يفضحون سرها .. الجنية اذا فضحت سرها

قتلتك .

– اعوذ بالله !

– برحمة بطرس .

– اعوذ بالله ! واين هذه الجنية ؟

– في البحر . في مكان لا يعرفه احد ، نصفها سمكة
ونصفها امرأة ، وكثير من الصيادين راوها ، اما سمعت
الحكايات عنها ؟

– لم اعط بالي .. اي معقول كلامك ؟

– نعم معقول : والنوية تحدث بسببها .

– وكيف ؟

– يا مرحوم الوالدين ، المسألة وها فيها ان جنية
البحر ، في ارواد يسمونها عروس البحر ، تتزوج وتخرج
مع زوجها ملك البحر الى سطح الماء ، والنوية هي « المزينة »
التي تضرب قدامها .

– يا لطيف !

– شيء عجيب ! عجائب البحر كثيرة .

– اعوذ بالله ، انا لا اصدق .

– انت حر ، انا هكذا سمعت .

– ممن ؟

– من صياد عجوز ، قال انه رأى عروس البحر في
شبابه ، وانها جالسته .

كانا قد وصلا الى المقهى فدخلنا ، واغلق ابو محمد
الباب وقال لخليل :

– خي خليل ، احك لنا حكاية البحر .

– طيب ، هات فنجان قهوة حتى نروق اولاً .

سحب البحارة كراسيهم وتحلقوا حول خليل ، وجاءت
القهوة فشرب رشقة ، ووضع الفنجان على الطاولة ولف
سيكارة ببطء واشعلها ، وبدا كأنه غير مكترث بالاذان التي
ارفعت من حوله .

وعندما بدأ الحكاية اخيرا طلب زبون فنجان قهوة فلعله
ابو محمد في سره ، وقام مع ذلك الى الركوة فوضعها في النار ،

وجعل يلقي بسمعه الى الحكاية ويحرك القهوة ،حتسى اذا انتهى كانت قد فاتته بعض الكلمات فتوسل الى خليل قائلا :
- يا خي خليل ، احك الحكاية من اولها ، احكها على حبتها ، راح احفظها هذه المرة .. قلت ان عروس البحر احبت الامير ؟ واين رآته ؟ لم اسمع كل الحكاية ، اعددها بكلمتين الله يوفقك .

قال خليل محتجا :

- ليس في الاعداد افادة ، الحكاية تحكى مرة ما

مرتين .

توسل اليه ابو محمد من جديد :

- اعددها لاجلي ، الله يوفقك يا خليل .

- انا لا اعيد حكاياتي ، هذه عادتي .

نرفز ابو محمد :

- من اي متى ؟ دائما تفتق وتعيد حتى تصرعنا ، والان

صرت قليل الكلام ما شاء الله !

- ولك خي ...

فقاطعهما الجالسون بنزق :

- اي احسموها (واشترطوا) لكن اعط بالك يا ابا

محمد هذه المرة هه .

قال ابو محمد :

- طيب ، على رأسي ، بس يحكي .

وضع خليل رجلا على رجل ، ومص عقبه سيكارته بجهد

ونفث دخانا متقطعا وقال :

- راح احكيها من جديد ، كرامة لخي ابي محمد .

- عشت ، طيب الله انفاسك .

- وانفاس السامعين .

وتضايق السامعون من منولوج الجاملات هذا ، ونظروا

الى ابي محمد نظرة مؤداها « خلصنا ! »

وقال خليل موجها كلامه الى ابي محمد مباشرة « يا مرحوم الوالدين ، في البحر ، مثل البر ، ملوك وامراء ووزراء وناس وانهار وجبال وكل شيء ..

- اعرف (قالها ابو محمد بصدق وطيبة)

فتوقف خليل عن الكلام وقال :

- ما دمت تعرف ليش نعيد الحكاية ؟!

اوضح ابو محمد ملاحظته :

- يعني ما قلت مفهوم ، عرفته من الطروسي .

ومع ذلك انتهره البحارة :

- قلنا لا تقاطع !

- طيب ، طيب ، هه (ومسح على قمه علامة الصمت)

بس هات أنت .

وتابع خليل حكايته : « وفي البحر قصر الملك الذي جدرانه من مرجان ، ونوافذه من كهرمان ، وسقفه من ياقوت (هنا فرك بحار يديه وندت عنه هذه الصيحة : يا حبيبي ! وقد اعتبرها خليل بمثابة تطيب فرفع صوته وقال) :

« وكانت تعيش في هذا القصر اميرات البحر ومربية عجوز تحفظ (مثلي) حكايات كثيرة عن العالم الذي فوق الماء وتقصها كل ليلة على الاميرات .

« وكانت الاميرة الصغيرة تطلب دائما ان يسمح لها الملك بالصعود الى سطح الماء ، وهو يمنعها خوفا عليها . فلما بلغت سن الرشد قالت لها المربية : « تستطيعين الصعود الى السطح والجلوس على الصخور في ضوء القمر ورؤية السفن والغابات والسهول والغيوم والنجوم وكل شيء » .

« فتزينت الاميرة وتغندرت وشكلت في شعرها زهرة البحر ، وصعدت الى السطح فجلست على الصخر في ضوء القمر ، حتى رأت سفينة فلحقها ، ونظرت من نافذتها فوجدت

عدة رجال يجلسون حول امير جميل ، اسود العيون ، ابيض الوجه ، مثل البدر ابن اربعة عشر . ثم جاءت الجوارى ودار الرقص ، وظلت الافراح قائمة حتى ساعة متأخرة من الليل ، وبعد ذلك اطفئت الانوار ، ونام الامير واسرعت السفينة ، ودخل ضوء القمر من النافذة ففمر وجه الامير الجميل ، وتعلقت به عيون اميرة البحر ، فلم تفارق مكانها ، وراحت تتبع السفينة التي اشتد عليها النوء ، وهاجمها الموج فحطمها ، وامتلأت بالماء فانقلبت في البحر ، وبدا الامير يفرق ويفوص الى الاعماق ، ففرحت عروس البحر وقالت « سيطل الان معي » ، لكنها تذكرت انه انسان لا يستطيع العيش تحت الماء ، وانه سيختنق ويموت ، فاسرعت نحوه ورفعت راسه فوق الموج وحملته الى الشاطئ ومددته على الرمل حتى الصباح ، فجاءت الصبايا نحوه ، واختبأت هي وراء الصخور لترى ما تفعله بنات جنسه به ، واذا بواحدة تقترب منه وتهزه ، ففتح عينيه وابتمسم لها ، ونهض وسار مع الصبايا الى قصر كبير ، ولما رأت عروس البحر ذلك اصابها الفيرة فعادت الى قصر والدها في البحر وهي مجروحة القلب .

سأل ابو محمد متعجبا :

— سبحان الله ! حتى عروس البحر تفار ؟

قال خليل :

— اي عروس البحر ما من جنس حواء ؟ كل هذا

الجنس بفار .

— وام بطرس ؟ (ساله بحار)

هز براسه وهو يبتسم :

— اعوذ بالله .. جنس ملعون ! كانت تفار في اول

عمرنا ، اما الان .. على اي شيء تفار ؟

— طيب (قال بحار آخر) رجعنا الى الحكاية (وملفتنا

الى الحاضرين) بلا تعليقات يا شباب !

فأجابه خليل :

— اي اشتريتني بفلوسك ؟ مليح ، الله خلق الخلق ، هات اسقنا ابو محمد .

شرب حتى ارتوى . كان جوفه يحترق بالكحول ، وبعد ان مسح شفثيه يقفا كفه سأل :

— الى اين وصلنا ؟

— الى عودة الاميرة لقصر والدها .

« هه ، صحيح ، نزلت الاميرة السى قصر والدها ،

واصبحت لا تأكل ولا تشرب ، وغرقت في الحزن ، ولمسا سألنها العجوز عن السبب اخفته عنها . لكن العجوز كانت ساحرة وتعرف كل شيء ، ففهمت ان عروس البحر تصعد الى السطح وتنزل بلا فائدة ، وانها لم تعد ترى الامير ، فاشفقت عليها واخبرتها بمكانه ، وقالت لها انك لا تستطيعين ان تصبحي من سكان الارض حتى تتخلصي من ذيلك . وصنعت لها شرابا وقالت « اذا شربت من هذا الدواء على سطح الماء قبل شروق الشمس يختفي ذيل السمكة وتحل محله رجلان مثل ارجل البشر ، لكنك ستحسين وانت تسيرين كأنك تدوسين على ابر ، ولا تقدرين على العودة الى الماء ، فهل تقبلين ؟ »

« فكرت الاميرة وبكت ، واستبد بها حب الامير فقررت

ان تضحي بذيلها ، وطلبت من مربيتها العجوز ان تصنع لها الشراب ، فقالت العجوز « هذا سيكلفك صوتك ، لانني سأقطع لسانك واذوبه واصنع منه الشراب الذي سيحولك من سمكة الى انسانة فهل توافقين ؟ »

وعادت الاميرة تفكر وتبكي ، ثم وافقت لاجل الامير ، ومدت لسانها فقطعته العجوز وذوبته واعطتها اياه في زجاجة صغيرة ، فأخذته وصعدت الى السطح ، وسارت في ضوء القمر حتى وصلت الى قصر الامير ، فوقفت على درجته الرخامي وشربت السائل ، فاحست كأن السيوف تمزق

جسدها وفقدت وعيها وغابت عن الدنيا، وظلت في مكانها حتى جاء الأمير ورآها وسألها عن حالها فلم تستطع الكلام، وانبهر بجسمها فحملها إلى داخل القصر، وأحبها ووعداها بأن يظل وفيًا لها، ولشدة غرامه بها البسها لباس الرجال وأخذها معه إلى الصيد، ولم يعد يفارقها، إلا أنه لم يفكر بالزواج منها لأنها خرساء.

« وشاع في أحد الأيام أن الأمير سيتزوج من ابنة ملك البلاد المجاورة، وأخذ يعد العدة لحفلة العرس، ودعا عروس البحر إلى الذهاب معه، وقال لها أنه سيرى ابنة الملك ليرضي والده فقط، لأنه قرر ألا يتزوج إلا من الفتاة التي انتقدت حياته من الفرق، وهذه الفتاة موجودة في دير لا يعرف مكانه أحد.

« وسارت السفينة بالأمير، ورافقته عروس البحر وهي تبكي سرا، لكنها كانت تتعزى بأن الأمير لن يتزوج من غيرها، لأن التي يظن أنها انتقدته دخلت الدير. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فما كاد الأمير يرى ابنة الملك حتى صاح « هذه هي! هذه هي التي انتقدتني من الموت » والتفت إلى عروس البحر قائلاً: « ستكونين مسرورة ولا شك بزواجي » فأحنت عروس البحر رأسها بينما قلبها يذوب من الحزن، لأن يوم زواج الأمير سيكون يوم مفارقتها للحياة.

« وتمت استعدادات الزواج، وركب الأمير وعروسه السفينة عائدين إلى بلاده، وقامت الأفراح، وغنى الجميع ورقصوا، وظلت عروس البحر ساهرة، لأنها كانت تعلم أن موتها سيكون مع شروق الشمس كما قالت لها الساحرة.

« وبينما هي على هذه الحال ظهرت لها أخواتها من بين الأمواج مقصوصات الشعر، وقالت لها اختها الكبيرة اننا اعطينا شعربنا للساحرة لانقاذك من الموت، فاعطتنا هذا الخنجر الحاد، فاغمديه في قلب الأمير قبل أن تشرق الشمس،

وحين يجري دمه على الأرض ويلطخ قدميك تتحولان إلى ذيل سمكة، وتعودين معنا إلى قصر والدك في البحر.

« أمسكت عروس البحر بالخنجر ولم تضرب به الأمير النائم. كانت تحبه، وحب جنيت البحر شديد، لذلك رفعت الستائر الحمراء ونظرت إلى الأمير وعروسه النائمة على زنده، وأخذت الخنجر والقتله في البحر، ووقفت على طرف السفينة ونظرت إلى الأمير نظرة وداع.

« كانت الشمس قد أرسلت شعاعها الأول، فأحست أن روحها تفارق جسدها، وألقت بنفسها في الماء فاستحالت إلى زبد، وهذه قصة عروس البحر.

— سلم الله فمك، والله قصة!

قال خليل:

— ولكن لها بقية ..

فتوسل إليه أبو محمد قائلاً:

— اكملها لنا يا خليل، يرضى عليك.

فهرز خليل رأسه اشفاقاً على « قلة الفهم » وقال:

— بقيتها في البحر يا عم، ألا تسمع الملك، الأميرات، ينتقم من جنس الأمير، من البشر؟

— يا لطف الله!

— يا حفيظ، الله يحميك يا أبوزهدي، أنا من رأي رئيس الميناء يا جماعة، نزلة الطروسي في البحر اليوم جنون في جنون .. تصبحون على خير.

— وانت بخير، رايح؟

— رايح للميناء، لا بد أن يأتي خبر من الجماعة.

فارتدى أبو محمد معطفه وصاح وراءه:

— على مهلك يا خليل، أنا رايح معك يا خي، والله نومتني على رصيف الميناء الليلة، حتى يأتي خبر من الطروسي.

ان يخرج الى رحاب البحر الذي تتدافع امواجه المزبدة لتهاجم الشاطئ ، وكان على الزورق ان يتلقى ، كفرقة الصدام في المعركة ، وطأة الهجوم الشرس ، وقد خيل الى البخارة انه سينقلب بهم لا محالة ، وأن مؤخرته التي يقعي عليها حين يرفعه الموج ستغوص نهائيا ، لكن الطروسي تجنب الفرق بتغيير الاتجاه ، فأخذت الامواج تضرب جانبي الزورق وتؤرجحه وتجعله يميل الى يمين ويسار ، وعندئذ عاد الى تغيير الاتجاه ثانية ، واندفع في خط مائل ليتفادى مجابهة الريح . ولما اجتاز مدخل الميناء واصبح في عرض البحر صاح مشجعا رجاله :

— خرجنا من الميناء هه ، كلما تقدمنا في البحر تغلبنا على النوء ، الموج لا يخيف الا على الشاطئ ..
واصدر بعد صمت هذا الامر : « انتبهوا الى الموتور ، اذا انطلقا تعطلنا » .

— الموتور محفوظ ، لكن الموج يضرب الزورق من جانبه ، والمياه تتجمع في القاع .

— هذا لا يهم (قالها وهو غير ملتفت) انضحوا الماء .

ثم ضرب فجأة على غرفة الموتور وقال :

— هورسا ! هورسا ! خفف السرعة يا معلم اسماعيل ، الريح تغيرت يا شباب ، سأتجه شمال شرق وادور حول الجون حتى نتفادى الخطر .

اخذ الزورق يميل في خط ذي انحناء ، ويتلقى هجمات الموج في خاصرته من جديد ، والمحرك يزمجج ، والماء يغور ويتصاعد ويتساقط رذاذه في القاع ، والبحارة ينضحون وقد التصقت ثيابهم المبللة باجسامهم .

انتهى ميلان الزورق وعاد الى السير في خط مستقيم . انه في مواجهة الريح مرة اخرى ، وقد بدا وهو يحاول الاندفاع فلا يستطيع ، كحصان اجفل فاشرب وارتركز على قائمته

وكان في الميناء ، اضافة الى ابي محمد و خليل ، بعض البحارة وبعض ذوي المفقودين ، وكان رئيس الميناء ينتظر كذلك وقد ازدادت وساوسه .

وكان يخرج ، من حين لآخر ، بحار ينظر في الميناء المقفرة ، ويرى الى السماء المحجوبة بالفيوم ، وينصت الى الريح تدوي ، والامواج تزار ، ويعود الى الداخل وهو ينفخ ، ويقول لمن يسأله عن الجو « النوية فظيعة والله الساتر ، نزلة الطروسي خطيرة » .

فيفتنم رئيس الميناء افرصة ليؤكد من جديد : « خطيرة وبس ؟ جنون ، نزلته جنون ! »

اما الطروسي فلم يكن يفكر في شيء من هذا الذي يفكرون فيه ، بل لم يكن يصنف فعلته ، اهي حماقة ام مفامرة ام جنون . كان يندفع على كتف الموج ، ويشب الى الامام ، غير آبه لشيء سوى الدفة . لقد عاد اخيرا وامسك بها ، فكم هو جميل هذا !

ثمة فرق استشعره ، وهو يخرج من الميناء ، ذلك هو الاختلاف الكبير بين الشراع والزورق . ومع هذا لم تفتسه قيمة الزورق في هذا الجو العاصف بالنسبة الى الخام ، فقرر في نفسه فوراً ان القدرة على الاندفاع بالمحرك اقوى واجدى من الشراع بما لا يقاس .

كان الخروج من الميناء ، في حد ذاته ، خطرا حقيقيا ، فمن قلب الحوض المائي الكبير المكشوف للرياح يحاول الزورق

الخلفيتين ، واخذ يدور عليهما مهددا فارسه بالسقوط .
وتمسك البحارة بالآوتاد ، و ببعضهم ، وعرفوا ، فسي
هذه الدقائق ، الى اي مصير يقودهم الطروسي ، وفكروا
لاول مرة بالبر ، وربما ندموا وقد لاحت لهم الاخطار مجسمة ،
وراوا الموت امامهم يغفر شذقيه ويقهقه .

واضطربت الدفة بين يدي الطروسي . عليه ان يدور
مع الريح كرة اخرى . هذا هو حكم الضرورة والسلامة . وفي
حال كهذه يدور حول نفسه ويعود الى وراء ، فماذا يقول
البحارة عنه ؟ بل ماذا يقول ابو رشيد ورئيس الميناء ؟ وهل
يتترك الرحموني في قبضة العاصفة والفناء ؟

اصر على التقدم بخط مستقيم ، مع ميل جزئي متعرج ،
يخدع به الموج عن نفسه ، واغمض عينيه مرغما وهو يستشعر
الاحتراق فيهما ، ثم انصب المطر وانفلقت الجهات الأربع ،
وتوقفت الكلمات في الحلق فلم يعد يسمع صوتا من حوله .

« لن اتراجع » كذلك اكد من جديد كانه يؤنب نفسه
ويزجرها ، وتبع ، بخبرة بحار قديم ، الاتجاه الذي حدده ،
تاركا للبرق ان يكشف له الطريق وينير طرف الافق البعيد .
وسط هذا الهول ، اعطى المعلم اسماعيل اشارة الخطر :

— الماء يتسرب الى الموتور .

كان على الطروسي ان يعمل بسرعة والا ضاع هو
والزورق والرجال . ان الموت لا يحدث بالرحموني فقط بل به
هو ايضا . لقد اصطادتهما العاصفة معا ، بل اصطادات
الجميع ، الكل في حفرة التعدم الآن ، ولم يبق الا الردم .

انحنى الى امام وجرب ان يثقب فحمة الليل ببصره ،
فتدحرجت قطعة من جبل الموج على الزورق وغمرته .

وكان ، في وقفته تلك ، يشبه فارسا يضع قدميه في
الركاب ، ويرتفع بجذعه الى اعلى ، ويمسك بناصية الجواد
ويطارده بعناد واستقتال .

الكتفان مجتمعتان ، منحنيتان الى امام ، والزورق يعلو
ويهبط ، والمحرك يهدر ، والريح تزار ، والمطر يتساقط ، وكل
شيء ينذر بنهاية فاجعة ، وفي هذا الوقت بالذات جاءت
اشارة الخطر .

حذق الطروسي في البحارة فالغاهم يتحركون في القاع
كاشباح ، وقد بدت حركاتهم نفسها شبحية فاقدة ما اتسمت
به في بادئ الامر من حيوية واندفاع ، وسأل عن المياه فبادره
احمد بهذا الجواب :

— اصبحت تغطي اقدامنا (وقال كمن يخاطب نفسه) لو
رحمتنا السماء فتوقف المطر على الاقل !

كانت اللهجة قاسية فيها سخط وعتب ورجاء . ان
شعورا جديدا بدا يجيش في اعماق احمد ، وخيل الى
الطروسي ان بحارا عارك البحر طويلا هو الذي يجيبه ، لا
فتى الميناء المتسكع بين المراكب وعلى الارصفة .

سأله باشفاق :

— تعبت ؟

— ما باطل !

قال الطروسي في سره : « هذا جواب » انعشته هذه
النفحة من عزم ، واحس بها دفقة من عناد تسري في عروقه :
« الماء لن يعلو عن وجه اقدام ما دام النضج مستمرا ، فلو
استطعت منع دخول الماء الى الموتور لنجحت »

— يا احمد !

— نعم يا ريس .

— تعال امسك الدفة .

— انا ؟

— وهل يوجد احمد غيرك ؟

ومع هذا ظل في مكانه لا يتحرك : « ايمكن ؟ انا امسك
الدفة ، وفي هذا النوء ؟ »

عاد الطروسي يصيح :
- يا احمد ! اما سمعت ؟ تعال امسك الدفة .

...

وزعق به :

- قلت لك تعال .

كاد يجيبه : لا استطيع ! لا استطيع ! الا ان الطروسي
كان ينتظر باصرار ، فلم يجد اجمد بدا من التوجه اليه ، واذا
ذلك تلقى ضربة تشجيع في ظهره خفق لها قلبه بعنف . قال له :
- امسك بيدك الاثنتين . من هنا ، من هنا ، ابق
الدفة ثابتة حتى اطلب منك تحريكها ، احترس من ان ترميك
الرياح في البحر .

- لا تخف ، استرح انت .

« استرح انت ؟ الولد يظنني تعبت ، احمد معذور ، لم
يسافر معي بعد »

- يا معلم اسماعيل ، من اين يدخل الماء ؟

- من تحت ياريس ، من هنا (وضرب على الشق
الاسفل من الباب) .

فكر الطروسي « اذا فتحت الباب انساح الماء الى الداخل
وعجل باطفاء الموتور ، واذا ابقيته ظل يتسرب حتى يعطله ،
فكيف اعمل ؟ »

برقت في خاطره فكرة :

- هاتوا تنكة فارغة ، سيا يا احمد سيا ، ثبتت الدفة
بكل قواك في اتجاه الريح حتى نتفادى الماء من الجانبين .

قالها وشرع ينضح بحماسة بعثت الحمية في البحارة .
لم يحث احدا على العمل . انه يعرف مقدار التعب الذي حل
بهم ، فليستريحوا اذن . لكنهم تحركوا بسرعة للعمل «الريس
ينضح ونحن نقف كالاصنام هو كهل ونحن شباب ؟ فكيف لا
يتعب هو ونتعب نحن ؟ لعينيك يا طروسي !»

عملت الايدي بتواتر متصل . الصفائح تنزل وتطلع ،
والظهور ترتفع وتنخفض بحركة مكوكية ، والماء يتناقص حتى
اصبح قليلا ، لا يغطي القدم .

التقى الصحيفة جانبا ، وغمس يديه في القاع متحسسا
ثم تناولها من جديد ، واخذ ينضح : همتكم يا شباب ، نجحنا هه «
فصاحوا « لعينيك » واجابهم : « عشتم ، مثلكم تكون الرجال »
وحمي وطيس العمل . جعلوا ينضحون بقوة واندفاع وغضب ،
يشعور بحارة تلقوا لتوهم تحية من ريسهم . لقد خبروا مثل
هذا العمل ، وكابدوه كثيرا ، ويريدون ان يعطوا برهانهم ، ان
يثبتوا انهم رجال ، بل « مثلهم تكون الرجال » .. باعدوا ما
بين اقدامهم ، وثبتوا الصفائح في ايديهم ، ومتحوا بعزيمة من
يتصدى الى نبع ويريد ان ينشفه . وكانت « للنبح » روافد من
الموج والمطر ، ولعزائهم روافد من الثقة والصبر ، فاستحالت
العملية الى صراع ، ولم يقصر البحر ولا قصر البحارة ، وفي
غمرة هذه « الرقصة الافريقية » العنيفة الساخبة ما بين
استقامة وانحاء ، جاءتهم صيحة الطروسي : « كفى ! فكفوا »
والقى بالصحيفة في المؤخرة ، وخلع سترته وصاح :

- افتح الباب يا معلم اسماعيل .

وفتح اسماعيل الباب ، فعمد الطروسي الى فرش
سترته تحته ، وعاجله بصوت حاد :

- اغلق الآن ، لا يهمك ان تتقرض السترة ، اسرع ،
اسرع ، اذا احكمت الاغلاق انقطع تسرب الماء ..

وانغلق الباب ، فصاح الطروسي :

- دور الموتور على كيفك الآن ، قل يا الله ..

كانت الحركة سريعة الى درجة اذهلت اسماعيل ، وظل
الطروسي بالقميص والشروال فقط : « انا لا ابرد ، فهل
تشعرون انتم ببرد ؟ سيا يا احمد سيا »
تنفس الهواء ملء رئتيه ، فاحسه منعشا ، ومد يده

فأزاح الشعر عن عينيه ، واحكم وضع طاقية الصوف البحرية ،
واتجه الى الدفة قائلا « آن اوان الانعطاف في خط شمالي
يعيل الى الغرب حتى تصبح الريح في مؤخرة الزورق ، وبذلك
ندرك الرحموني قبل فوات الاوان »

ومضى الزورق بمخر كمثقب آلي يحفر في صخر ، ويهدر
هديرا داويا ، والرذاذ يتطاير كسحابة اثارها زوبعة في
ارض رملية ، والطروسي وقد استعاد هدوءه ، يحرك الدفة
ويحرق امامه كأنه يرى في الظلام .

تناوب البحارة بعد ذلك ، نضح الماء المتجمع ، واستند
احمد بظهره الى مؤخرة انزورق ، وحرق في الطرف المواجه
له من وجه الطروسي ولم يتكلم . كان اول درس جدي في
اصول المهنة تلقاه في حياته كلها . ولقد ود ان يفعل ايما
شيء ، ان يقوم باية مخاطرة ترضي الرئيس وترفعه في نظره .
لقد كان البحر ، قبل اليوم ، مجرد تسلية بالنسبة اليه .
كان الهية لا اكثر ، مجالا للتسكع والشقاوة بين السفن والميناء ،
ورحلات صيد صغيرة ، وحناقات لا تنتهي مع البحارة ،
وتهريب تبغ ، والقاء ديناميت ، وسباحة ، ولعب « باصرة »
في المقهى . وكان يفعل كل ذلك بلا وعي ولا ارادة ، ولم يكن
يحس بسعادة ولا تعاسة ، بل مجرد تصريف لطاقة جسدية
شابة وعارمة ، مع رغبة تتبدى حيناً بعد حين في تعلم المهنة
فلا تلبث ان تصطدم بسخرية اصحاب المراكب وعدم ثقتهم به
« انت لا تصلح للشغل ! » فاذا اصر على انه يصلح وتوسل
وعده بان يأخذه معهم في السفرة المقبلة ، ولكن هذه
« السفرة المقبلة » لم تكن تقبل ابدا .

مرة واحدة رضي ريس ان يأخذه معه في سفرة بعيدة ،
لكنه اشترط عليه ان يقوم بخدمة البحارة فرفض . ربما كانت
الخدمة في ذاتها لا تخجله او تتعبه ، وربما قام بها مقطوعا حين
يصبح على ظهر المركب ، غير ان الشرط المسبق آلمه ، فلماذا

اشترط عليه الرئيس ان يقوم بخدمة البحارة ؟ الا يصلح لشيء
سوى ان يكون خادما اذن ؟

وها هو الطروسي يرفعه من خادم الى بحار ، ويسلمه
الدفة ، فكيف فعل ذلك ؟ ان احمد لا يدوس الآن على خشبة
تتأرجح على ماء . ان قدميه على صخر ، وان نفسه لمفعمة
بالثقة والسعادة ، وانه ليحب هذه الرحلة رغم الخطر . ويجب
ابحر والطروسي والحياة . فقد اصبح بحارا الآن ، ووجد
ذاته التي كانت ضائعة في فراغ العطالة فهتف « العمل ! ما
الد العمل ! ما الد العمل ! » ثم نادى بصوت عال :

- يا ريس ..

- ايش ..

.. ..

- لماذا سكوت ؟ هل تشعر بوجع او دوخة ؟

- لا اشعر بشيء ، انا مبسوط .

- ولماذا ناديتني ؟

- اردت ان اسمع صوتك فقط ، ابن صرنا الآن ؟

- لا اعرف بالضبط ، ولكننا اقتربنا ، سيساعدنا الضوء

على التفتيش ، نجمة الصباح بانت واختفت وراء الفيم فقال
بحار وهو يضرب بقبضتيه على صلبه :

- خذ عني يا احمد .. تكسرت يداي (وبصق فسي

البحر واضاف) احس بانني شربت قنطارا من الملح .

وشجعه الطروسي :

- يا الله يا احمد ، لم يبق الا القليل ، لو كان الرحموني

مكاننا لفعل مثلنا .

جاءت هذه الكلمات متأخرة ، فاحمد يعمل بدونها . قال

في نفسه « لو يرضى الطروسي بأن اقطع المسافة المتبقية

الى الرحموني سباحة لما تأخرت .. لم أعد احس بالتعب ..

آه لو كان ابو محمد معنا » .

تبلجت اشراقة من ضوء القمر تمزق البساط الغيمي
الكثيف ، فاستطاع الطروسي والبحارة ان يرى بعضهم بعضا،
وان يروا ما حولهم ، فرفعوا رؤوسهم الى الفتحة المضيئة في
السماء ، وحدقوا فيها كأنهم يلوذون بهدايتها للخروج من
المتاهة التي ضلوا في بيدائها .

وزعق بحار وهو يشير الى جانب الزورق :
— انظروا !

كان زوال اسود يتحرك على الموج .. يبين ويختفي ،
ويلوح حيناً مستطيلاً وحيناً مسطحاً ، ويتأرجح كمواجة
مربوطة الى القاع ، والامواج تتقاذفه في اتجاه الريح .
فقال الطروسي وقد اتبع بصره اشارة البحار :
— نعم ، نعم ، انظروا ..

والتحم المزق الغيمي في السماء ، فقايت صفحة الماء،
وسادت العتمة ، وجمد الرجال وهم يسددون نظراتهم نحو
الزوال لعلهم يتبينونه .

وتراكضت الفيوم السود الزاحفة من الغرب ، ففطت
البقعة المضيئة ، وامتدت طبقة اسفلتية فوق اشعة التسي
فتحت اشعاع القمر، وتجددت نوبة الصرع في الجو، حتى
اضطر الطروسي الى شد قبضتيه على الدفة ، والانحراف قليلا
عن خط السير. فلما شرع البحارة في التكهّن حول ما راوا قال:
— اظنه لوح خشب، انتبهوا جيدا بعد الآن .. سندور
نبحث في هذه المنطقة ، فجهزوا الطوافات والسلم والحبال
واستعدوا .

مضت فترة صمت .. اتعيون وحدها نطقت بما في
السرائر من قلق وامل وتوقع للعجوبة التي ينتظرون ان
تحدث في كل لحظة ، واخذ ثوب الليل يتشقق فتتسلل
منه خيوط الفجر ، والرجال يتهياون للعمل : يمسكون بادوات
الانقاذ وينتظرون ، والريح تعصف بالزورق ، وتلاعب بهم

في عنف حتى ليخيل لمن يراهم انهم هم الضائعون لا الرحموني
وبحارته .

على ان شيئا جديدا طرا في هذه اللحظات فنشر الطمانينة
في قلوبهم : انه الفجر ، المكافاة التي منحتهم اياها السماء على
صبرهم الطويل ، وقد شعروا ان صدورهم ، هي الاخرى ،
تضيء من الداخل ، وان ثقلا يتزحزح عنها ، وسكينة تشيع
في نفوسهم القلقة المعذبة . وبدأوا يميزون ما حولهم تماما،
ويرون جبال الامواج المتدحرجة نحوهم من بعيد ، والجو
القمطير ، وابعاد الجهات الاربع .

واهم من ذلك كله ، اصبحوا يرون بعضهم بعضا ويلقون
نظرة على انفسهم ، ويستطيعون تجنب الرذاذ ، ويستمدون
من الضوء عزما بعد ان بهظت الظلمة اعصابهم خلال هذه
الساعات الطوال .

وابصروا ، في الصبح المبكر ، زوالا اخر يطفو على وجه
الموج ، وينساق معه ، ويضطرب بين مطاويه ، وايناب الزبد
تنهشه بغير طائل ، ثم تلفظه ، ويؤثرها الحنق فتشب عليه
وتعركه من جديد .

كان الطروسي اول من شاهد الزوال هذه المرة فصاح:
— مجذاف يا شباب !

وساد صمت بالغ الكتابة ، سمحوا له بانفسهم ان يسود .
« مجذاف . فهل ماتوا اذن ؟ » — تساءلوا في ذات
انفسهم .

« نعم ماتوا » — اجاب المجذاف الملقى كبندقية في
ساحة المعركة ، كفرس تعود بدون فارسها .

وظل البحارة يحدقون فيه وكل منهم ينتظر الاخر ان
يقول شيئا ، ان يبدد الصمت والحزن والاحاسيس المأتمية،
فيما الريح تعوي من ورائهم ، كأنهم بقايا كتيبة مهزومة تطاردها
كلاب المنتصرين ، والبحر يحمل اليهم كلما قطعوا مسافة ،

اثرا جديدا من آثار رفاقهم الذين مضوا ، ويدور بهذا الاثر من حولهم ليقتلهم اشفاقا وخوفا ، ويستل قواهم بهذه الطريقة الخبيثة ، قبل ان يوجه اليهم طلقته الاخيرة : طلقه الرحمة .
وتساءل بحار وهو يداري عواطفه وتعاسته ويطرد وساوسه بالكلام :

— ترانا تأخرنا يا ريس ؟

قال الريس في نفسه : « ليس هذا بسؤال . انه دعوة الى الرجوع ، لهات انسان تعب يفكر بالكف عن المقاومة ، عليك يا طروسي ان تجيب ، ان تشجع ، ان تبث العزيمة من جديد . لقد تعب البحارة ، وتعبت انت ايضا ، والعاصفة تتجدد ، والمجازيف والواح الخشب نذر تصرخ في اذنك ، وتقول لك انك في وادي الموت . هنا تبدد الرحموني وبحارته وابتلعتهم الاعماق ، هنا ماتوا وطافت اشياؤهم على السطح ، ولكن لا بد ، لمداراة العواطف النائرة ، من كلمة عزاء تمسح على القلوب ، او كلمة نصح تشد الهمم ، فاية كلمة يمكن ان يقال وان تؤثر وتدفع هذه النفوس الواجفة المقرورة ؟ »

والتفت الى البحارة وقال غير مبال بسوى الحقيقة .
— نعم تأخرنا ! (واضاف بعد وقفة هدهديها مشاعره)
ومع ذلك فقد فعلنا كل ما في وسعنا . قمنا بواجبنا ، وما علينا الا ان نتابع السير مع الريح ، فالموج يقذف بالحطام الى الشاطيء .

قالها ببساطة وسكت ، مديرا ابدا ظهره اليهم ووجهه الى البحر . وخيم من جديد صمت موشح بالاسى ، وشرع الزورق بالعودة الى البر .

لقد سكت المتجرون على البحر ولم يبق الاه متكلما ، وناح في العالم الداخلي لكل منهم صوت المرثاة التي تمسح بكفها على القلب الحزين ولكنها تعجز عن تبديد الحزن ذاته ، وشعروا بثقل التعب فجأة ، فأرخوا سواعدهم على جنوبهم

وسكتوا . لم يعد احد منهم يسأل ، واحمد نفسه لم يعد يسأل ، شعر ان كلمات الطروسي شوكية تغرز في حلقة ، وعرف انها تعني شيئا قاسيا اكثر من كل ما سمعه البحارة في هذه الليلة واستغرب ان تتسبب رؤية مجذاف ضائع بكل هذا القدر من الاسى والياس ، وان تقطع الرجاء الذي لم تقطعه العاصفة ، وآلمه اكثر ان هذا الاسى والياس شارك فيهما الطروسي ايضا ، وتساءل : « الطروسي !؟ هو نفسه يدير الدفة ويعود مستسلما الى القدر !؟ وعملية الانتفاذ تنتهي بدون انتفاذ !؟ والذين على الشاطيء !؟ ونساء البحارة واولادهم !؟ »

— انظروا ..

كان مجذاف اخر يضطرب في دوامة الموج . انها النهاية الفاجعة للرحموني وبحارته تتأكد بما لا يقبل الشك .

قال الطروسي :

— قد نجد بينهم احياء . لماذا تسكتون هكذا ؟ اهو شيء جديد علينا ؟ البحر جديد عليكم ؟ غدا تنسون ، وفي البر تتمرجلون ، وابن الجمل ، تفو ، كان يتمرجل على البحر في المقهى ، يقول انه ملك البحر .

هز راسه بأسف وعصية ، وقضم شعرات شاربه بفضب ، وانقلب من الوجوم الى الاهتياج بدون مبرر . كان ساخطا على القدر والحظ والدنيا كلها ، وتذكر غطرسة ابن الجمل وتفجرت اعصابه وافرزت مادتها السامة الحبيسة نرقا ورغبة في الشتم والقتال ، ثم هذا كما بدا ، وممرت أزمته النفسية بهذه الفورة وانطلق الصمام ورجع الفطاء الى موضعه ، واشتهى سيكارة اسرع بها اليه احمد ، لكن الماء لم يلبث ان اطفأها فأبقاها في فمه وراح يمضغ التبغ .

اشعل البحارة ، بصعوبة ، سيكارة اخرى ، فتركها لهم ، وكان الصباح قد اشرق ، واصبحوا يشرفون على ما

امامهم حين يرتفعون على الموج ، ولم يخرجوا من تقديراتهم
بأية نتيجة .

سأل احمد عن الشخورة وما اذا كانت قد تحطمت
فاجابه اسماعيل « لا بد انها غرقت كلها ، لاننا لم نر صواري
والواح خشب » ثم سأل عن الفلوكه والطوافات ومصير الذين
غرقتوا ومتى يلفظهم البحر . كان يتكلم بلجاجة حتى ضجر
الطروسي وكاد يصيح به . « كفاتا اسئلة ! » لولا انه نظر
الى وجه الفتى ، ورأى ما ارتسم عليه من امائر الجهد
والتجهم ، فأخذته به رافة وادرك انه معذور في اساءه لمراى
الموت ينزل بالناس على هذه الصورة البشعة .

وتفرس احمد في البحر . انه بحر آخر هذا الذي
يراه . نيس ازرق كما عرفه ، ولا وادعا كما كان في الصيف ،
ولا منبسطا كما عهدده على الشاطئ . ان فيه جبالا ووديانا
ولونا اغبر ، وفوقه سماء دكناء تذكر بالصورة التي تكونت
في ذهنه عن الساحرة الشريرة في حكايات خليل العريان ،
والحياة فوقه مخيفة لا تشبه الحياة على اليابسة باي شكل .

وكانت العاصفة قوية ما تزال ، ولكنها لم تعد مخيفة
كما كانت في الليل . ساعد الضوء الطروسي على اعتلاء
اكتاف الموج بمهارة ، وكان يعلم ان الجو سيتغير في الصباح ،
وان الريح العاتية سيدركها الاعياء فتستكين ، ولن يلقي في
طريق العودة ما لقي في المجيء من اخطار ، وعليه ان يتابع
وهو يعود ، البحث في المنطقة التي ظهرت فيها المجاذيف .

ان السير مع خط الطول ايسر ، ولكن الريح تدفع
الزورق بسرعة ، وهو يريد ان يتمهل ويسير في خط دائري
متكسر ، وقد خفف اسماعيل السرعة كثيرا ، الا ان الريح
تقوم بعملها بشكل لا حيلة فيه .

مضت نصف ساعة اخرى . كانت اشراقه الصباح قد
اكتملت ، والرؤى البعيدة توضحت ، وكل شيء من حولهم

بدل على انتهاء مهمتهم ، حين قرعت المفاجأة ابواب افئدتهم
قرعا عنيفا اضطربت له حواسهم ونشطت وتوترت وتبلبلت
حتى لم يعودوا يعرفون كيف حدث ذلك ، وهل ما راوه حقيقة
ام خيال صورته لهم الوهم ليعبت بهم ويرى الى وقع الحدث
في نفوسهم .

كانت امامهم ، على مسافة غير بعيدة ، شخورة تلوب
على سطح الماء ترتفع على ذرى الامواج وتغور في مهاوئها ،
وتميل على جانبيها وتتخبط وتخبط يائس من نجاة .

ولم يكن معهم منظار . ولو كان لما استطاعوا ان يروا
فيه بأوضح مما ترى عيونهم التي تظللها الاهداب . وكان لا بد
لهم ان يقتربوا اكثر ، ويتأكدوا مما يرون . الا ان رجب حكم
فورا بانها شخورة الرحموني ، فصاح البحارة بصوت واحد :
« يا الله » ، وفرك احمد كفيه واستعد ، واسترد جميع الذين
في الزورق امامهم ، وانتظروا ان يقول الرئيس كلمته ، وان
يأخذ بهم اليها في خط مستقيم .

وجاء راي الطروسي مؤيدا : « ارجح انها هي » ثم جزم
قائلا « هي بالذات » وادار الدفة وهو يصيح « هورسا
هورسا » ونفر البحارة عندئذ وادركوا ان ساعة العمل قد
ازفت ، وراحوا يفردون التحبال ، ويربطون الطوافات ويعدون
اطواق النجاة ، وانحنى الطروسي على دفته وقد تحكّم
باعصابه ووفزها للعمل ، وحث بحارته صائحا : « اسرعوا
اسرعوا ، دور موتورك بأقصى سرعتك يا اسماعيل ، هيا . . »

ثم كل شيء بسرعة ، واندفع الزورق الى امام ، لكن
الريح جبهته بعنف واضطرت الى الانحراف ، فانعطف به
الطروسي في دورة نصفية وقال . « اقتربنا هه ، كل واحد
يعرف عمله ، كبروا ، كبروا يا جماعة »
— الله اكبر ، يا واحد يا قهار .

اقترح احمد ان يغنوا حتى يسمعهم الذين في الشختورة ،
وكانما استسحف فكرة الفناء فاندفع يصيح بكل ما في حنجرتة
من قوة « جيناكم يا شباب ، جيناكم هه ، لا تخافوا » .

كان الزورق يعلو ويهبط ، كأنه فرس تسير خبياً ، فلما
ذهبت اصوات البحارة سدى ، مد الطروسي يده في طيات
ثيابه ، بين الزنار والشروال ، واخرج مسدسه « الذي لا
يروكب » واطلق رصاصة وانتظر ، ثم اطلق ثانية وكف . اعاد
المسدس الى مكانه وقال :

— ليس في الشختورة احد .

انصبت كلماته القاطعة كماء فوق ناره . انطفاة الحماسة
كما اشتعلت ، وغاص الامل مخلفا مكانا لخيبة جديدة ، ثم
جاءهم قرار الطروسي : « لن اترك الشختورة تضيع » فتطلع
بعضهم الى بعض بدهشة واستغراب « هل جئنا لننقذ
الرحموني واليخارة ، ام لننقذ الشختورة ؟ وكيف ننقذها وهي
محطمة ؟! »

اما الطروسي فكان يفكر على نحو آخر : « سأنقذها
مهما حدث . لو وجد من ساعدني على انقاذ مركبي لما كنت
قهوجيا الان ، ولو قدر للرحموني ان يكون حيا ، فاية فرحة
سيستشعرها وهو يرى الى شختورته تعود الى الشاطئ ولو
حظا ما ؟ لقد انزلنا مركبا جديدا وفرحتنا به امس ، فاذا
انقذنا هذه الشختورة سنفرح بها اكثر اليوم . انها ضائعة ،
وفرحة لقيائها اعظم ، ولو حملوا اي جزء من « المنصورة »
لاحتفظت به كذكرى مدى العمر » .

على ان البحارة لم يكونوا ، برغم حبههم له ، راضين عن
قراره الذي فرضه عليهم بغير رأي ولا مشورة . ان لهم
اولادهم وزوجاتهم وحبهم للحياة ، وقطر الشختورة المحطمة
مخاطرة كبرى ، وسيكون على الزورق ان يربط مصير
بمصيرها ، وان يتخبط مثلها وهو يسحبها في هذا التواء .

لم يجهروا بهذا الذي فكروا فيه . كانوا على رجاء في
ان يجدوا بعض البحارة احياء على الشختورة ، وان ينقذوهم
ويدعوا ما تبقى طعاما للبحر ، اضافة الى انهم يعرفون طباع
الطروسي جيدا ، فاذا هم بشيء فعله ولو وحده ، ولا تنفع فيه
معارضة ولا ينمر اقناع .
ثم حدث ما لم يكن بالحسبان .

ففيما كانوا يدبرون هذه الافكار في رؤوسهم ، كان
الطروسي يتخفف من ثيابه . نزع الزنار والمسدس واعطاهما
الى احمد ليضعهما « في مكان لا يصل اليه الماء » وخلع
الشروال وناولته اياه ايضا ، وبقي الشروال الداخلي ، في
وضع لم يره البحارة عليه قبل الآن . ثم انعطف بالزورق في
اتجاه جديد ، ليأتي الشختورة من وراء . وبعد ان وضع
الزورق في الاتجاه المطلوب ، اندفع الى امام في خط مستقيم ،
نقطته الرئيسية على امتار من الشختورة .
— سأرى ما فيها اولا ..

كذلك اعلن وهو يمضي نحو هدفه . وظهرت الشختورة
واضحة الآن : الساري الامامي شبه محطم ، والخام ممزق
الا بعضه ، والفلوكة الصغيرة غير موجودة في مكانها ، والماء
يفمر السطح وينساح منه ، وليس من اثر للبحارة .
واقتربوا اكثر ، فاذا باعصار شديد ينفجر ، كأنما
ادركت العاصفة ان فريستها تكاد تغفل منها .

وهكذا خابت المحاولة الاولى ، وجاءت المحاولة الثانية
اكثر خيبة . ولم يعودوا يرون ما في داخل الزورق الذي
اصيب بلطمة في مؤخرته ، واذا ذلك فهم احمد ان مجرد رؤية
الشختورة لا يعني انقاذها ، واستشعر رهبة لم يعهدها من
قبل ، وعرف ماذا يعني ان يكون الانسان بحارا ، وان ينتزع
لقمته من اشدق الانواء .
اما الطروسي فقد بدا معذبا بتفكير ترف منه على وجهه

ظلال قاتمة . كانت شفتاه مطبقتين ، وبطنا ساقيه متوترتين بفعل ضغط القدمين على خشب الزورق ، وكان ظهره منحنيًا كزاوية منفرجة وراء الدفة ، والريح تتلاعب بشعره المبلل ، وتفاحة ساعده متقلصة كبطة رجله ، وكانت عيناه حمراوين من السهر وملح البحر ، وجرح على جبينه نز في وقت ما ثم توقف وتسليخ ، ومن هيئته كلها يتجلى التوفر والعناد ، كنمر يرتكز على قدميه ، يتحدى صياده ان يطلق النار ، ويتحفز للانقضاض عليه في كل الاحوال .

قال في نفسه :

« يا للهول يا طروسي! انظر الهاوية الفاغرة فاها كأنها تتحداك ان تقترب اذا كنت لا تخشى الموت ، ويا للهول يا طروسي اذا تأخرت فان وراءك انهيارا مائيا سيطويك ، وها هو الرذاذ قد استحال الى ضباب حجب عنك الوجود واعمى ناظريك . . دع شختورة الرعموني فانها ولجت عتبة العدم القاسي واستسلمت لنداء القاع . . اتركها وعد ، فقد قمت بما عليك . وليس في استطاعتك ان تتجاهل المصير المشؤم لمفامرتك العنيدة . أن عيوننا من حولك تنظر اليك فما أنت صانع الآن ؟ وهل تصر على انقاذ الشختورة ام تنجو بنفسك وبحارتك وتتركها ؟ »

ابتعد الزورق مندفعًا مع الريح ، حتى حسب البحارة ان الطروسي اقلع عن محاولته واعتزم انعودة الى الشاطئ . . كانت الدنيا سوداء كأن الليل قد اغتصب جزءا من النهار والاعصار يدور بالفضاء ، ويشير وراءه زوبعة تهيج الكائنات ، والطروسي يفكر ساهما . بماذا تفكر يا طروسي ؟ ان في داخله شعورا بالتضحية يتسامى ويدفع به الى الطرف الاقصى من المفامرة . لقد قرر ان ينقذ الشختورة مهما حدث ، فاذا به يوشك ان يخطر بالزورق والبحارة ويختتم حياته خاتمة لا يعرف اهو فيها على خطأ ام صواب ، فاذا كان على خطأ

ظلت جريرة الذين اوردهم الهلاك في عنقه، وقال البحارة عنه انه احرق ، واذا عاد خائبا قال البحارة انه جبان ، ولا يكون في كل الاحوال قد فعل شيئا ينجي الرعموني، ولا اعاد الشختورة التي هي خير عزاء للعائلة المرزوة فيما لو فقدت معيها .

لمعت هذه الافكار في رأسه كوميض برق متقطع . ومن ورائها كلها كان دافع اقوى يدفع به الى الاقدام في ولوج باب الخطر . انه الشوق الى معانقة الشهادة في ساحة المعركة، والرغبة الآسرة في توكيد رجولته على نحو اقوى من كل ما سبق . ثم هذه هي امنيته التي كان يضمها وتخدعه نفسه عن حقيقتها . امنية الرئيس في ان يعود الى الشاطئ قاطرا وراءه الشختورة التي حسب الجميع انها ضاعت الى الابد .

انتهى الى رأي قاطع : « متابعة المفامرة ! »

الخطوة واضحة امامه، وما عليه الا ان يبدأ بتنفيذ ، ولكن عليه : قبل كل شيء ان يصارح بحارته بما اعتزم . ناداهم اليه وهو في مكانه من الدفة . فلما اقتربوا رنا اليهم في حنان كأنه يودعهم واحدا واحدا . كانت يدها الصلبتان تقبضان على الدفة ، واسنانه مطبقة ، وعيناه تلتمعان بشعاع يكشف عن تألق شعلة نفسه المقبلة على تضحية كبيرة .

قال وفي صوته تهدج غير خفي :

— اسمعوا يا شباب !

وسكت .

انقبضت قلوب البحارة لهذا السكوت ، واحسوا ان وراء هذه ال « اسمعوا » شيئا خطيرا زاد في خطورته ان الطروسي مهد له بسكوت غير معهود .

واضاف بجرس صارم لا اثر للوهن فيه « سأنفذ قرارى بانقاذ الشختورة » .

انزاح شيء ما ضغط لاول وهلة على صدورهم . ليس

من جديد . هم يعرفون انه قرر ، وانه سينفذ قراره بالعناد الماثور عنه ، فلماذا اذن هذا السكوت وهذه الخطورة ؟ ولماذا جمعهم حوله ؟!

تابع الطروسي كلامه قائلا بنفس اللهجة الصارمة « خذوا الزورق وعودوا الى الميناء » .
- وانت يا ريس !

كذلك صاح اسماعيل مستوضحا ومحتجا كانه يقاوم شرا يوشك ان يقع .
- انا سأترككم واذهب الى الشختورة .

دوى في هذه اللحظة رعد قاصف في السماء ، وهطل المطر فورا كانه اعتزم ان يمحو اثر كلمات الطروسي فسي نفوس بحارته ، وانقضت دقائق مثقلة بالصمت لا تنفع في تبديده الكلمات المعتادة ، واستطاع البحارة ان يردوا اخيرا ، وان يعلنوا بانهم يفضلون البقاء معه .

لم يجبههم فورا . انتظر حتى اجتاز مطبة موجية ، ودار باتجاه الشختورة وقال :

- لا اريد مناقشة ... انا الريس هنا ، والزورق في عهدي . خذوه كما قلت لكم واذهبوا ، اما انا فسألقي بنفسي في الماء واصعد الى الشختورة . لا تخافوا علي فأنا سباح قديم ، وسأصعد الى ظهر الشختورة وأمنعها من الفرق ، وسأنقذها واعدو بها الى الميناء ، او اظل فيها حتى اراها تفرق امام عيني واقطع منها كل امل . ستقولون « لماذا لا نقطرها ؟ » وانا مثلكم فكرت بهذا ، ولكن قطرها بالزورق لن يؤدي الا الى غرق الاثنين . النوء شديد وسيقطع الجبال ، ولذا تركناها تستغرق لا محالة . وفي كل الاحوال انا افهم بلغة الشخاتير ، وسترون كيف اصنع اذا لم تكن قد ثقت بعد ، وفي هذه الاثناء تكونون انتم قد بلغت الشاطئ ، واخبرتم بما وقع ، لا بد ان يهرع البحارة لنجدتنا .

- واذا غرقت الشختورة بعد ذهابنا ؟
- اعود سباحة الى الشاطئ ، وهذا سهل عليّ .
فهموا انه تحاشى ان يقول « اغرق معها » ، وذلك لكي يطمئنهم ويحملهم على الرضوخ .
- هذا كلام ! انت تخشى علينا ولا تخشى على نفسك .
- فسروا كلامي كما تريدون .
- ولماذا نبقي منتظرين في الزورق ؟!
- وما النفع من الانتظار ؟ اذا بلغت ظهر الشختورة فلن اتخلى عنها ، وسأبقى على سطحها ما بقيت ، وربما طالت المدة وانتهى وقود الزورق ، وعندئذ ؟ فكروا ماذا يحدث عندئذ ! عودوا بالزورق واتركوني مع الشختورة وما عليكم من امري ، يا الله استعدوا .
نظر البحارة بعضهم الى بعض . « هل نترك الطروسي يضيع كما ضاع الرحمنوني ؟ »
جربوا نصحه للمرة الثانية فما تراجع .
- لا تنموا . هذه الدورات التي ادورها ليست في البحر بل في رأسي . فكرت كثيرا قبلكم وانتهى الامر ، تيسروا والله معكم .
اصلح الدفة التي سها عنها فمالت بين يديه . كانت الشختورة تختلج كطير ذبيح ، والامواج تضربها من كل جهة ، فتذكر فؤاد المرسيني الذي نزل الى السفينة الفارقة قرب الميناء ، يسبح ويفطس وينزع صفائح الكاز من جوفها ، فيعومها ويعطيها للبحارة الفقراء يبيعونها ويفرجون ضائقتهم . لقد نزل فؤاد الى قاع السفينة الفارقة مرة ولم يستطع الصعود . اضاع الطريق وهو تحت الماء فمات مختنقا ، ولما اخرجوه في اليوم التالي بكى جميع البحارة ، وشيعوه وهم يتحسرون « لقد خاطرت بنفسك يا فؤاد لاجلنا ، مت وبقينا ، يا زينة الرجال ، يا زينة البحر ، كيف قتلتك البحر ؟ »

من جديد . هم يعرفون إنه قرر ، وأنه سينفذ قراره بالعناد
المأثور عنه ، فلماذا إذن هذا السكوت وهذه الخطورة ؟ ولماذا
جمعهم حوله ؟!

تابع الطروسي كلامه قائلا بنفس اللهجة الصارمة
« خذوا الزورق وعودوا الى الميناء » .
- وانت يا ريس !

كذلك صاح اسماعيل مستوحشا ومحتجا كأنه يقاوم
شرا يوشك ان يقع .
- انا سأترككم واذهب الى الشختورة .

دوى في هذه اللحظة رعد قاصف في السماء ، وهطل
المطر فورا كأنه اعتزم ان يمحو اثر كلمات الطروسي فسي
نفوس بحارته ، وانقضت دقائق مثقلة بالصمت لا تنفع في
تبديده الكلمات المعتادة ، واستطاع البحارة ان يردوا اخيرا ،
وان يعلنوا بانهم يفضلون البقاء معه .

لم يجبه فورا . انتظر حتى اجتاز مطبة موجية ، ودار
باتجاه الشختورة وقال :

- لا اريد مناقشة ... انا الريس هنا ، والزورق في
عهدي . خذوه كما قلت لكم واذهبوا ، اما انا فسألقي بنفسي
في الماء واصعد الى الشختورة .. لا تخافوا علي فأنا سباح
قديم ، وسأصعد الى ظهر الشختورة وامنعها من الفرق ،
وسأنقذها واعدو بها الى الميناء ، او اظل فيها حتى اراها
تفرق امام عيني واقطع منها كل امل . ستقولون « لماذا
لا نقطرها ؟ » وانا مثلكم فكرت بهذا ، ولكن قطرها بالزورق لن
يؤدي الا الى غرق الاثنين . النوء شديد وسيقطع الجبال ،
ولذا تركناها قستفرق لا محالة . وفي كل الاحوال انا افهم
بلغة الشخاتير ، وسترون كيف اصنع اذا لم تكن قد ثقبت بعد ،
وفي هذه الاثناء تكونون انتم قد بلغت الشاطئ ، واخبرتم
بما وقع ، لا بد ان يهرع البحارة لنجدتنا .

- واذا غرقت الشختورة بعد ذهابنا ؟
- اعود سباحة الى الشاطئ ، وهذا سهل علي .
فهموا انه تحاشى ان يقول « اغرق معها » ، وذلك لكي
يطمئنهم ويحملهم على الرضوخ .
- هذا كلام ! انت تخشى علينا ولا تخشى على نفسك .
- فسروا كلامي كما تريدون .
- ولماذا نبقي منتظرين في الزورق ؟!
- وما النفع من الانتظار ؟ اذا بلغت ظهر الشختورة فلن
اتخلى عنها ، وسأبقى على سطحها ما بقيت ، وربما طالت
المدة وانتهى وقود الزورق ، وعندئذ ؟ فكروا ماذا يحدث
عندئذ ! عودوا بالزورق واتركوني مع الشختورة وما عليكم من
امري ، يا الله استعدوا .
نظر البحارة بعضهم الى بعض . « هل نترك الطروسي
يضيع كما ضاع الرحموني ؟ »

جربوا نصحه للمرة الثانية فما تراجع .
- لا تتعبوا . هذه الدورات التي ادورها ليست في
البحر بل في رأسي . فكرت كثيرا قبلكم وانتهى الامر ،
تيسروا والله معكم .

اصلح الدفة التي سها عنها فعالت بين يديه . كانت
الشختورة تختلج كطير ذبيح ، والامواج تضربها من كل جهة ،
فتذكر فؤاد المرسيني الذي نزل الى السفينة الفارقة قرب
الميناء ، يسبح ويفطس وينزع صفائح الكاز من جوفها ،
فيومها ويعطيها للبحارة الفقراء يبيعونها ويفرجون ضائقته .
لقد نزل فؤاد الى قاع السفينة الفارقة مرة ولم يستطع
الصعود . اضاع الطريق وهو تحت الماء فمات مختنقا ، ولما
اخرجوه في اليوم التالي بكى جميع البحارة ، وشيعوه وهم
يتحسرون « لقد خاطرت بنفسك يا فؤاد لاجلنا ، مت وبقينا ،
يا زينة الرجال ، يا زينة البحر ، كيف قتلك البحر ؟ »

اسرّ الطروسي في نفسه « اما انا فلن يستطيعوا
اخراجي من هذه اللجة اذا غرقت .. سيذكرونني ويبكون ،
انا اعرف عواطف البحارة ، ولكن غرق واحد افضل من
غرق الكل » .

انتشله اسماعيل من افكاره وهو يقول :

– الا تقبل رجائي ؟

تفرس فيه وابتسم : « هذه قبلة لك يا اسماعيل ، اما
الرجاء فلا ، لا تلج »
سأله :

– وبماذا توصينا اذن ؟ ومن يتسلم الدفة ؟

– رجب ...

قالها فورا كأنه فكر فيها ايضا ورتب الامر ، ثم صاح
به : « تعال يا رجب تسلم الدفة » وخفق على كتفه مداعبا
ومشجعا وقال « اذهب مع سابلة الموج حتى تنتهي اسدورة
ويستقيم لك خط السير ، وبعد ذلك في حفظ الله الى
الشاطئ » .

تسلم رجب الدفة ، ووقف الطروسي على الحافة ،
وسكت احمد فلم يقل شيئا . ما اعترض ولا وافق ولا تدخل
في المناقشة . كان الطروسي يعرف أن تسليم الدفة الى
رجب سيصلدم الآخرين ، لكن رجب ، رغم ذلك ، اولى بالمهمة ،
باعتباره بحارا قديما محترفا ، وستساعده سنه على ضمان
احترام البحارة له وانصياعهم الى تعليماته اذا ما واجهتهم
مصاعب في الطريق . انهم ، الاربعة ، آجباء الى نفسه ،
اثيرون لديه . اسماعيل ورجب ورمضان واحمد ، هؤلاء الذين
نزلوا معه البحر الليلة ، وكانوا رفاقه في المعركة ، وعملوا
عملا جيدا ، الا انه يعرف أن رجب اكثرهم كفاءة وان يكن
اضعفهم بنية .

اكتملت دورة الزورق . وفيما كان البحارة ساهمين

يلفهم الخشوع لجلال الموقف، تعالت المياه كأن حجرا ضخما
القي فيها ، ولم يسمعوا الا كلمة واحدة « انتبه يا رجب »
وغاص الطروسي في اليم ، ثم ظهر رأسه اولاً ، فنفضه حتى
ابعد الشعر عن عينيه ، ثم ظهرت يداه ، واشراب بجسمه مع
طلعة الموج ، ومضى باتجاه مؤخرة الشخورة .

ان تأثير المواقف العنيفة ، العصبية ، يجمع القلوب
ويشدها ، ويجعل النظرات تنطق بما تعجز عنه الشفاه ، وقد
اقترب البحارة بعضهم من بعض ، ونظروا صوب الطروسي ،
وراوه يصارع الموج ، فانعقدت الستهم ، وتنهت غوارب
الشحن في قراراتهم ، وود كل منهم ان يقول كلمة يعبر بها
عن مشاعره ، لكنهم سكتوا كلهم ، كأنما اتفقوا على ان ليس من
كلمة تعبر عن اعجابهم بالرجولة الكبيرة التي تبدت لعينهم ،
فامسكوا بصعوبة كي لا يضعفوا ويقولوا ما لا يتناسب
مع الموقف الذي يتطلب شجاعة تعوضهم عن الشجاعة التي
كانت تملأ الزورق والطروسي يقف على دفته . اخذوا
يمضون ، والطروسي يمضي ، كل منهما في اتجاه ، وربما
الى غير لقاء .. الى غير لقاء .

وتقدم احمد من حافة الزورق تاركا الطوافات نسقط
من يديه ، وصعد الى قرب رجب ، وغار شيء ما بسرعة في
البحر .. حجر اخر ضخم سقط قارفع الماء الى اعلى ، ثم
تساقط رذاذه كمياء نافورة ، وانجلى عن رأس احمد وساعديه
وهو يلوح لهم بكفه مودعا .. متجها الى حيث مضى الطروسي ،
بغير سؤال او جواب .

– لا يا احمد ، لا ، ارجع الى الزورق ، ارجع ، تعال ..
انطلقت صيحات رجب وجلة آمرة ، ثم انقلبت الى نوع من
عواء يائس ، وبُحَّت فاستحالت رجاء وتوسلا ، وانقطعت حين
انطبق فكاه على خيبة وغيظ واشفاق . لم يبق له الا خشبة
الدفة يضبط عليها ، والا جذور اسنان يصر بها ، وصوتان

متلجلجان من حوله لا يفهم ما يقولان ، وابعاد تشرئب على اديمها وتحصب وتجمجم خيول هوج من الريح الصرصر .

اصبحوا ثلاثة في الزورق . رجب واسماعيل ورمضان .. ثلاثة معذبين ينشخ عليهم التعب والجزع والانكسار . لقد تحدى رجولتهم فتى كان بالامس هزائهم فأصبح اليأسوم اجراهم . لقد خدعهم عن فعلته ، واستهان بالخطر فلم يسألهم الراي في امره ولا النصح فيما هو مقبل عليه ، افيلظن انه مقدم اكثر منهم اذ فعل ما فعل ؟ ليمت ، لتبتله اللجة ، لتمزقه الوحوش جزاء هذا التحدي وهذه الرعونة .

تفرسوا فيه وهم يتعدون ، وتلفتوا الى مكانه الفارغ بينهم فوجدوه اكبر مما كانوا يتصورون ... كان شيئا ذا اثر في نفوسهم من حيث لا يشعرون ، كان فيه من الطروسي قبس يستدفئونه في جليد خيبتهم ، والتقت نظراتهم فحجل كل منهم من سوء ما فكر، واطرقوا واجمين ، فلما رفعوا رؤوسهم باتجاه الفتى السابح بين الامواج لاح الصفح والاستفغار في عيونهم ، وبان الاسى في وجوههم ، واذعنوا للواقع، فماعدوا الى التذمر والشكاة . لقد فهموا انهم ما زالوا في اللجة ، وانهم بحاجة الى الحب والتضحية والاتحاد ، واذعنوا لهذه الضرورة وارتضوها مرغمين ، فلكل منهم عمله، ولكل منهم افكاره وتعبه واساه ، وهكذا مضى بهم الزورق ابعد فابعد ، مخلفا وراءه الطروسي واحمد ، وكلما امعن في البعد ظهر الرأسان في فجوات الموج اصفر ، حتى غدوا نقطتين سوداوين ، ثم غابا رويدا رويدا عن الانظار .

١٥

كانت الدفة في شختورة الرحمنوني غير مطواعة لعبث العاصفة ، انما لم تكن تستقر في اي اتجاه . وكان الصاري مائلا ، وبعض الخام سليما ، الا انه انحل وتهاوى مع الحبال، وكانت المياه تفرغ بعض جوانب السطح فتفسله وتعود الى البحر ، وثمة طاقة بحار صوفية مبتلة ، وفردة حذاء باقية لم يجرفها الماء ، وقطع متناثرة من ادوات الصيد حول المرساة ، والامواج تتكالب على الشختورة فتنبش انيابها واطافرها فيها ، بيد انها ، في كل مرة تنوي الاجهاز عليها ، ترتد عاجزة عنها ، ويظل الهيكل الخشبي الضخم عصيا ، ولكن مترنحا من قوة الضربات، والزبد يرغي ويخر عاندا الى البحر . جاء الطروسي الشختورة من وراء .. كان يجاهد كي يمتنع على الموج الذي يهم به ليقذفه عليها ، وقد سبع مرات كثيرة الى وراء مرتدا بضعة أمتار كي لا يصبح تحتها ، وكلما حاول ان يشب الى مؤخرتها ، ارتفعت المؤخرة وبقي هو في القاع ، يرى الى بطن الشختورة ويحسب انها اصبحت فوقه ، فيضع يديه او رجله عليها ، ويدفع بجسمه الى وراء كي يتقي الارتطام بالهيكل الخشبي حين يصطفق الموج عليه هائجا مزمجرا .

وعندما اصاب حد الشختورة كتفه ، احس سكيننا او ساطور لحام قد هوى عليها ليقطعها ، وعاجلته موجة فجرفته الى مؤخرة الشختورة ، لكنه كان قريبا جدا فلم يصب الا بالأم خفيف في الظهر . ظلت ارادته قوية وجأشه رابطا . لم

يعد يفكر بشيء، في البحر ولد فاية غرابة ان يموت فيه ؟ ثم هو في قلب الخطر ولم يبق الا الكفاح حتى النصر او الموت . وحتى لو تلفت الى وراء طلبا للنجاة فانه غير مدرکها بأية حال . لقد « احرق السفن » وراءه متعمدا ليقطع كل طريق على وساوس الضعف التي قد تنتابه وتلح عليه . كان بإمكانه ان يبقى الزورق معه ، لكنه ، في هذه الحالة ، سينظر بعين الى امام وعين الى وراء، وسيظل نهبا للقلق، اما الآن فقد تخلص من التردد، وانتفت لديه فكرة التراجع ، وهو ، بعد ، غير آسف طالما اختار هذا المصير بنفسه .

قاوم بضراوة حتى لا يجرفه الموج عن مؤخرة الشخورة الى وسطها ، ورغم ذلك جرفه . وكان هذا من حظه . مالت حافتها الى جهته فابتعد قليلا حتى استقامت ، فلما مرت الموجة هوت الشخورة على جنبها ، فكانت تلك قرصته التي اغتنمها والقى بنفسه على الحافة وتمسك بها بانتظار الارتفاع، الا انه لم يفلح في تسلقها الى السطح ، وعليه ان يهوي مرة اخرى معها . تمسك جيدا ، بجماع قوته وارادته ، وانغمض عينيه وهوى ، ثم ارتفع جانب الشخورة فارتفع معه ، والتصق ببطنه على الخشب وارسل احدى يديه تحفرا للاظافر ممسكا على الظهر ، وصعد بعد مجاهدة ، وقبض على وتد وانبطح على الارضية الخشبية .

ظل كذلك برهة ريثما زايته الدوخة التي كانت قميئة بأن تجعله يفقد توازنه لو نهض مباشرة . انه لا يدوخ ، ولكن التعب هذه . لم يعد شابا كما كان ، وهو يعرف كيف يقدر قواه ويحافظ عليها او يستريح ليجددها . الشيء الوحيد الذي آلمه هو الشعور بأنه سيتقيا لكثرة ما انخفضت امعاؤه ، وكانت حرقه الملح تخرش الحلق وقصبة المري ، وكان عليه ، فوق هذا ، ان يلتصق بجسمه حيث هو ، ضاغطا بفعل ارادي عضلات بطنه على الخشب ، متشبثا بهذا الوضع لئلا يجرفه

الموج ويعيده الى البحر . حتى اذا نهض اخيرا ، مشتا قدميه في الارض ، متمسكا بالحبال والعوارض ، كانت عيناه تبحثن عن البحارة والدفة ، وكان ، بشعره المشعث ، وسرواله الملتصق على فخذه ، يشبه بحارا غريقا انقذته سفينة عابرة .

بقي دقائق يحرق فيما حوله ، ويستند على ما يراه قائما امامه ، وينقل خطاه بتمهل وحذر ، كانسان يفتش بين الانتقاض عن ضحايا اعزاء عليه .

وثمة : عند الدفة ، كان انسان يجلس عاقدا ساقيه حول سكرانه بشكل لا يدع مجالا للشك في انه مخبول يقبض على شيء جن به . فلما رآه الطروسي لم يحسبه بشرا حيا ، وتقدم بسرعة وانحنى فوقه ، ثم اطلق بوجل هذه الصرخة : سليم !

وحدقت به عينان جامدتان ، وتحرك فم ازرق الشفتين فما خرجت منه الا غمغمة خافتة . لقد احتبس الصوت في فم كف منذ وقت طويل عن التوسل والدعاء ، والتوى الراس على الصدر ، كانه كان ينتظر هذه اللحظة ليلتوي ، وظلت الساقان المنفرجتان متمددتين متخشبتين ، واليدان يابستين ، متلفتين حول الدفة في تشنج عصبي .

مد الطروسي يده الى الراس المتدلي فرفعه . كانت العينان قد انطبق جفناهما في همود كان دقات القلب قد توقفت وحجم القضاء ، فوضع كفه على الصدر ، وجس النبض وتأكد ان حركة بطيئة من التنفس ما زالت تتردد .

لم يعد يهمه من امر الشخورة الا مقدار ما هي صالحة لان تكون وسيلة لانقاذ انسان . الرحموني ما يزال حيا ، ان به روحا ، فما العمل لانقاذه ؟ يجب نقله الى « القمر » فقد تكون فيها ثياب اوشباك لم تبللها الامواج . ولكن الدفة ؟

من يمسك الدقة ؟ وكمنذب اكتشف ذنبه وندم عليه ، ضرب على رأسه لانه اصر على ذهاب الزورق . لقد اراد الحياة لمن فيه ، وها هو يفقد حياة اخرى ، يفقد حياة الرحموني الذي تكبد كل هذه الالهوال لانقاذه . وانه ليود من اعماق قلبه لو استطاع انقاذه باي ثمن . لو منحه حياته فعاد بها الى امراته واولاده ، لو افتداه اذا لم يكن بد من الغدية .

تطلع حواليه . انه يتأرجح على ظهر شختورة تتأرجح هي الاخرى على ظهر الموج ، والبحر الرحيب ، الفاضب ، ليس على سطحه اثر لمركب او شراع او سفينة ، والامواج تجأر قادمة نحوه من كل فج ، والريح تصفر والغيوم تتسارع ، ورعد يقصف في مكان ما من السماء ، منذرا باستئفاف المطر .

جثا على ركبتيه ، ولف الرحموني باحدى ذراعيه ، واستخلص الدقة بالاخري ، واستلقى الجسد المتلاشي على صدره ، فماذا بعد ؟

الدقائق تمضي مثقلة بحيرة معذبة ، والعاصفة ما برحت شديدة ، وليس الاله والرحموني والشختورة التائهة في عرض البحر ، وهدير يعزف لحنًا وحشياً كالقهقهة الداوية في قفر من الارض ، ولا مناص من الاقدام والتخلص من حالة الارتباك ، لا بد من القيام بأيما عمل ينقذ حياة الانسان السذي بين يديه .

حجج السماء بنظرة قاسية : لماذا انت قاسية يا سماء ؟ واولاد الرحموني على الشاطيء ؟ الاطفال الدارجون على الارض كتلا صغيرة من لحم ودم ، وعيون براقية ، وشعور مذهبة ، الا يشفع بؤسهم وانتظارهم الطويل بأن تمسكي لكي يعود اليهم والداهم فيمسح على رؤوسهم مرة اخرى ؟!

ولم تمسك السماء . . انها تبدو ، في وقت ما ، حجرا اصم ، او هكذا يخيل الى من يرى اليها والمأساة تطحنه .

لا بد أن يجازف . نهض والرحموني بين ذراعيه ، واسند ساقه الى الدقة فثبتها ، وتطلع حواليه : كان منظرهما اشبه بمنظر متشردين طاردهما العاصفة ، فجرح احدهما واضطر الآخر ان يحمل رفيقه ويمضي ، وكلاهما مبلل ، والمطر ما زال يلاحقهما بغير رحمة .

قاس ، وهو يباعد بين قدميه ليحفظ توازنه ، المسافة بينه وبين القمرة ، وبعد ان حدد موضع خطواته مشى بحمله مثنيا وثيدا ، ودخل القمرة ووضع الرحموني وغطاه بالخام المكوم فيها ، وعاد مسرعا الى الدقة فثبت اتجاهها وفكر بما يجب ان يصنع .

كان ظهر الشختورة يدعو حقا الى الجزع : الصاري المائل ، والخام الممزق ، والطاقيّة الصوفية وفردة الحذاء ، ومكان الفلوكة الفارغ !! وكان عليه ان يقوم بعمل ما ، بمغامرة جديدة للخلاص من هذا الموقف العصيب الذي هو نفسه مغامرة قرضها القدر .

اهتزت الدقة بين يديه بصورة غير طبيعية ، فظن انها انكسرت فأصبحت تدور في فراغ ، فلما عادت الى طبيعتها خطر له انها اصطدمت بجسم حيوان من حيوانات البحر .

انحنى ونظر في الماء ، كان ثمة انسان يصارع الموج حول الشختورة ، وكان يروغ ويسبح بقوة ابليس لا يخشى الفرق ، وكلما حاول الصعود افتقد المسك فهوى في الماء ليعميد الكرة من جديد .

ناداه بأعلى صوته فلم يجب ، وكرر النداء فلم يأت جواب ، فرجع ان صوته ضاع في الهدير المتصل لطاحونة الريح ، وعندئذ جاء بحبل ودلاه في الماء ، وانصرف الى انقاذ البحار وارشاده الى ما يجب ان يفعل .

ولما ابتعدت الشختورة قليلا ، استطاع البحار ان يرفع

رأسه وينظر الى سطحها ، وعرفه الطروسي فصاح مدهوشا:
احمد !

تنازعه عاملان من فرح وغضب ، فهتف بغير وعي :
« يا سماء ! » وعاد يلوح بيديه ، ويشير اليه ان يتعلق
بالجبل ، فانصاع احمد واتجه الى الشخورة من جديد ، بينما
وقف الطروسي يراقبه مفتونا بجراته .

كان احمد أقوى على البحر ، واصلب في ضربة
الساعدين ، لكنه ، لقلة خبرته ، اختصر الطريق فجاء الشخورة
من امام فكان من العسير عليه ان يقترب منها ، ولم ينقذه من
الموت الا فتوته ومرونة حركاته في الابتعاد والقفطس وتفادي
الارتطام . ولقد خطر له ان يصرخ ، بل هو صرخ مرة او مرتين
« يا طروسي ! يا ريس ! » فلم تجبه غير زمجرة الموج ،
واحس بالخطر ففكر بالعودة الى الزورق ، ولما استدار وجده
قد ذهب ، فلم يبق له من سبيل سوى الصعود الى ظهر
الشخورة بأية وسيلة .

تعلق بالجبل الذي دلاه له الطروسي وصعد ، فما كادا
يلتقيان حتى تعانقا على فرحتين : اجتماعهما سالمين ، ووجود
الرحموني حيا في القمرة .

لم يسأله كيف جئت ولماذا ؟ لقد سبر غوره من اول
الليل انما لم يتصور انه يفعل ما فعل ، فلما وصل الى ذراعيه
ضمه ملهوفاً ، وهزه من كتفيه ، وضبه ثانية ، وشمله بنظرة
شكر وود ، مشفوعة بابتسامة تقدير من بحار كهل الى بحار
فتى ، وانهى اليه البشرى ، ودفعه الى العمل من فوره ،
طالباً منه ان يمسك اندفة ، وركض هو الى القمرة فوضع
اذنه على صدر الرحموني : الانفاس ما زالت تتردد ، لكن
الرجل في غيبوبة تامة .

فكر في ان يرفعه من وسطه لافراغ ما في جوفه من

ماء البحر ، غير ان الرحموني في حالة ذنق وليس في حالة
غرق ، ويحتاج الى الدفء اكثر منه الى افراغ الماء .

فتش في القمرة عن ثياب فما وجد ، فقرر ان ينزع عنه
ثيابه المبتلة اولاً ، ثم غطاه بغطاء وجدد بقربه ، واسرع الى
السطح فطاف بين الصواري والاوتاد يتفقدوها ويصلحها
ويشد الحبال وينشر ما كان مطوياً من الخام ، وحين فرغ من
ذلك اصدر هذا الامر :

— الى اليمين يا احمد ، هورسا .

وامثل احمد فاقلعت الشخورة .. تحركت ببطء اولاً
ثم اضطربت ومضت بوهن كالناقه من مرض ، حتى اذا
تملكت اتجاهها وانتشر جناح خامي صغير من جهة البر ،
تخلصت من تأرجحها ومضت مع اندفاع الريح ، واخذ
الطروسي الدفة وهو بوجه احمد الى العمل قائلاً بفرح طفولي:
— نجونا يا احمد باذن الله ، اما قلت لكم انا افهم بلغة
الشخاتير ؟ شد الحبال شد ، آه لو كان الصاري سليماً ،
ومع ذلك لا بأس ، ما بقي منه يكفي .

عاد الزورق الى الميناء بعد صعوبات كثيرة اعترضته في
الطريق ، كان النهار قد انتصف او كاد ، وقد ضخم البحارة
الحادث في محاولة لاشعورية لتبرير تركهم الطروسي وحده
في البحر .

وكان منظرهم يساعد على تصديق اقوالهم ، فما اقتربوا
من الميناء حتى خرج زورق لاستقبالهم ، واتصل رئيس
الميناء بالمستشفى الحكومي فارسل سيارة الاسعاف فوراً .

وقف ابو رشيد موقف المتربص من الموضوع كله : تملكه
الاعجاب بالطروسي فاعترف بأنه « بحار عن حق » وود لو
استبق الحوادث فعرف مصيره ، وكيف ينبغي له ان يتصرف
في حالة غرقه او نجاته ، فكر : « اذا لم يعد فقد انتهى

امره ، أما اذا عاد فستزداد ثقة البحارة به والتفافهم حوله فماذا افعل عندئذ ؟ انتقص من فعلته ، ام امتدحها ؟ اغتنم الفرصة فابدي له الود ، ام ابقى على موقفى منه ؟

آثر ، كعادته ، تغليب العقل على العاطفة . وقرر ان تكون تصرفاته منسجمة مع الجو العام ، وبذلك يقطع الطريق على كل قالة سوء ، وقد يربح ثناء البحارة ويحد من اندفاع الطروسي ضده في المستقبل .

« لقد اخطأت منذ البدء اذ افسحت المجال لنديم مظهر ان يتخذ منه صديقا على حسابى . الطروسي لا يفكر بالعمل في المواعين ولا يسعى اليها . انه اشبه بهواة الخيل ، يهون ركوبها ولا يطيقون الاتجار بها » .

على انه ما عثم ان فكر على نحو آخر : « ربما وسوس له نديم فاقنعه بالعمل في المواعين . . وهذه المغامرة ، اذا عاد منها ظافرا ، ستزيد جراته وتحديه ، وقد تكون بابا يدخل منه الى الميناء فلا يخرج قط ، وفي حال كهذه اكون قد ساهمت في خلفه وقلعت عيني باصبعي اذا امتدحته ، واذا ازدريته زدت في حقه ، وساعدت نديما على استغلاله ودفعه الى مناواتى . . احسن ما يمكن فعله الان هو التريث حتى يتضح الامر ، ومن اجل ذلك سأبقى في الميناء ، وسأدع ابا امين يتصرف كرئيس ميناء حقيقي » .

لاذ بركنه من المقهى ، يشرب ناركيلته ويستمتع اكثر مما يتكلم ، وينظر ، عبر الزجاج ، الى كل حركة في الخارج .

واطلقت سيارة الاسعاف التي طلبها رئيس الميناء زعيقا ناعبا وهي قادمة ، فهرع البحارة والصيادون من المقاهي الى الرصيف الداخلي فلما منهم ان الفرقى لفظهم البحر ، وبكت نساء المفقودين واطمن خدودهن ، وتجمهر الذين كانوا في الميناء منذ الصباح ، واسرع رئيس الميناء ووقف على رأس المتجمهرين . .

لقد اكتشف انه محط الانظار اليوم ، وشعر بأن له اهمية غير عادية ، فلم يذهب الى البيت لتناول الغداء . ولو حلل مشاعره لما عرف اهو فرح ام ترح . كان يدخل ويخرج فاذا وجد احدا من ذوي المفقودين امام المكتب التفت الى البحارة وصاح :

— يوسف ! فرحات .

— نعم ، امر .

— لا شيء ، خليك في الميناء حتى ترى ما يحدث . . انا على اتصال دائم بجميع الموانئ .

يقولها ويضبط على هاتين الكلمتين « جميع الموانئ » وينظر الى الهاتف الساكت امامه مفيظا حنقا « لماذا لا ترن يا عرس اليوم ؟ » انه يجد في رنينه لذة مضاعفة بالنسبة للسابق ، فيرفع يده في وجوه الحاضرين : « اسكتوا » ، يأخذ السماعة ويتكلم ، معطيا للامر اهمية خاصة . وبرغم ان مخابراته كانت مع اصحاب مراكب يسألون عن الجو في الميناء ، او اصدقاء او دائنين ، فانه كان يرسل ، عقب كل مخابرة ، هذه العبارة « لا استطيع ان اقول شيئا . . التحريات جارية » .

ومنذ ان انبىء ان الزورق يعود ، شعر كأن جبلا من المسؤولية ينحط عن كتفيه ، لم يهتم لمعرفة من فيه وما وراءه بل اهتم لعودته ذاتها . قال في نفسه « ليسلم الزورق وكل شيء يهون . . النساء تحبل وتلد ، والمكتوب ما منه مهروب ، فلماذا الحزن ؟ الرجال لا يحزنون ! »

وطلب ، منذ ما تناهى اليه صوت سيارة الاسعاف ، ابعاد الناس عن الرصيف ، وبخاصة النساء ، فاحدثت تصرفاته هذه نوعا من الخوف ، واعولت امرأة على زوجها المفقود وكان في حضنها رضيع وحولها ثلاثة اطفال قشاركوها

البكاء ، وتليست الوجوه تكثيرة ذعر لما يحدث ، وازدادت المخاوف بازدياد زعيق سيارة الاسعاف التي اقتحمت الميناء وضغط ساقيها الكابح بشدة فحزت الدواليب وصرت صريرا اجفل النسوة ، وتكاثر المتدافعون على الميناء وكل منهم يريد ان يسبق الآخر ليرى ما يجري وما يحمل الزورق من اخبار .

وقذف بحار من الزورق بحبل ثخين على الرصيف فتلقاه البحارة وهموا بربطه ، لكن رئيس الميناء طلب تغيير الربط ، وكان هذا اول امر اصدره بعد طول انتظار .

صاح بالبحارة :

— علقوا المدري وشدوا ، ليوا يا شباب ، ليوا .. لا تخافوا ، البحر لا يأكل الرجال !

وجاهد البحارة كثيرا لـ « تريص » الزورق على الرصيف فما افلحوا . كان الموج يقاومه ويبعده ، واذ ذاك خشي ان يفلت الموقف منه فقال « هذبوا الزورق حتى انزل على الاقل ، اي العمى ، رئيس الميناء ، في بلاد الدنيا كلها ، ينزل اول الناس » .

واذ رأى ابا رشيد قبالة تنحى وقال :

— تفضل ابو رشيد ، لا احد يخطو قبلك والله .

كان البحارة قد قفزوا الى ظهر الزورق ، وتجمع خمسة او ستة منهم حول البحارة العائدين . ولم يكن الطروسي ولا احمد في الزورق فبادر رئيس الميناء الى اصدار تعليماته قائلا : « ولا كلمة هه ، لا تريد احداث ضجة ! الاسعاف موجود ورجال التحقيق يضبطون الافادات في المستشفى » .

ولم يستطع بحار شاب ان يضبط عواطفه فقال :

— يا خسارتنا بالطروسي ..

فانتهره رئيس الميناء :

— قلنا بلا كلام ، لا تكن مثل النسوان ..

فمد اسماعيل رأسه وقال :

— وحدوا الله يا جماعة ! الطروسي في سخرة الرحموني ، واحمد نظ من الزورق ولحقه ، لم يمت احد منا .

— ومن جماعة الرحموني ؟!

— الله اعلم ، راينا مجذافين في البحر .

— وكيف تركتم الطروسي ؟

فقاطع رئيس الميناء السائل بنرفزة :

— السين والجيم في المستشفى ، اتروكنا نشتغل الان ،

ساعدوا البحارة على الوصول الى الرصيف .. يا الله يا

يا جماعة « قالوا للديك صبح قال كل شي في وقته مليح » ..

اطلع يا اسماعيل ، وانت يا رجب ، انحملك ام تمشي ؟ وانت

يا رمضان ؟ شدوا حيلكم ، علم الله وقت كنت ارجع من النوبة

ما كنت اخرج الى البر قبل ان ارمي الياطر واربط المركب ..

البارحة لم يرقد لي جفن ، وبمجرد ما سمعت ان الزورق عائد

طلبت الاسعاف ، وهذه رجلي ورجلكم الى المستشفى ، توكلوا

على الباري ، قولوا يا رب ، قولوا يا الله ، ناولوني المدري .

وصعد البحارة الثلاثة الى البر .. كانوا في حالة

اعياء ، وقد استطاع اسماعيل وحده السير بمفرده ، وقبل

ان تنطلق بهم السيارة ركضت امرأة الرحموني تتعثر بملأها

لتسأل عن زوجها ، فقال لها رئيس الميناء :

— زوجك بخير يا اختي ، لا تخافي ، راح اوصلهم واعود ..

فاجابته باكية :

— اذا كان بخير فاین هو ؟ اين الشخورة والبحارة ؟

ووصل قى هذه اللحظة ابو محمد و خليل العريان وقدرى

الجانودي ، فلما لم يأخذوا خبرا عن الطروسي اقترح ابو

محمد ان يلحقوا بالسيارة الى المستشفى ، فوافق خليل راسا ،

وقال الجانودي : « لا تستعجلوا .. ريس الميناء راح يخبرنا

بعد عودته « لكنهما لم ينتظرا ، ذهبا على اقدامهما ، وركب بعض الشباب والبحارة الدراجات واسرعوا الى المستشفى، وتجمعت النساء يتشاورن ويبكين ، وانطلقت ثلاث او اربع منهن في درب المستشفى ايضا ، ووصلت الاخبار الى المدينة بأن الطروسي فقد ، فجاء نديم مظهر ورجال من الشيخ ضاهر ، وبلغ الخبر ام حسن في حي السجن فانقلب بيتها الى ماتم ، وقالت زكية « والله نخزني قلبي » ، وخيم حزن بالغ على الوجوه ، وازدحمت الميناء بالناس وانصرف الجميع الى التقدير والاستنتاج حتى عاد رئيس الميناء في عربة حنطور.

ترجل ودخل مكتبه قورا ، وهتف الى المستشفى راجيا الاتصال به عند وصول هيئة التحقيق . كانت هيئته في منتهى الاحتقان ، وقد زاد شكله الطويل وطلعته الخمرية في اضاء مظاهر الهيبة على مركزه .

وكان جوابه الاول عن استفسارات الناس هو التالي :
« ائمر بيد الله ، والمسألة فيها ضحايا لم نعرف عددهم بعد »
سأله نديم بالغ التأثير :
- وماذا قال البحارة عن الطروسي ؟

فهب برأسه معطيا هذا التعبير « يرحمه الله ! » ثم اطرق معتبرا السكوت اولى ، لان المقام لا يبيح كثرة الكلام.

في غمرة هذا التوتر النفسي، ومن قلب الضجة المتعاعدة من داخل المكتب وخارجه ، استطاع احد حراس الميناء ايصال خبر صفيير مؤداه ان شختورة بنصف خام تبدو في البحر.

لم يصدر عن الحاضرين رد فعل سريع ، والشخص الوحيد الذي عرف قيمة النبأ هو رئيس الميناء . قال :
- هاتوا الناظور !

اخذه واسرع بانجاه المنارة عند رأس الميناء ، وتبعه نديم مظهر وقدرى الجانودي وبعض البحارة ممن لهم وجهة ،

ولحقهم الفتيان للاستطلاع ، وصعدوا الى المنارة فركز الناظور على عينيه ، متخذاً سيماء قائد على ظهر طراد .

كانت الشختورة تميل على جانبها الايمن مع الريح، ولم يكن الصاري في مكانه ، او انه لم يره للوهلة الاولى ، ففرك عينيه ، واعاد احكام الناظور ، وحدق قليلا ، ومع ذلك لم يتوصل الى معرفة الشختورة القادمة .
قال له الجانودي :

- هاته عنك ابو امين ، عيوني حدة اكثر منك .
سحب الناظور من يده سحيا ، وركزه على اربعة انفه وضبط قياس الرؤية ، وهتف منذ تراءت ته الشختورة :
- هذه شختورة الرحموني يا شباب !

ما صاح بذلك صياحا . ومع ذلك سقط الخبر على المنتظرين في الميناء سقوطا داويا ، انداحت دوائر واحدة اثر اخرى حتى بلغت أقصى المكان ، فتراكض الجميع نحو السور الشمالي وتسلقوا حجارته ، ونزل رئيس الميناء من المنارة وقد اعترم امرا .

وفي نفس اللحظة غادر ابو رشيد ركنه المهدود في المقهى وخف الى الرصيف : « لقد عاد الطروسي ومعهم شختورة الرحموني ، فمن كان يصدق انه سيمود ؟ » صمم قائلا « ساقبله » ! وأكد « نعم ساقبله ، هذا بحار يجب ان تفتخر به الميناء ، وحرام ان يظل في المقهى لولا انه عنيد يابس الرأس ! » واذ بلغ الرصيف ورأى نديم مظهر يلوح بيده نحو الشختورة ، اعتكر مزاجه ، وزايلته الحماسة فأسر في نفسه « ماذا يفعل نديم مظهر هنا ؟ وما شأنه في هذا الذي يجري ؟ وما شأن هؤلاء المقبلين المدبرين في هرج ومرج كائنني لست بينهم ؟ قفوا ، انا الذي يجب ان يتولى الامر . . انا من سيتنزل ويستقبل الشختورة ، وكفى رئيس الميناء ما انتفش مثل ديك رومي اليوم » .

وكان رئيس الميناء يصيح فيمن حوله :
- الزورق يا شباب ، اذا لم تنزلوا معي نزلت وحدي .

قالوا :

- كلنا نزل يا ابا امين .

فاجابهم لاعنا حشريتهم :

- كلكم ؟ لا ، نحن في مهمة والا في عرس ؟ العمى ، هذا

بحر ، بحر ما مسبح .

وسمع ، في هذه اللحظة ، صوت ابي رشيد ، فاستدار

اليه هاتفا :

- الطروسي انقذ شختورة الرحموني يا ابا رشيد !

قال ابو رشيد :

- المنقذ هو الله ، همتكم الان حتى نوصلها الى الرصيف ،

هاتوا الزورق بسرعة ، وانت يا ابا امين ابلغ المستشفى

لارسال الاسعاف .

انصاع ابو امين للطلب بخفة ، كان يروم اتمام المخابرة

قبل تحرك الزورق ، لكن ابا رشيد لم ينتظره ، فما ان اصبح

على ظهره حتى تحرك به نحو الشختورة واقفا على مقدمته

والريح تنفخ الية شرواله ، وراح ابو رشيد يعلو ويهبط

مع الموج ، وفي ذاته تفور حماسة ولدتها حرارة الحركة

ومغالبة النوء والشعور بأنه يمارس زعامته في الميناء .

وكان الطروسي يقف وراء الدفة على ظهر الشختورة

التي شقت طريقها وسط النوء متجها بها نحو مدخل الميناء

سالكا جانب البر ، منحدرها في دورة مع الريح ليستطيع

الدخول بغير عون من الزورق . لقد قوجيء بالحشد فسي

الميناء ، واتته الاصوات بعيدة ، غريبة ، كأنه في حلم ، وتذكر

ما قاسى فأتطبق جفنيه وفكر « وصلت اخيرا اذن ! ترى ماذا

قال البحارة ، وهل عرفت ام حسن بالامر » .

اقترب الزورق من الشختورة ودار حولها . كان كل من

فيه يلوح للطروسي بالكوفيات والمناديل مهللا . وصاح بحار
فسي بسوق :

- ارموا لنا الحبل لتقطر الشختورة ..

وكرر النداء دون جواب .. اكتفى الطروسي بإشارة

من رأسه تدل على انه فهم ما يريدون .

وركض احمد الى جانب الشختورة وقال « الرحموني

في القمرة بين الموت والحياة ، احضروا الطبيب » .

وللحال افترق الزورق وعاد ، ودخلت الشختورة تترنج

كالخارج من حلبة صراع ، واتجهت الى المرسى قرب شركة

الكهرباء ، وظل الطروسي صامتا قابضا على الدفة . كان

يشعر بأنه موشك على السقوط ، وقد تحامل على نفسه

حتى هانت نفسه عليه وهان البحر وفقد القدرة على الكلام

ولم يعد يحس ببرد ولا حر ، وبات كل ماحوله غائما

مضطربا .

وحين بلغ المرسى ترك الدفة وتداعى ، فاحتضنه احمد ،

ووثب البحارة الى متن الشختورة . وتقدم ابو رشيد وعانقه

قائلا :

- مثلك تكون البحارة يا ابا زهدي ، حياك الله (وقبله

واخذه بين ذراعيه) .

واكبر الحاضرون هذه البادرة ، وودوا ان يفعلوا شيئا ،

وحاول ابو رشيد ان يرفعه فما استطاع ، وعندئذ سرت

الحمية فيهم وانحنوا لمساعدته صائحين : اتركه لنا ، لعيني

الطروسي !

ولم يجب الطروسي بشيء . استسلم للسواعد التي

احتضنته ، وكانت نظرتة الاخيرة معلقة بباب القمرة ، فلما

رأى الطبيب يدخل اليها اغمض عينيه كأن مهمته قد انتهت ،

وبدا وهم ينزلونه الى البر فاقد الوعي مرتخي الذارعين

كجريح فارق الحياة .

القسم الثالث

وعاد الصيف مرة اخرى ..

ربما كان الصيف التاسع او العاشر الذي يعود
والطروسي في البطرنة ، وربما كان اجمل تلك الاصيف او
اقبحها ، او شبيها بها كلها ، الا انه كان ، بالنسبة اليه ،
اسعدها اطلاقا ، وابهجها اطلاقا ايضا .

لقد كان صيفه بلا جدال : صيف مجده البحري ، وحلمه
الذهبي ، و « مجدلته » التي وراء الافق .

وربما شاءت الاماني ان تتحقق لتصنع بهجة لنفس تأملت
كثيرا . وقد تكون في مشيئتها على موعد في الوفاء ، كما
كان طالبها على موعد في التضحية .

وكانت تضحية الطروسي ، في الشتاء من هذا العام ،
حادثا ذا اثر قوي النفوس . صحيح انه لم يعتمد الاشياء
لذاتها ، ولم يصارع العاصفة ليحظى بالتقدير ، غير ان الذي
يزرع القمح لا يحصد الزؤان .

لقد ظل ، بعد اتقاذه الشختورة ، اسبوعا في المستشفى ،
وظل الرحموني شهرا ، ثم شفي كلاهما ، واستأنفت الحياة
سيرتها ، واستأنفا ، هما ايضا ، سيرتهما : عاد الاول الى
المقهى ، وعاد الثاني الى البحر .

وكافأت المدينة الصغيرة الطروسي مكافاة جميلة: جمع
الرحموني اولاده وقال لهم « هذا عمكم .. هذا الذي انقذني

من الموت » ولم يفهم الاولاد كل دلالة هذه الكلمات ، الا ان الاب ترجم عواطفهم حين عانق الطروسي قائلا « كيف اشكر يا ابا زهدي ، كيف اكافئك يا خي ؟ » .

وجاءه البحارة يحملون مركبا صغيرا صنع في ارواد ، وقالوا كلمات بسيطة ، مؤثرة . وجاء ، كذلك ، نديم مظهر وابو رشيد واسماعيل كوسا والاستاذ كامل وابو حميد ورئيس الميناء وناس كثيرون من المدينة .

وقام ابو محمد و خليل العريان واحمد وبعض البحارة الذين نزلوا معه ، مقام اصحاب البيت ، يتلقون تحيات الوافدين ، ويشاركون في الفرحة .

وعرض عليه ، منذ الشهور الاولى ، ان يعمل ريسا في احد المراكب . ثم تابعت العروض من اللاذقية وارواد وببيروت ، ووسط العارضون رئيس الميناء وقصري الجانودي ، ومنهم من فاتح الطروسي مباشرة .

وازداد الاقبال على المقهى ، وازداد كذلك التقدير للطروسي في المدينة ، وطفقت شعبيته تتجلى في كل ناحية من حوله ، وتفرض نفسها حقيقة لا سبيل الى نكرانها .

وادرك ابو رشيد ماذا يعني كل هذا ، ورصد كل حركة بمنتهى الحذر ، وفكر بما ينبغي له ان يفعل ، وقرر ان يترئس وان يرقب خطوة الطروسي القادمة : ايسافر ام يبقى في الميناء ؟

٢

وجاء الجواب من الميناء نفسها .

ففي ايار من هذا العام انتهت الحرب العالمية الثانية ، وكان انتهاؤها حدثا سعيدا بالنسبة للعالم ، وحدثا اسعد بالنسبة للبحارة .

نشطت الحركة في الميناء كما لم تنشط من قبل ، وبدأت حبوب الجزيرة تندفق على اللاذقية ، واشتد الطلب على وسائل النقل ، واستعادت المراكب قيمتها بسبب ضعف مزاحمة البواخر ، واصبح صيد السمك عملا ثانويا بالنسبة للبحارة الحقيقيين .

وأعد الرحموني عدته ، فباع الشختورة واشترى مركبا ، واعلن في الميناء ان الطروسي ريس المركب ، وانهم سيتشاركون . .

ووقع النبا بشكل متباين في النفوس : فهمه الطروسي على حقيقته فقرر ان يشكر الرحموني ويعتذر . ان عودته الى البحر هي الامنية ، الا انها امنية بائسة حين تكون ثمنا لمعروف ، وسواء اعاد ام ظل على هذه الصخور ، فلن يقبل ان يستغل يدا له سيقت .

وفهمه نديم مظهر على انه « لعبة بارعة » قام بها ابو رشيد بالاتفاق مع الرحموني لابعاد الطروسي عن الميناء .

وفهمه ابو رشيد على انه ارضاء لكبرياء الطروسي ، فحبذه ، وربما شجع الرحموني عليه .

اما الرحموني فكان مخلصا في عرضه : فكر ان مركبا يكون الطروسي ريسه لا بد ان تكون له الافضلية في الشحن ، وان الطروسي اذا تولى المركب تولاه بنجاح ، بينما هو يبقى على البر ، يؤمن الحموله ، ويدبر الامور من الناحية العملية التي مارسها واتقنها . ولكونه يعرف موقف الطروسي من هذا الموضوع ، وإشاره الملكية ولو كانت صغيرة ، وحرصه على ان يكون صاحب مركب وندا للآخرين ، فقد رغب ، صادقا ، ان يساعده في تحقيق امنيته هذه ، وصمم ان يعرض الشراكة عليه ، واثقا من انه لا يرفض ذلك ، وان الناحية المادية يمكن ان تسوى بالتعاون والاخلاص .

ولما اجتمع به توصل الى اقناعه بعد جهد ، وافهمه انه يريد شريكا حقيقيا ، وان هذه الشراكة في مصلحتها معا ، وسأله كم يستطيع ان يدبر من مال ، ففكر الطروسي واجاب : « ليس لدي سوى القهى ، وقيمته جيدة الآن ، وسأستدين فوقه ، وادفع البقية بالتدريج ، واسدد ما تبقى من ايراد المركب » وقد جرى الاتفاق بينهما ، مبدئيا ، على هذا الاساس ، ولم يبق الا القيام بالخطوات العملية ، والشروع بالمعاملة الرسمية ..

وقام الطروسي يزف البشرى الى أم حسن . فلما بلغها انه سيستدين نهضت الى صندوقها واخرجت ما ادخرته وقالت : « خذ هذا المبلغ فادفعه من حصتك ولا تستدن ، وخذ هذه (وجاءته بحليها) قبعها او ارهنها وادفع ايضا » واقسمت عليه ثلاثا ان يأخذها .

وبلغ نديم مظهر ان الطروسي وافق على شراكة الرحموني فاعتزم ان يثنيه . جاءه صباحا فجلسا تحت الخيمة يشربان القهوة ويتحدثان في الموضوع . قال نديم بصراحة يعرف ان الطروسي يفضلها : « سمعت انك وافقت على

مشاركة الرحموني، فهل هذا صحيح؟» وقص عليه الطروسي تفصيلات ما جرى وطلب رايه .

ومع رغبة نديم الا يسافر الطروسي، وحرصه على ان يبقى في الميناء لمنافسة ابي رشيد ، لم يصدر حكما سريعا مكشوفاً يصدم صديقه ويؤذي مشاعره .

قال له : « انا احترم قرارك في استئناف السفر، ولكنني اسألك : ماذا تبغني من ورائه ؟ ما هي غايتك وماذا تريد ؟ ستقول : اريد العودة الى البحر ، اريد ان اعمل في مهنتي فأصبح صاحب مركب من جديد ، وهذا صحيح ، ولكنه لا يمنع ان تكون هنا اولاً ، في الميناء قبل البحر ، وان تؤسس مستقبلك على قاعدة اكثر صلابة واوفر ضمانة . انا صديقك ، واحبك ، واريد خيرك ، ومن اجل ذلك اعرض عليك ان تشاركني انا ، انا احق بشراكتك ، واريدك ان تصبح صاحب مواعين ، ولك مني الراسمال الذي تقرره ، والمساندة التي تتطلبها ، ولك بعد هذا حرية الاختيار ، ففكر ، وابلفني رايك ساعة تشاء » .

وفكر الطروسي يوما ويوما وثالثا . ان مسألة كهذه لم تكن تحتاج ، فيما سبق من ايامه ، الى اكثر من جواب فوري : نعم او لا ، اما الآن فانه يضطرب ويتردد في البت كما لم يحدث معه من قبل ، ويسوف في اتخاذ القرار ، لا انكفاء في ارادة السفر ، بل حرصا على تحقيق رغبة يلح عليها نديم ، ويسوقها بعرض اختياري منمق بكلام حلو يجيده احسن الاجادة .

ونديم نفسه كان على ادراك ان الطروسي سيتعذب في الوصول الى قرار ، وكان يود ، لولا الضرورة ، ان يجنب صديقه الاحراج ، وان يدعه لهواه . لكن منافسة ابي رشيد مسألة في المكان الاول من الاعتبار ، والطروسي وحده قادر

من الموت » ولم يفهم الاولاد كل دلالة هذه الكلمات ، الا ان الاب ترجم عواطفهم حين عانق الطروسي قائلا « كيف اشكرك يا ابا زهدي ، كيف اكافئك يا خي ؟ » .

وجاءه البحارة يحملون مركبا صغيرا صنع في ارواد ، وقالوا كلمات بسيطة ، مؤثرة . وجاء ، كذلك ، نديم مظهر وابو رشيد واسماعيل كوسا والاستاذ كامل وابو حميد ورئيس الميناء وناس كثيرون من المدينة .

وقام ابو محمد و خليل العريان واحمد وبعض البحارة الذين نزلوا معه ، مقام اصحاب البيت ، يتلقون تحيات الوافدين ، ويشاركون في الفرحة .

وعرض عليه ، منذ الشهور الاولى ، ان يعمل ريسا في احد المراكب . ثم تتابعت العروض من اللاذقية وارواد وبيروت ، ووسط المعارضون رئيس الميناء وقدرى الجانودي ، ومنهم من فاتح الطروسي مباشرة .

وازداد الاقبال على المقهى ، وازداد كذلك التقدير للطروسي في المدينة ، وطفقت شعبيته تتجلى في كل ناحية من حوله ، وتفرض نفسها حقيقة لا سبيل الى نكرانها .

وادرك ابو رشيد ماذا يعني كل هذا ، ورصد كل حركة بمنتهى الحذر ، وفكر بما ينبغي له ان يفعل ، وقرر ان يترث وان يرقب خطوة الطروسي القادمة : ايسافر ام يبقى في الميناء ؟

٢

وجاء الجواب من الميناء نفسها .

ففي ايار من هذا العام انتهت الحرب العالمية الثانية ، وكان انتهاؤها حدثا سعيدا بالنسبة للعالم ، وحدثا اسعد بالنسبة للبحارة .

نشطت الحركة في الميناء كما لم تنشط من قبل ، وبدأت حبوب الجزيرة تندفق على اللاذقية ، واشتد الطلب على وسائل النقل ، واستعادت المراكب قيمتها بسبب ضعف مزاحمة البواخر ، واصبح صيد السمك عملا ثانويا بالنسبة للبحارة الحقيقيين .

وأعد الرحموني عدته ، فباع الشختورة واشترى مركبا ، واعلن في الميناء ان الطروسي ريس المركب ، وانهم سيشاركوا .

ووقع النبأ بشكل متباين في النفوس : فهمه الطروسي على حقيقته فقرر ان يشكر الرحموني ويعتذر . ان عودته الى البحر هي الامنية ، الا انها امنية بائسة حين تكون ثمنا لمعروف ، وسواء اعاد ام ظل على هذه الصخور ، قلن يقبل ان يستغل يدا له سبقت .

وفهمه نديم مظهر على انه « لعبة بارعة » قام بها ابو رشيد بالاتفاق مع الرحموني لابعاد الطروسي عن الميناء .

وفهمه ابو رشيد على انه ارضاء لكبرياء الطروسي ، فحبذه ، وربما شجع الرحموني عليه .

على ذلك بشخصيته وشعبيته واندفاع البحارة وراءه كل هذا الاندفاع .

ثم ان العرض ليس سيئا . صحيح ان فيه بعض المخاطرة ، الا انه يضمن مستقبل الطروسي ، ويؤمن له وضعاً مالياً ممتازاً لا يحلم به ولو اقنى عمره في البحر .

ولهذا قال نديم في نفسه « اذا رفضه الطروسي يكون احق بغير شك ، ويثبت انه لا يفقه شيئاً في دنيا الاعمال ، ولا وزن لمصلحته حيال هواه » .

وكان في منطقته هذا على حق ، فحتم على العاقل ان يجد في العرض يدا سخية تمتد اليه ، وكل قياس او بعد نظر او تفكير ، يفرض عليه الاخذ به وشكر صاحبه عليه .

انما الانسان ليس نسخة ذاتها في كل فرد . القياس والمنطق وبعد النظر والحكمة كلها قد لا تجدي في اقتناع محب بالتخلي عن حبيبه ، وكل عدل او لوم يؤدي الى ضده ، ويدفع الى الامعان في الاتجاه المأزوم ، والفريقان ، الناصح والمنصوح ، قلما يتفاهمان في هذه الحال ، لانهما يكونان ، كلاهما ، على حق وخطأ في وقت واحد .

نديم محق في ان يرى الاشياء من وجهة نظر رجل الاعمال ، والطروسي محق في ان يراها من وجهة نظر البحار . ذاك مخطيء لانه لا يتصور كيف يمكن ان يرفض الطروسي عرضه ، وهذا مخطيء لانه لا يدرك جهل نديم في ان سفرة في البحر ، على متن شراع ، ائمن من كل ما قسي الميناء من مواعين ، فكيف السبيل الى تفاهمهما على هذا الامر ؟

ولئن لم يتفاهما ، فهل يختلفان ؟ هل ينتهي ما بينهما من ود واعزاز ؟ هل تنقطع صداقتهما بعد طول توثق ودوام ؟

قال الطروسي : « لينقطع ما بيننا اذا اصر نديم على

تحقيق فكرته » وفي ضميره تبت شوك التبكيت ، فتمنى او اقتنع صديقه بأنه هو ، الطروسي ، غير كفاء للنهوض بالمشروع ، وغير قادر على المكوث ، اكثر مما فعل ، على البر ، ولكنه لم يكن يجد انكلمات المعبرة للدفاع عن وجهة نظره ، فهو عاجز عن شرح احساساته ، ولم يكن قد فلسف وهمه او حلل حبه او كرهه للاشياء ، وكلما تحدث في مثلها اسف لانه فعل ، فقد كانت الكلمات تجرد خيالاته من تألقها ، وتسلمها الى برودة الحديث المكرور لسائر الناس .

وعلى ان اعز الاشياء يهون لديه اذا تعارض مع اعزازه للبحر ، قانه ما كان يريد اذعال صاحبه ، ففي حياته كلها لم تتصل اسبابه برجل كما اتصلت بنديم ، وقد لمس ذلك لمسا ، فكان ، وهو في المستشفى ، يغمض عينيه ويفتحهما على صديقه يقف قربه ، يحيطه بالرعاية ، ويوصي به ، ويبذل له ، ويلدود عنه ، فكيف يجافيه الآن ؟ وهل يشكل رفضه مفاجأة ؟ وما دخله هو فيما بين نديم وابي رشيد ، وبين الشيخ ضاهر والميناء ، وبين الكتلة الوطنية والكتلة الشعبية ؟

سلم اخيرا ببعض دفوع العقل ، واعترف ان له ، ولو جزئيا ، علاقة بما يجري في الميناء ، وان الوضع فيها لا يخص نديما وابا رشيد وحدهما ، بل يخصه ويخص كل البحارة والعمال ويتصل بحاضرهم ومستقبلهم معا قال : « الست بحارا ولي مصلحة في تحسين احوال العاملين في البحر ؟ وغدا ، اعود الى الميناء ، اليس مقدرا ان اقع تحت تحكم ابي رشيد كفيري ؟ ولنفرض انه سايرني شخصيا فلقاء اي شيء ؟ وما موقعي من الاضطهاد النازل بالآخرين ؟ وهل اغمض عيني واغضي على ذل ؟ »

« هو الذي وضعني ضده » توصل الى هذه الحقيقة اولا ، ثم انطلق منها الى تحديد موقفه من العمل في الميناء ،

واعترف بواجبه في معاونة البحارة على التخلص من الاستبداد ، وهكذا قرر الا يقبل عرض نديم فوراً ، ولا يرفضه فوراً ، بل يستمهله قليلاً ، مع الوعد في قبول النصح .

وارتاح نديم الى هذا الرأي : « خيط الامل تم ينقطع بعد ، وسأعيد الكرة بعد شهر او شهرين .. فليقض الآن شهوته من السفر ، ولاتدبر الامر على مهل ، وامهد له فأشيع ان الطروسي سينزل مواعين في الميناء ، وفي ظني ان مثل هذا الخبر وحده كاف لاقلاق ابي رشيد » .

خطوة اخرى في الاتجاه المرسوم .. صغيرة ؟ لا بأس ، يكفي انها في الاتجاه .. وقد لا تكون في خط مستقيم الى الهدف ، الا انها ستفقدو كذلك مع الايام .. جيد ان يفادر الطروسي مقهاه الآن ، وجيد ان يعود الى البحر .. وفي المستقبل الى الميناء ...

انه فوز له ، وفوز لنديم ، وفوز للكتلة الشعبية كذلك ؟

٣

وكانت الكتلة الشعبية تحقق ، في هذه المدينة او تلك ، بعض المكاسب على حساب الكتلة الحاكمة . ولكونهما اسمين لمسمى واحد ، ووجهين متماثلين لبنية اجتماعية واحدة ، فقد اتخذتا اسلوباً متشابهاً في العمل ، يقوم على اجتذاب الرجال النافذين في الاحياء والمرافق ، وتأمين شعبيتهما عن هذا الطريق ، واستغلال كل شيء في سبيل الوصول الى الحكم . وساعد انتهاء الحرب على زيادة مكاسب الكتلة الشعبية ، فقد طرحت شعارات فيها احراج للفئة الحاكمة ، وتشهير بها بسبب من اسوء الحكم ، مستفلة النعمة المتزايدة في اوساط الشعب لتجعل منها جسراً الى الوزارة .

وكان الناس قد اطلوا على دنيا السلم من شرفة افراحهم وكتبهم الطويل خلال الحرب . لم تعد ثمة ظروف استثنائية ولا مصاييح زرق ولا بطاقات اعاشة ولا تقنين لوقود ، ولاشفع او وتر في تسيير السيارات ، ولا « ميرا » ولا « كوتا » ولا مبتكرات كثيرة من هذا النوع .

ان الازدحام الشديد على الافران ومراكز توزيع الحبوب والوقود قد انتهى الآن . توفرت مثل هذه الحاجات او كادت ، وانفتح المجال للمطالبة بحاجات اساسية كتعديل القوانين والاصلاحات والعمران ، واثارت ، في شبه زوبعة ، الانتقادات حول فساد الادارة والمحسوبية ، ورفدت جميع هذه المطالب نهر المطلب الاكبر : استلام الجيش وتحقيق الجلاء ، وافادت الكتلة الشعبية من كل ذلك في معارضتها ، بل جعلت المطالب

الاقتصادية على سطح النقاش السياسي، بينما عملت ، شأن
الفئة الحاكمة ، على ترسيب المطالب الأساسية في القاع .

وتنبه الحس الوطني عند الشعب للمؤامرات على
الاستقلال . كانت نتائج الحرب قد تركت اثارها على نسبة
القوى في الوضع الدولي ، وقويت الثقة في قدرة الشعوب
على استخلاص حقوقها ، واشتد ساعد الجماهير واتسع
نشاطها السياسي ، وظهر ان المستعمرين لم يعودوا قادرين على
التصرف بمصائر الشعوب وفق هواهم ، وارتفع شعار جلاء
القوات الاجنبية او الثورة في كل مكان ، وبدت البلاد في غليان
سياسي شمل المعاهد والمساجد والنوادي والمقاهي والشوارع
والاحياء ، واحتدم النقاش مجددا بين انصار الحكومة
ومعارضيهما .

وسال رجل من المعارضين اسماعيل كوسا فيما كان
جالسا في المقهى :

.. والان ، ها قد انتهت الحرب ، فلماذا لا تسلم

الحكومة الجيش ؟ ومتى يتم الجلاء ؟

- الامور مرهونة بأوقاتها .

- ووقت اي شيء الان ؟

- وقت ملء البطون !

قالها رجل من جماعة نديم مظهر مستغزا اسماعيل
كوسا ، فأجابه هذا :

- هذه عادتنا ، دائما نتهم الآخرين ، انكرونا جهاد

الكتلة الان ؟

- نحن لا ننكر جهادها ، ولكننا ننكر استغلالها لهذا

الجهاد ، حكم المزرعة هذا الى متى ؟ وفرنسا ؟ متى يتم جلاء

فرنسا عن البلاد ؟

- قريبا .

- من سنتين ونحن نسمع هذه « القريبا » .

- من سنتين كانت الحرب .

- والان انتهت الحرب !

- نعم انتهت ، ولكن الجلاء يحتاج الى وقت ، الى

مفاوضات ، الى صبر لتنفيذ الوعد ..

- ومن يضمن تنفيذ الوعد ؟

- الانكليز .

- طظ .. شهاب الدين .. بريطانيا مستعمرة اكثر

من فرنسا .

- لا ، لم اقصد ... ارجوكم ، التوعد مع الزعماء

هذه المرة .

- ومن هم الزعماء ؟ اليس صاحبك بينهم ؟

غضب اسماعيل للاهانة فصاح :

- نحن نتحدث في مسائل هامة ، فلماذا التعريض

بالاشخاص ؟

اطل نديم مظهر من باب المقهى فتلفت اليه الرقاب .

هنا الشيخ ضاهر يا اسماعيل كوسا وليس الميناء ، وهنا نفوذ

الكتلة الشعبية فاحذر الاصطدام ، احذر من ان تجلب لنفسك

المتاعب ووجع الرأس .

ووقف الجميع احتراما لنديم فحياتهم وجلس في صدر

الحلقة . واستؤنف الحديث فدار حول الوضع في البلاد ،

والمظاهرات التي تطالب بالجيش والجلاء ، والاشاعات الرائجة

في المدينة ، فقال نديم بشيء من قلق :

- عندي اخبار سيئة !

- نعوذ بالله !!

- نعم اخبار سيئة .. المرشد بدأ يتحرك ، وازلامه

هاجموا مخفر الدرك في جوبة برغال .

رانت سكيته مبهظة على الجو : تحرك المرشد ؟ فهل

تعود قلاقل الانفصال اذن ؟ هل تعود احداث ١٩٣٦ وتعيش

اللاذقية في جو الخوف وكابوس الحصار ؟

وضع الطروسي يده في يد الرحموني . ان للرجال كلمة شرف . وبكفي ان يشد بحار على يد بحار حتى تتسم صفقة ما . بيد ان الرحموني زاد على هذه العادة فعانق الطروسي ، وبارك كل منهما للآخر ، وبارك لهما الحاضرون ، واعلنت بذلك شراكتهما رسميا .

وجلس الطروسي ، وكانا في مكتب رئيس الميناء ، متأثرا لا ينبس بكلمة ، ولكي يسيطر على انفعالاته لف سيطرة ثخينة واشعلها بسرعة . كان يحس ارتباكا لا يحبه لنفسه ، ولكي يخفي هذا الارتباك شرع بالتدخين ، وشارك من حوله بكلمات لا بد منها للمجاملة ، متمنيا في كل لحظة ان ينفض المجلس لينفرد بنفسه ، فيستوعب عواطفه ، ويتفهم الاحاسيس المبهمة المتباينة التي هاجمته ، ويسيطر عليها .

اصحح انه اصبح شريكا في مركب ؟ اصحح انه عاد الى البحر ؟ وهل انقضت تلك الايام التي توقف فيها على الشاطئ ؟ وهل سيفادره ويترك البطرنة ؟

المسافر يستأنف السفر ، والشرع ان الذي طوي ينشر ، والبحر الذي كان منه على جوار يصبح منه في القلب ، وكل شيء يحدث فجأة ! ولماذا تحدث الاشياء فجأة ؟ وكيف السبيل الى المرور من عالم الامس الى عالم الغد بدون رجة عاطفية ؟

انقضى وقت غير قصير ، واوشك الظهر ان يحين ، فنهض الحاضرون ، ونهض انطروسي عائدا الى المقهى . الطريق هو الطريق ، ولكن السائر فيه يختلف . لقد كرهه

بالامس ، افتراه يحبه اليوم ؟ كان يمله ولا يجد فيه جديدا ، فما بال اشياؤه تبدو جديدة الآن ؟ والمقهى الذي حسبه سجنا اكان روضة لم يكشف حقيقتها في حينها ؟

وتساءل في ذاته : « امسرور انا ؟ » ولم تجبه ذاته . وتساءل : « احزين انا ؟ » ولم تجبه ذاته ايضا ، ودخل المقهى وطلب فنجانا من القهوة ، وافضى بالنبا الى ابي محمد وخليل العريان ، فقام هذان باذاعته بين الزبائن ونشره في كل مكان .

كذلك جرت الامور بسرعة . وكان على الطروسي ان يعمل بسرعة ايضا ، لكن الاندفاع المطلوب كان ينقصه ، والبت الحازم المعتاد يعوزه ، وامده عقله بالمبررات فسي الوقت المناسب فاقترح على الرحموني ان يرأس المركب مؤقتا ، وزعم له انه مضطر الى المكوث فترة اخرى على البر « فترة قصيرة يا سليم ، ريثما ارتب اموري واسافر » .

واقره الرحموني على رايه ، وترك له الحرية في تحديد الموعد ، وسافر مصطفى احمد ، تاركا شريكه يصفسي اعماله كما قال .

وشرع الطروسي يرتب اموره فعلا ، انما بغير اسراع ، وكان يلاحظ من نفسه هذا التماهل ، ويستشعر قلقا لا يدري سببه : اهو الاهتياج الداخلي المتولد عن فرحة العمر ، ام الاسى الرقيق المنثال في الذات بسبب الفراق القريب لهذا الدفء اللذيذ بين ذراعي ام حسن ، وهذا الجو الاليف على صخور البطرنة ؟

لقد قضى عقدا كاملا وهو يحلم بالسفر الى بعيد ، وامضى سنواته السابقة يرتقب ساعة يصبح فيها مالكا

الحالي ، واستقرت على أهوال تلك الليلة التي انقذ فيها
الرحموني ، تذكر الاسطورة التي سمعها من البحار فابتسم:
« انتصرنا على البحر ، فأين ملكته !؟ »

وندا على هذا التحدي ، ولو في الخيال ، استغفر
البحر واعتذر اليه قائلا: « كلا ، انت هو الاقوى ! » وفكر:
لقد كانت شختورة الرحموني ، في متاهة الامواج ، قطعة من
خشب لا اكثر ، مركبا محطما مترنحا لا يرجى منه خير ،
فكيف انقذتها ؟ اية اعجوبة حدثت ؟ اية مغامرة قمت بها ؟
لقد جنت ، جنت ما في ذلك شك ، وفقدت حاسة الخوف ،
ولا استطيع ان اتصور ما فعلت بالضبط ، ولا اعرف كيف
سبحت الى الشختورة ولا كيف اندفعت بها مع الريح ببقية
من خام .

اشرفت الشمس من ورائه قرأى ظله يرتسم على الماء،
والتفت الى وراء فأبصر بعض الزبائن تحت الخيمة ، فقام
واتجه نحو الميناء ، مستظلا الابنية القائمة على جانبي
الطريق .

من جديد ، وريسا يقلع بمركبه بين الموانيء، فما شأن هذا
القلق الغريب يفسد عليه متعته الخالصة الآن ؟ ألم يعد المفر
امنيته المشتهاة ؟ وهل اصبحت الملكية شيئا ثانويا في نظره ؟
وهل تضاعلت قيمة الرياسة حتى اصبحت كسائر القيم ؟ ام
انه يستخف بملكيته وشراكته كليهما، والفرصة السانحة هل
يتركها تضيق ؟ ولئن ضاعت فهل تعود ؟ وفيم مكوثه على
هذه الصخور اذن ؟ وفيم رجاؤه الذي بذل له من ذات نفسه ؟
وماريا التي وراء الافق ، هل عبثا تلفت اليها القلب ؟ والام
يبقى هذا القلب متلفتا ؟

جلس القرفصاء على صخرته المفضلة امام المقهى . كان
الصباح رائقا من اصباح حزيران ، والشمس تستيقظ وتبتسم،
وانعكاسات اشعتها تتوهج حمرة على جوانب الافق ، وانفاس
البحر تبخر ضبابا خفيفا على وجه الماء ، والموج يلقي بكلمات
حب صباه في اذن الشاطيء ، وشرع ما ينطلق في طلب
الصيد ، وطيور النورس تجري تمارينها الاولى ، وزرقة
السماء تنبسط الى ما لا نهاية ، ورائحة ملحية تهف ،
وهمس يتردد آتيا من الاعماق .

ما اجمل الصباح على البحر !

اشعل سيكارة ميج منها نفسا ملا صدره ، ونظر بحنان
الى كل ما حوله ، فلما توقف بصره على خط الافق ، تتابعت
الخواطر تصل بين ما كان وما سوف يكون ..

عشر سنوات مضت وهو يحسب الا جديد ، ثم جاء
الجديد دفعة واحدة فأربكه . ان التفكير الهادي الذي لم يألفه في
ماضيه قد اصبحت مفروضا عليه في حاضره ، فهو مرغم على
ان يفكر الآن ، وان يحسب ، وينظر حوله ويقدر مواضع كل
خطوة ، افيكون هذا مبعث الاختلاط في مشاعره ؟
دارت به افكاره دورة واسعة ، فلما انتهت الى عامه

التي تحيط بالوضع ، وينتهي من ذلك كله الى القول ان فرنسا ستخرج من البلاد ، وعندئذ يجابه بالسؤال الذي لا يجد له جوابا : « متى تخرج ؟ »

وكانت المظاهرات تنفجر في جميع المدن السورية ، والاضرابات شبه عامة بين طلاب الثانويات ، والصحف تنشر الافتتاحيات النارية ، والاخبار تنتقل بين العاصمة والمحافظات برغم جميع الحواجز ، ونذير المعركة يلوح في السماء .

وكان الناس قد تقاربوا برغم تباين المعتقدات والآراء . نادى دمشق فلبت حلب وحمص وحماة واللاذقية والسويداء . ان الصيحة ، ههنا ، لا تضيق . الشام لا تنهض وتبقى في سورية مدينة قاعدة ، والضيم لا ينزل بالشعب السوري وتظل طوائفه ساكنة ، فالاتحاد في ساعات الخطر تقليد اصيل ، والكفاح رضاء حق في الدماء ، والعدو لا يستطيع ان يخدع الجماهير عن نفسها مهما تقنع ونفن في الخداع .

الخلافات ظلت موجودة بين الشيخ ضاهر والميناء ، وبين نديم مظهر وابي رشيد ، ولم يتنازل الاستاذ كامل عن مبدئه ، ولا اعتنق مخالفوه هذا المبدأ ، ولم ينته الصراع بين العمال وارباب العمل ، ولا بين الفلاحين والاقطاعيين ، ولكن الغنة الكبرى من كل هذه الاطراف ، التقت على صعيد الكفاح ، وبدا التمهيد للعمل المشترك .

ووصل رجال من الاحياء الى مقهى ابي زكور فارسلهم الى بيت زكي قعبور ، وظل هو ينتظر الرجل الذي وعده ان يأتي وتأخر ، وكان يعد القهوة ويناولها الى الخادم بحركات آلية ، ويقتل شاربيه ويحرك لبادته على راسه بعصبية بعثها الاخلاف بالوعد .

ان مقهاه عامر هذه الايام بسبب من ونجوده قى حي شعبي ، فمقاهي الشيخ ضاهر مكشوفة للسلطات والمخبرين

٥

كان مقهى ابي زكور يعج بالزبائن من شاربى التراكيل ولاعبي النرد .

وكان ابو زكور واقفا وراء الموقد بقامته العملاقة ووجهه الاحمر ذي الخدين الممتلئين والشارب الكثيف . وقد جعل يقتل شاربه ويفكر بشيء ما ، ثم ازاح لبادته عن مقدمة راسه وارسلها الى وراء ، وانصرف الى مراقبة باب المقهى الذي يطل على الكنيسة المعلقة في حي الشحادين .

وكان ابو حميد يجلس في زاويته . لم يعد سيد الحلقة ولا سيد الاخبار . انكسرت المانيا وانتصر الحلفاء واصبح هزاة الناس . لقد كره الذين انقلبوا على المانيا ، وكره المتذبذبين ، ولم يعد يطبق مقهى ابن آمنة قى الشيخ ضاهر ، ولزم دكانه في سوق البازار ، وعاد الى عمله الذي هجره وهو يركض وراء يونس . . « يونس الذي كان يعمل للانكليز في قلب المانيا ، تأمل يا ابو حميد ! هل كنت تظن هذا ؟ يونس نفسه يعمل للانكليز ؟ تفو . . ! »

وعلى رصيف المقهى جلس اسماعيل كوسا في صف شغل الرصيف كله ، وضم الاشخاص الاعتباريين في الحي ، جاءوا كلهم يشربون القهوة والشاي ، ويتبادلون الاخبار .

وكانت ظهور الجالسين تنحني ورقابهم تنمط حين يتكلم اسماعيل او احد الوجهاء قى السياسة . وام يكن اسماعيل اكثر الحاضرين وجاهة ، لكنه اوثقهم صلة بالكتلة ، وكان عليه ان يدافع عنها امام هجمات الناس ، يشرح الظروف والملابسات

الذين ما زالت فرنسا تحتفظ بجهاز خاص منهم ، وهي لا تصلح الا للذين يعيشون من الاحداث على هامشها . ومقهى الكازينو مركز فئة تلعب البوكر والبريدج وتشرب وترقص وتتفلسف بعد وجبات الطعام ، بينما مقهى ابي زكور وامثاله ملتقى الشباب والطلاب ورجال الاحياء ، يحتشدون فيه فيتبادلون المعلومات والتعليقات وينفعلون ويتحمسون ويشتمون ويعملون وتنبلور ارادتهم وتنعكس على حياة المدينة وكفاحها .

لم يأت الرجل الذي تواعد معه ابو زكور . كان بعض الشباب قد اندفعوا تلقائيا الى العمل ، ودفعوا بعض المال لشراء قطع صغيرة من السلاح ، فقام ابو زكور بالتحريبات حتى وقع على وسيط وعده بان يجمعه ببائع سلاح ، وها هو الوقت المحدد يمضي والوسيط لم يأت وابو زكور لا يستطيع الانتظار اكثر مما فعل لانه سيحضر الاجتماع في بيت زكي قعبور .

هو يعرف ان وعود مهربي الاسلحة وبائعيها غير دقيقة ، وقد حاول ان يلتمس عذرا للرجل فقال « ربما انكشف امره او حدث له حادث ، لكنه اذا كان كاذبا او واشيا ؟ وهل يجرؤ ؟ ان ساطور اللحم ما زال عندي في البيت » .

ارسلها في نفسه وهو يهم بمغادرة المقهى ، وشق طريقه وسط نداءات الزبائن بطلب القهوة والشاي ، وطاقات احجار النرد وهمهمات وشنائم لاعبي الورق الذين فتحوا اوراقهم ولم تاتهم « الباصرة » المطلوبة .

وفي الطريق التقى بالاستاذ كامل وآخرين قترافقوا . وسأله عن الحالة فقال : « سيئة ! » و اضاف : « الطلاب سيتظاهرون غدا ، لكن المظاهرة يجب ان تدعم بحركة شعبية موحدة ومنظمة ، وهذه الحركة تكون سندنا للحكومة ودافعا لها ، والا رجعنا الى وراء » .

وحين وصلوا الى بيت قعبور كانت الغرفة الكبيرة لا تكاد تسع ، ودخان كثيف ينعقد في الجو ، ولفظ وجدال ، ورجال من الاحياء والاحزاب والهيئات يجلسون في كل اطرافها ، ونديم مظهر في الزاوية ، والى قربه الطروسي يجلس القرفصاء وفي حضنه خيزرانتة .

— السلام عليكم ..

— وعليكم السلام .. يا هلا ..

وصاح الطروسي :

— تعال الى عندي ابو زكور ..

وجلس ابو زكور وهو يسأل :

— الى اين وصلنا ؟

— بعدنا في محلنا ، نقول لهم ثور ، قيجيون احلبوه .
فقول لهم اللاذقية غير الشام ، فيقولون خطر ١٩٣٦ ولى وراح ، فتأمل !

وتكلم عدد من الحاضرين عن الوضع وخطر المرشد وقال الاستاذ كامل : الاستقلال الذي اخذناه لا يصبح استقلالا كاملا حتى يخرج الفرنسيون والانكليز ، ونحن نعرف انهم لا يريدون الخروج ، وهم يماطلون ، ويتآمرون ، لكنهم لا يستطيعون البقاء اذا وحدنا صفوفنا ، اما بالنسبة الى اللاذقية فان خطر المرشد خطر حقيقي يجب ان نقضى عليه .

فقاطعه رجل كان ضد التعاون مع فرنسا والانكليز خلال الحرب :

— هذا الكلام قلناه من زمان ، وحذرنا من الوعود فقال جماعة الكتلة : الوعد هذه المرة جد ، فمن منا كان على حق ؟

صاح نديم مظهر :

— اتركونا من الحساب الان ، جئنا لتعاون ام لنتخاصم ؟

وقال بعض الحاضرين :

— اتركونا من الماضي ، وحدوا الله واخلونا في الحاضر .

وتابع الاستاذ كامل قائلا :
 - حصولنا على الاستقلال كان الخطوة الاولى ، وتحقيق
 الجلاء هو الخطوة الثانية ..
 - والخطوة الثالثة ؟ واخطاء الماضي !! ؟
 وعاد نديم الى الاحتجاج :
 - اتركونا من الماضي يا جماعة ، نحن اولاد الحاضر ،
 ماذا يجب ان نفعل الآن ؟
 - التاريخ يعيد نفسه ، حوادث ١٩٣٦ نفسها ،
 والمرشد وحركات الانفصال من جديد .

قال الاستاذ :
 - التاريخ لا يعيد نفسه . فرنسا اليوم غير فرنسا
 بالامس ، انها اضعف ، والانكليز اضعف ، نحن اقوى ،
 الدنيا تغيرت ...
 - والمرشد ؟

اجاب اسماعيل كوسا :
 - المرشد لم تعد له قيمة ...
 - ولماذا ؟ وكيف ؟
 - زمنه ولى وراح .

فتصدى له احد التجار :
 - لا يا سيدي ، ما ولى ولا راح ، والخطر على اللاذقية
 مضاعف ، من فرنسا والمرشد ، فلماذا نتهرب من الحقيقة ؟
 - لا نتهرب من الحقيقة ..

- بل تتهربون . تقولون : فرنسا خطر ، وهذا على
 رأسي ، ولكن المرشد خطر اكبر ، انا اشم رائحة عصيان ،
 « وجوبة برغال » (١) أصبحت مركز المستشار فماذا يفعل

(١) جوبة برغال احدى قري اللانقية . كانت مركز المرشد ومعتصمه

في ذلك الحين .

هناك ؟ يصلي ؟ يصطاد ؟ لا ، يتآمر ، وغدا ترون كيف تبدأ
 المشاكل وتقطع الطرق على سيارتنا وارزاقنا وتنتشر
 العصابات ..

قال اسماعيل كوسا :

- من هذه الجهة الحكومة ساهرة .
 - سهر الحكومة وحدها لا يكفي ، مشاركة الشعب
 ضرورية ، لام نستعد .
 وقال البعض :
 - الحكومة تؤمن بالمفاوضات ، ونحن نؤمن بالسلاح .
 وقال نديم مظهر :

- خلوا الحكومة تفاوض والشعب يتسلح ، السلاح
 ينفع في كل الاحوال ، اذا وقعت الواقعة مع فرنسا يلزمنا
 السلاح ، واذا تحرك المرشد يلزمنا السلاح ، والسلاح يحتاج
 الى المال ، وعلى الاغنياء ان يدفعوا ، انا هكذا افهم المسألة ،
 وهذا رأيي والسلام .

نظر ابو زكور الى الوجهاء الحاضرين ليرى وقع الكلام
 في نفوسهم فلم يتبين شيئا . وقال الاستاذ كامل :
 - انا من هذا الراي . لا بد من معركة .. والمعركة
 تحتاج الى سلاح . فمن كان في مقدوره ان يشتريه فلا يتأخر ،
 ومن لم يقدر على شراء السلاح يجب توقيره له ، والا فهل
 يقاتل بيديه ؟

- عندنا ساطور اللحم (قالها ابو زكور ساخرا)

- وهل تنوي استعماله مرة اخرى ؟

- هذا سلاحي حتى استلم بارودة .

- الرجل لا يتخلى عن صنعته . اشتقت الى التقصيب

يا ابو زكور ، لماذا لا تعود الى بيع اللحم ؟

- الله اغثناني عن هذه الصنعة ، يكفي انها كادت توصلني
 الى المشنقة .

كان أبو زكور جزارا في صباه . وكان شرطي ينظم بحقه المخالفات ليرغمه على رشوته ، فلما رفض ذلك ضايقه ، فضربه بالساطور وهرب الى فلسطين ، ثم عاد بعد عشر سنوات ففتح المقهى في الشحادين واعتصم به ، وصدر عفو عام وكان الله يحب المتقين . وقد ازعجه التذكير بالواقعة فقال :

— اعفونا من هذه القصة .. انا ايضا من رأي نديم ، لماذا لا تتكلم يا اسماعيل ؟
— اطمئنوا !

— على ماذا ؟

— الحكومة ساهرة .

فقال نديم محتدا :

— علينا ان نسهر نحن ايضا ، لماذا الانتكال ؟

وسأل رجل من صغار الملاكين :

— ما هي اخبار الشام ؟

— الحالة متوترة جدا ، ربما اعلن الاضراب العام وبدأت

المعركة في كل لحظة .

— وما هو موقف الانكليز ؟

— يلعبون على الحبلين ، ويريدون الحلول محلل

الفرنسيين .

— وهل نستطيع مقاومة الدولتين ؟ ومن يساعدنا ؟

قال الاستاذ :

— الشعب يستطيع كل شيء .. اما المساعدة فتأتي

في وقتها ، لنا اصدقاء نحن ايضا ..

— لا نريد دعاية في الاجتماع .. لا نريد دعاية للروس ..

— الروس ليسوا بحاجة الى دعاية ..

— بل انت تعمل دعاية لهم ، وتتكلم كما يتكلمون .. و

... وجاء صوت الطروسي من الزاوية :

— واذا تكلم كما يتكلمون ؟ هل تريد ان تسد فمه ؟
حاسبه على اقواله، هل فيها شيء مضر ؟ وهل هي خطأ ؟
وتدخل بعض الحاضرين فقالوا :

— لا بأس بتبادل الآراء .. ولكن احصروا الموضوع
بشراء السلاح .

— الفوا لجنة لجمع المال ، ولجنة لشراء السلاح .

— هذا هو الحل ..

ازدادت الجلسة حماسة ، وظهر الارتياح على الوجوه،
وبداوا يستعرضون الاسماء ، فلما ورد اسم الطروسي قال:
« اعفوني من عضوية اللجان ، اجمعوا المال واشتروا السلاح
وانا اقوم بنقله » .

— عظيم ..

واقترح أبو زكور :

— من رأيي ان نبلغ اهل السوق لكي يستعدوا . ربما
خطر للفرنسيين ان يغدرونا ، او ربما نزل جماعة المرشد
وهم مسلحون ، نسيتم غارة ١٩٣٨ ؟

فأجاب الطروسي :

— لا حاجة للشرح .. شعبنا مثل النار في القش ..

قال الاستاذ :

— ومع ذلك لا بأس بالتفهم والاستعداد .

وقال رجل :

— يجب مراقبة طريق « الجوبة » لنعرف من يذهب

ومن يأتي .

— فكرة حلوة ..

— خذوا الاخبار من الفلاحين في البازار .

— أبو حميد يعاوتكم في شم الاخبار

ضحك اسماعيل كوسا وقال :

— اتركوه بهم .. أبو حميد زعلان على هتلر هذه

الأيام ، يجلس في المقهى فلا يتكلم ، وإذا تكلم شتم الكتلة ..
 - نحن لا نتدخل بينه وبين الكتلة .. أبو حميد وطني
 والا لا ؟ أما قال أنه يحب المانيا نكاية بفرنسا وبريطانيا ؟ ليثبت
 قوله الآن ، نديم يفتاحه بالموضوع لأنه يعون عليه .
 فوافق نديم على كلام الاستاذ وقال :
 - انا مستعد اذا كنت تذهب معي .
 - على رأسي ..
 - تصبحون على خير ..
 - وانتم بخير ، مع السلامة يا شباب ، احموا ظهور
 بعضكم بعضا ، وكونوا على قلب واحد .
 - هذه لا تحتاج الى وصية .
 وقال مصطفى خادم الجامع .
 - ان ينصركم الله فلا غالب لكم .
 وكانت هذه كلمته الاولى والاخيرة في الاجتماع .

ترافق الطروسي والاستاذ كامل بعد خروجهما من بيت
 قمبرور وسارا في طريق افضت بهما الى شاطئ البحر ، قرب
 المستشفى الوطني، ومن هناك انعطفا نحو الميناء .
 وسأل الاستاذ كامل :
 - ما الذي جاء بك الى الاجتماع يا ابو زهدي ؟
 - الذي جاء بك انت .
 - اقصد انك مشغول بالسفر ولا تطيق الاجتماعات .
 - نعم لا اطيعها .. احب العمل اكثر من الكلام ، ولكنني
 تغيرت « عاشر القوم اربعين يوما تصبح منهم وفيهم » ونحن
 عاشرناكم سنوات .. خطيئتي في رقبتيكم .
 - في رقبة الدين حبيوك بهتلر .
 - بل في رقبة الذين كرهوني به .
 - ومن هم الذين اقترفوا هذا الائم ؟
 - الابرار الاخيار امثالك ! (وبعد وقفة) الم تسمع ؟
 ابو حميد يتهم الجميع بالتذبذب ، بما فيهم انا ، ويقول اننا
 تغيرنا وانقلبنا ، فهل يعجبك هذا ؟
 - وماذا ترى انت ؟
 - لا ارى شيئا .. انا لم اقبض هتلر من اول الامر
 هتلر حليف موسوليني ، وموسوليني قاتل عمر المختار، وكنت
 اسير ابا حميد حتى جئت انت ..
 - اذن صدق ابو حميد ، تغيرت ..
 - وهو نفسه تغير .. آراؤه في الروس ليست كالسابق

وحماسته لالمانيا خفت .. وقد مدحك منذ ايام ، وقال انك رجل فهمان ، لانك عرفت ان المانيا ستتكسر .
فابتسم الاستاذ وقال :

— ابو حميد رجل طيب ، احب المانيا لانها ضد فرنسا وبريطانيا ، واحب هتلر الذي زعم انه صديق الشعوب ، ثم تبين انه عدو الشعوب .. نحن قوم لا نحب الدكتاتورية ، والافكار ستتغير ، والناس سيتغيرون .

فقاطعه الطروسي مع ضحكة خفيفة قائلا :

— اراك تحوم حولي لتصطادني (واضاف ضاحكا) هل تظن ان ما تقوله يخرق في عقلي؟ اقوالك حلوة ولكنها لا تدخل راسي، انا، كما ترى ، لا اصلح للفلسفة ، انا وطني بدون فلسفة ، وطني على الناشف .

— انت « زكرت » ولذلك احببتك .

— وانت « زكرت » ايضا . حدثني قاسم الجرو فقال انه كلف بالاعتداء عليك، ودخلت انت مقهى كان موجودا فيه مع بعض اصحابه ، فجئت وجلست معه وتحدثت اليهم فحجل ان يتعرض لك بعد ذلك .

كانت الحادثة بعيدة . وقد علم الاستاذ ان ابن الجرو مدفوع للاعتداء عليه ، فدخل احد المقاهي الصغيرة يوما وفوجيء به فيها ، لكنه لم يشأ ان يتراجع بل سار وجلس على نفس الطاولة ، واكل معه خبزا وملحا .

ولخص الطروسي رايه فقال :

— يعجبني منك هذوؤك وصيرك في مناقشة جماعة ابي حميد ، ويعجبني اكثر جلوسك مع البحارة والعمال .

فكر الاستاذ « اذن افكاري لا تجذبه بل اخلاقي ومعاملي » ثم هتف في سره « وما الفرق ... الفكرة هي المعاملة » .

كانا قد وصلا الى مفترق السراي ، فودع احدهما

الآخر ، وسارا في اتجاهين مختلفين : نزل الطروسي نحو البطرنة ، وصعد الاستاذ نحو القلعة .

كان الليل قد اوشك ان ينتصف ، وكان في المقهى بعض الزبائن ما يزالون ، ومعظمهم من الصيادين ، يتسامرون كعادتهم ، وقد تحلقوا شبه دائرة حول خليل العريان. وصياد منهم يتحدث عن الصيد ويقول : البوري ! البوري !

كان يتغزل بسمك البوري الذي يعتبره اطيب انواع السمك ، وقد روى ، اثباتا لرايه ، ان الاسماك اجتمعت يوما واخذت تتفاخر في طيب لحومها ، فلما اراد البوري ان يفخر قالت له : « نحن لا نتكلم عنك يا الية الغنم » .

فتفتح خليل عينيه واعترض :

— لا الية غنم ولا بلوط ، بعد السلطان ما فيه سلطان والسلام .

— والجريدين ؟ نسيتم ملك السمك يا اخوان !

واراد صياد في النهر الكبير ان يدلي بدلوه فقال :

— اكلة الحنكليس عندي اطيب من الخروف .

فقاطعه صيادو البحر :

— اتركنا ياه .. يلعن الحنكليس واكله .

انقسم الحاضرون على الاثر : صيادو النهر برأي ، وصيادو البحر برأي، وكانت المناقشة طريفة ، تبدأ ولا تنتهي، فغادرهم الطروسي وفي وده ان يبقى معهم . خيل اليه ان قلوب هؤلاء البسطاء خالية لا تعرف الاحزان ، وان افتتاحهم بالصيد سر سعادتهم ، وانه كان سعيدا حقا يوم كان مثلهم حقا ، فماذا حدث له وهو على البر ؟ ولماذا تنوعت مشاغله وازدادت همومه ؟ واين ذلك الزمان الذي كان فيه لا يكثرث للدنيا ؟ ود ان يسافر من غد ، ان يترك كل شيء ويمضي ، ان يقطع اسبابه بالمقهى والبطرنة ، ويسترد نفسه من جديد .

مضى الى صخرته فلف سيكارة واشعلها ، وفكر بما
سمع الليلة وما طرا على المدينة وما ينتظر وقوعه من احداث
وتساءل : « اسفر ام بقاء ؟ »

كان يظن انه سيسافر بعد عودة الرحموني من
الاسكندرية ، وما هي قضية المرشد والمعرفة مع فرنسا ،
فكيف يسافر في هذه الاحوال ؟ وكيف يبيع المقهى ولا يجد من
يشتره بسبب الازمة ؟ وحتى لو باعه فانه لن يسافر قبل
نقل السلاح كما وعد ، والا حسبه جباناً ، وربما احتاجوا
اليه فافتقدوه . وعندئذ ماذا يقولون ؟ : « هرب الطروسي !
هذا رجل بحر ما رجل بر ، والذين خرسوا يوم عدت بالرحموني
وشخوته سيجدون فرصتهم الآن لاغتياي والانتقام مني .
لن اسافر الآن ، سأترث حتى ينجلي الموقف ، ثم ابدأ
بتصفية اعماله ، فالمعرفة لن تطول ، وسأسافر بعد اداء
واجبي ولو طالت » .

رنا الى البحر مشوقا . . كان موجه المصطفى يتكلم
ويدعوه ، ونداء بعيد يترامى اليه ، وشيء ما يذوب في
صدره .

وكان الليل قد تقدم ، وصيادو البحر والنهر قد
انصرفوا . لم يتفقوا ولم يختلفوا ، ولم يكملوا الحديث ولا هم
بقادرين على اكماله . سيستأنفونه غدا وبعد غد الى آخر
حياتهم ، ففي كل يوم صيد جديد وقصة جديدة ، وفي كل يوم
رجاء وشقاء وسباب وعراك ، هذه هي حياتهم ، وهو يعرفها
ويحبها برغم قسوتها .

٧

كان ابو حميد منهمكا بتطريق قطعة حديد حين دخل
عليه نديم مظهر والاستاذ كامل .

وكانت الحديد حمراء كالجمر الذي اخرجت منه ، وابو
حميد شبه عار ، والدنيا حر ، والبازار قائم قاعد ، وصوت
ابي سميرة يلعلع كعادته ، وامامه وحواليه سحارات الخضرة
في هذا الجو المشحون بالضجيج ، « المعطر » برائحة الشواء ،
جلس الثلاثة يتحدثون ، وقد قدم ابو حميد احسن مقعدين
عنده الى ضيفيه ، وقرفص هو امامهما وعلى وجهه اشراقة
طفلية ، بعثتها الزيارة وطبيعة المفاجأة التي رافقتها .

— اهلا بالشباب اهلا ، خير ! كيف جرى ؟

قال نديم :

— ما لنا غنى عنك .

وقال الاستاذ مداعبا :

— وفي الليلة الظلماء يفقد البدر .

— العفو ، انا محسوب الشباب ، محسوب شواربكم ،

انتم البدور ، اي علم الله زيارتكم غالية عندي .

وفرك يديه وسحب علبة التبغ فقدمها الى نديم ،
فاخذها هذا وناولها الى الاستاذ ، ثم خرج ابو حميد فأوصى
على فتجانين قهوة وعاد ، لكنه ما كاد يجلس حتى نهض الى
الباب وصاح بأبي سميرة :

— ابو سمرو ، على مهلك .

— على عيني ابو حمدو ، ما تكرم !

الا ان الحديث ما كاد يبدأ حتى ارتفع صوت ابي سميرة منتهرا احدي العجائز : « انت يا اختي ، قلنا لك اسعارنا محدودة كلمة واحدة ، العمى ، حددنا الاسعار وما خلصنا؟! » فأجابته :

– متى يا بعدي ؟ متى حددت الاسعار يخزي العين ؟ وفرقع ابو سميرة بضحكة انزعج لها ابو حميد فنهض منتهرا وقال :

– ابو سمرو ، قلنا لك عندنا اودام ، اتركنا نفهم عليهم خسي .

– ما على راسي ابو حميد ، وحياة شواربك انت والاودام ما راح يطلع صوتي من حلقي . فتدخل نديم قائلا :

– اتركه يسترزق ، ضجة السوق اعلى من صوته .

وجاءت القهوة فشرباها ، وقال نديم :

– المعركة مع المرشد اصبحت قريبة يا ابو حميد . وازاف الاستاذ :

– مع المرشد وفرنسا .. وقد اجتمعنا امس وقررنا توحيد الجهود ، واقترح الاخوان ان نتعاون ، فما رأيك ؟

تمسكن ابو حميد باذيء الامر ، واراد تمثيل دور المتواضع العاتب على العقوق ونكران الجهود فقال :

– ومن انا حتى اعاونكم : ايام ابو حميد راحت ، اصبح راينا غير مقبول وكلامنا مضحكة .

فانتهر نديم الفرصة لاستمالته اليه شخصيا ، قال :

– باطل ابو الحمد .. كلمتك مسموعة دائما ، وامس

ذكروك بالخير وقال الجميع ، انعم واكرم .

– واسماعيل كوسا ؟

غمز نديم مظهر الاستاذ وابتمسا : « عدنا الى موضوع الكتلة ! »

– اسماعيل فرد وسعره بسعرك ، والمعركة مع المرشد وفرنسا ، ولا بد من التعاون والا فشلنا !

وشرح الاستاذ ما دار في الاجتماع ، و قال ان الآراء السياسية اذا اختلفت فلا يجب ان تكون عائقا دون توحيد الجهود الوطنية ، واعطى مثلا بالاضراب الخمسيني فسي دمشق : « لولا اشتراك جميع الهيئات ما نجح ، والان نحن امام معركة ، ونواجه عدوين : فرنسا والمرشد » .

– والانكليز ؟

– الانكليز يتظاهرون بالوقوف على الحياد ، ولكنهم كاذبون . يريدون الحلول محل الفرنسيين وستكون المعركة ضد الفرنسيين والانكليز معا .

– وما رأي الكتلة ؟

– هذا رأي الاكثرية .. وكذلك الكتلة .

– وهل تصدقون ؟ الكتلة في الحكم ، وهي ..

وابتمس نديم والاستاذ مرة اخرى ..

– من المفروض ان يتعاون الجميع ، ومن يتخلف يكشف نفسه ، المعركة هي المحك .

– وما دوري انا ؟

– دورك شم اخبار المرشد .

– بسيطة ، سأغلق الدكان من الفد .

قال نديم متحمسا :

– عشت أبو الحمد ، صدق الاستاذ والله ، معدنك من ذهب .

وقال الاستاذ :

– هذا معدن شعبنا .

– شعبنا وطني ولكنه متقلب ..

– لا ، شعبنا حساس ، هذا هو الصحيح ، لا يمكن

خدعه طويلا ، والا لجره الشيخ تاج وراءه .

لم يقتنع ابو حميد بهذا الكلام ، فهو ساخط على الذين انفضوا من حول المانيا ، ولو قال ذلك غير الاستاذ لعارضه فوراً ، الا ان هذا استطاع ان يفهمه وان يحظى باحترامه رغم اختلاف العقليتين .

وعلا صوت ابي سمير في الخارج ، فقام ابو حميد وخرج صائحا :

— خلصنا ابو سمره سودت وجهي ، يلعن ..

غاص ابو سميرة بين السحارات ، واغلق فمه بحركة ارضت ابا حميد ، رغم ان صياحه تجدد بعد لحظة ، وكان ابو حميد يعرف منه هذا ، لكنه تعمد اصدار الاوامر اليه امام ضيوفه ، مدفوعا برغبة لا ارادية للظهور بمظهر صاحب النفوذ ، خاصة بحضور نديم والاستاذ اللذين جاءا يطلبان منه الاشتراك في عمل سياسي .

ولقد توقع من الاستاذ ان ينظر الى صورة هتلر الملصقة على الجدار ويتسم ، او يعلق بكلمة . وادهشه منه انه تجاهلها كان صاحبها لم يعد شيئا ، او لم يكن في الاصل شيئا . وكان ابو حميد قد الصق الصورة حيث هي مؤخرا ، نكاية بالانكليز وبالذين كانوا مع المانيا فأصبحوا مع بريطانيا « هؤلاء الاوغاد الذين اداروا ظهورهم لهتلر بسرعة » .

وكان الميجر الانكليزي في اللاذقية يسعى جاهدا للاتصال بالذين كانوا على علاقات مع المانيا ، وحتى انه ارسل الى دكان ابي حميد يسأل ما اذا كان لا يزال حاقدا على بريطانيا ، فأجاب ابو حميد الرسول :

— سأظل ضدها حتى الموت .

فنصحه الرجل :

— لو خففت عداؤك قليلا لاستفدت .. الميجر يسأل عنك .
— يسأل عني انا لماذا ؟ قل للميجر ابو حميد حداد ما سمسار سياسة !

ونكاية به صاح في مقهى ابن آمنة بالشيخ ضاهر وراديو لندن يهاجم الاتحاد السوفياتي :

— لا تصدقوا دعايات الانكليز .. انروس اشرف من لحية ابيهم .

وانقطع بعد ذلك عن المقاهي ، وبدا ضيق الصدر كثير التأسف على اخلاق الناس ، واصطفى ابا سميرة يبشيه اشجانه ، معتبرا نفسه في السياسة من المتقاعدين ، حتى جاءه اليوم نديم والاستاذ يخرجانه من عزلته . وسمع نديم يقول له « معدنك من ذهب » فagitبط كما لم يفتبط الا ايام انتصارات هتلر ، وعد هذه الكلمات تعويضا عن العقوق ، واحسن مكافاة على الجهاد القديم ، واندفع يتحدث في حماسة متقدة فقال :

— اؤمروا يا شباب ، قنابل ؟ مفرقات ؟ هجوم على الشكنة ؟ انا متطوع ، فدائي وحياة شواربكم .

قال الاستاذ :

— الحركة لا تعتمد على اللقاء القنابل . سنعمل في وضع النهار ، واول شيء هو الاستعداد ومعرفة اخبار « الجوبة » .. هل لك زبائن فيها ؟

— من « الجوبة » لا ، ولكن من « الحقة » نعم ، اتركوا المسألة عليّ .

— على شرط ...

احس ابو حميد بصدمة غير متوقعة فسأل :

— ما هو ؟

— ولا كلمة عن الموضوع في المقاهي ..

— على رأسي ، ما عدت اجلس في المقاهي .

— لا ، اجلس ولا تقل شيئا ، اشتر ولا تبع .

— واذا سألوني عن الاخبار ؟

— حدثهم عن هتلر ..

.. وضحك الثلاثة ..

وقال ابو حميد :

- فهمت عليكم .. لا حاجة للشرح .

ونفض الضيفان وانصرفا ، فعاد هو الى تطريق قطعة الحديد ، ثم لم يلبث ان تركها ولف سيكارة وجعل يدور فى الدكان ..

كانت فرحته طاغية ، ولا بد من اشراك غيره فيها ، فاسرع الى الباب وصاح :

- ابو سمرو ، اترك شغلك وتعال بسرعة .. بشارة حلوة . ولما تلكأ انتهره قائلا :

- ابو سمرو ، اترك البندورة والبطيخ .. المسألة مهمة . لكن البيع اهم عند ابي سميرة ، فتصامم ، وظل يساوم زبونا على بيعة من البطيخ ، الامر الذي اثار ابا حميد ودفعه الى زعيق حاد :

- ابو سمرو . ما سمعتني خي؟! يلعن دين البطيخ ، قلنا لك المسألة مهمة وبعدك قاعد ، ما تهيبني هه !

فقفز ابو سميرة من مكانه وهو يقول :

- لا تكفر ابو حميد ، امر ، خير ان شاء الله !

فمد ابو حميد ذراعيه الطويلتين واحتضنه قائلا :

- خير وبس ! اعترفوا بحزبنا يا ابو سمرو !

٨

رجع الرحموني من سفرته الى الاسكندرية وفي ظنه ان الطروسي صفى اعماله واعد عدته للسفر . فلما فاتحه في الامر اجابه « امهلني قليلا ايضا .. ما زلت اسعى لبيع المقهى وترتيب الامور .. انا اكثر الناس شوقا الى السفر ، ولكن هناك بعض الاعمال ، وهذه الحالة اللعينة عقلت الوضع ، والمرشد يتحرك ، والمظاهرات لا تنقطع ، وربما حدثت بعض الامور » .

- ولكن انت بحار ..

- وهل البحار على راسه خيمة ؟

وقال الرحموني موضحا :

- اقصد ان عمك في البحر ، ولا تستطيع البقاء على

البر ، اما الواجب فعلى البراس ، وهل تظنني اتأخر ؟

وابتسم الطروسي كأنما يعتذر عن حديثه :

- الحق معك يا سليم ، لا يستطيع البحار البقاء على

البر ، ولا اقصد ان تترك اشغالنا ، ولكن علينا ان نفعل

شيئا ، ان نساعد بشكل من الاشكال ، بالعمل او بالمال ..

- المساعدة من حبة العين ، انت مفوض بدفع اي مبلغ

تراه مناسباً باسم الموكب ..

- ولدي مهمة ايضا ، اقضيها واسافر ، ما رأيك ؟

- وتسايتي ايضا ؟

واحتضن الطروسي شريكه في فورة من حماسة وقال :

- ما شككت ابدا في الجواب ..

ولما افترقا اوصاه سليم بنبرة رجاء :
— هل تعدني بأن تحترس ؟

وقال الطروسي وقد ادرك خشية الرحموني عليه :
— وهل تحسبني ذاهبا الى القتال ؟!

بعد يومين من ذلك روى الطروسي هذا الحديث لنديم
مظهر ، ومازحه قائلا :

— اصبحنا من اصحاب المراكب ، قلا « تشقلوا » علينا
في المهمات !

واجابه نديم :

— نعرف هذا ونقدره ، لذلك اخترنا لكم مهمة «خفيفة»
تليق بالمقام !!

وتحدثنا قليلا على انفراد . كان مع نديم رجل رآه
الطروسي لأول مرة في اجتماع الشحادين ، وعرف انه قريب
عن المدينة ، وان لوجوده علاقة بما يجري في البلاد . ولم
يتكلم الرجل قط ، بل ترك نديما يشرح الامر الذي جاء لاجله،
فلما نهضا نادى الطروسي ابا محمد واوصاه بأن يبلغ احمد
انه سيلقاه في المكان الذي عينه له ، وذهب الى طرف الصخرة
وتفقد فلوكة ذات مجاذيف وشراع ، ووضع يديه وراء ظهره
وانصرف .

كان مسدسه مشكولا في خاصرته ، فوق القميص وتحت
الدامر الاسود ، وقد حجبته السترة القصيرة المشقوقة عند
الظهر ، حيث تبرز ثنيات شرواله الاسود ، ومن كل سيماه
يلوح انطباع يدل على انه ملكف بمهمة . وربما تضاعف
اهتمامه بها لانها بتكليف من نديم مظهر ، ولانه يحرص على
القيام بها بمهارة ورجولة ، لكي يثبت وفاءه وجراته ، ويقول
له « ها انا ذا يا نديم ! »

ولاحظ ابو محمد الجو الفامض قلق ، وود لو يعرف
ما دار بين نديم والطروسي ، وزادت حيرته حين جاء بحار
وسأل عن الطروسي ورفض ان يجيب عما يريد منه .

وجاء احمد اول الليل ومعه بحاران ، فرفع مرساة
الفلوكة واتجه بها الى الشمال ، وركض ابو محمد وناداه من
فوق الصخرة ، والى عليه ان يعود ليكلمه ، فما رضي، ولعله
تعمد تجاهل صيحات ابي محمد ، تيشعره ان الزمن الذي
كان ينتدبه فيه لقضاء صفار الامور قد ولى ، وانته مكلف
بمهمة الليلة .

وعاد ابو محمد من على الصخرة ساخطا ، فقد تسبب
احمد في وضع وزنة جديدة في كفة الشك، وبدا الموقف له
وكانه فوق طاقة فهمه ، فسار الى الوجاق واستسلم الى
افكاره الخاصة .

انطلقت اربعة مجاذيف تلامس الماء ببطء .. وتفرف منه بقوة كأنها تمتح البحر، وراحت الفلوكه تجري خفيفة سريعة كالחסكة في طريقها الى الشمال . وكان الطروسي يوجه الدفة وعضلات اذرع البحارة تنقلص وتمدد بتواتر عنيف ، وصدرهم تملو وتهبط بتوافق مع حركة التجذيف، والماء يقطر ويخر ، والزبد الابيض يرغي فوق الفجوات المائية الشبيهة بأقدام الفرس وهي تخب على رمل ، والفلوكه تشق طريقها كمحراث قوي، وتترك وراءها ثلما طويلا ازرق على حافتيه الزبد ، ومن جانبيه اثار المجاذيف بشكل خطين طويلين من النقط ذات التخاريم .

وكان الجو صافيا ، كأن مصباحا كهربائيا قد اضيء في قلب الكرة البلورية ، فأصبح في الامكان رؤية ما في داخلها فيما يلي قشرتها الشفافة التي ترصعت بنجوم لا عد لها ، وكان ليل الساحل المندى بطراوة المساء ، وخيرير الماء المتصاعد من المؤخرة ، وايقاع المجاذيف ، وتكسر الموج على المقدمة ، ورائحة البحر التي تشعل قتيل الشهوة وتبعث جنون الحب والمغامرة : كان كل هذا ، يضاف اليه ما احيط بالرحلة من سر ، يحف بالفلوكه ، ويرف عليها ، ويعبق بالمشاعر الفوارة في صدور بحارتها ، حتى انتشوا ، وسكتوا ، واصفوا الى ترنيمة البحر والليل .

وقطع صوت الطروسي نشوتهم هذه طالبا ان يتوقفوا عن التجذيف . ان في البعد ضوءا ينوس ، وهو ضوء صيادين بغير شك ، لكن الطروسي كان حذرا بشكل غير عادي ، حتى تساءل البحارة في سرائرهم : « الى اين نحن ذاهبون ، وماذا نحمل من اشياء تبرر هذا الحذر والاحتياط ؟! »

ومضى على ذلك وقت غير قصير ثم جاءهم صوت الطروسي قائلا :
- سيا ، جذفوا ...

وجه الطروسي قبل ان ينطلق بالفلوكه التعليمات التالية الى بحارته : « لا سيكارات ولا كلام بصوت عال حتى نقطع منطقة المرفأ . ادفموا المجاذيف بقوة ، ولكن بدون صوت ، انتم بحارة فهاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

سأله بحار :

- وما حاجتنا الى كل هذه الاحتياطات ، نحن معك وتخاف ؟
- لا اخاف غير الله .

قالها بحدة لا اثر فيها للمسايرة ، ثم اضاف مؤنبا البحار :
- وممن اخاف ؟

- لا ادري ..

فنظر اليه نظرة رازه فيها برغم العتمة وقال :
- لولا انني اعرفك ، واعرف انها كلمة صدرت عفوا ، لافترقنا قبل ان نبحر .

وادرك البحار ما انطوى عليه كلامه من تعريض فقال :
- وحياة أبي الزهد ..

قاطعه الطروسي :

- لا تكمل ، فهمت ..

اصر البحار على الكلام :

- وحياة الطروسي والاخوة ما سألت عن غش ، اردت ان اعرف فقط ، و... .

ورجاه احمد :

- امسحها بذقوننا ابو زهدي ، سيا يا شباب سيا ..

والتفت الى احمد وامره :

— افتح الخام ..

كان الاتجاه شرق شمال بسبب تعذر السير بمحاذاة الشاطئ ، ثم لا بد من الذهاب مع العمق للتضليل ، وقد تحرك الهواء قليلا ، فاندفعت الفلوكة خفيفة الى امام ..

انها حمامة ذات جناح ابيض ترف الآن على وجه الماء ، تلامسه بجناحيها ، تحديق فيه بحثا عن شيء ، ثم تمضي والموج المستثار يشرب اليها ليمسك بها ، الا انها لا تبالي به لانها تعرف انه لا يبلغ سوى ان يفسل عنقها .

وفي قاع الفلوكة مد البحارة أرجلهم واستراحوا . حين تنفرد الريح بالعزوف على الشراع لا بد ان يصمت المجذاف ، وفي حال كهذه يحسن به ان يضع رأسه في الماء وينتحب وجدا كما تفعل الناعورة ذات الانين . وقد انفمست رؤوس المجاذيف في الماء ، وظلت مدلاة كذلك ، فما دامت الريح قد واثت فلتسرح الاخشاب مشكورة على ما بذلت من جهد كبير لتعطي فائدة قليلة .

ومد الطروسي يده بعلبة التبغ الى البحارة :

— دخنوا !

تناولها البحار الذي يليه فلف سيكارة ثخينة ومررها لمن يحاذيه . انهم يحملون تبغهم معهم ، اما السيكارة الاولى فلا بد ان تكون من الرئيس .. هذه قاعدة بحرية يعرفون ان الطروسي يحافظ عليها لتستوفي رياسته حقها . وقد داعبه احدهم قائلا :

— عادات البحر تتغير عند الجميع الا عندك يا ابو زهدي ، مع انك لست بحارا محترفا الان .

قال الطروسي :

— ولا انا قهوجي محترف . المقهى باب رزق ، اما

البحر (وسكت كأنه يفتش عن كلمة) البحر حبيب .

— نحن نشتهي سفرة معك يا ريس .

— ان شاء الله ..

— اما انا فقد قضيت شهوتي (قال احمد)

— فقال الطروسي :

— وكدت تندم عليها .. حادثة الرحموني عجيبة ، وقد

لا تتكرر .. الشباب ! بارك الله بالشباب . فسي صباي تراهنت مع بحار على الفطس من تحت البابور ، واليوم لا افعل ذلك مهما كان الثمن .

قال احمد :

— اما انا فأفعل ، اصبحت احب السفر ، والرحموني

يعاملني كأبن ، وكلما ذكرك قال « هذا اخ » وفي الاسكندرية اخذني الى السوق وقال « سأشتري طقم ست كروزه للطروسي ، وفي عودتنا كان يتساءل : اشقفة راح تعجب الطروسي يا ترى ؟ » وكنت اقول له « تعجب الملك » .

قال الطروسي :

— صحيح شقفة تعجب الملك ، وقد فصلتها ولم البسها ،

« الست كروزه » ملبوس الرئيس ولا يلبس الا في المناسبات .

اذا مت يا اولاد البسوني « الست كروزه » كرامة للبحر .

قال بحار :

— بعد عمر طويل ..

فأجاب الطروسي :

— طويل أم قصير ، النتيجة واحدة ، والله الذي روحي

بيده لا يسوى الموت عندي قلامة ظفر ، ليات ساعة يريد ان

يأتي ، كله سواء ، الموت ، في رأيي ، جبان ، لو كانت له

قدرة اخذ الامانة من زمان .. مرة التقيت به ومئة مرة

نجوت .

— لك عمر ..

— يجوز ، الاعمار بيد الله ، لكنني لا اهتم للموت ، ولا

افكر فيه اصلا ..

— الحياة حلوة .

— والموت حلو ، كل شيء في وقته ، المهم ..

لم يكمل الحديث . كان الهواء رهوا ، وانفلوكة تندفع منزلة برشاقة على الماء ، وسكون يسود الجو ، ومن الاعماق يتعالى نشيد اللجة المقدس .

اصلح الخام وعاد الى مكانه ، انما لم يستأنف حديثه السابق . خطر له ان يوضح المهمة بعد ان اجتازوا نصف الطريق فقال :

— والان هل تعرفون اين نذهب ؟

واجاب على سؤاله بنفسه فقال :

— نذهب في مهمة لا يعلم بها احد غيرنا . يجب ان تظل سرا بيننا . المسألة بسيطة ، شحنة سلاح لآخواننا المجاهدين ، تمهدت بنقلها باسمكم فما خاب ظني فيكم .

— ومن اين السلاح ؟

— من البسيط (١) ، اشتراه الاخوان ، ونقله نحن ،

وهذا كل دورنا .

— ولماذا اختاروا نقله قى البحر ؟

— لان طريق البر مراقب من قبل الفرنسيين ، وقد وعدت بأن ننجح في نقل الشحنة ورسمت الخطة ، وكان اخطر ما في الامر ان يرانا رجال الجمارك فيتبعونا حاسبين اننا نهرب ، وعندئذ نشتبك معهم ويضيع السلاح .

قال البحار الذي اثار الموضوع اول الامر :

— لو عهدناك تحسب حساب الامور الى هذه الدرجة ما سألنا .. انت تشتم رجال الجمارك في وجوههم ثم تحتاط بهذا الشكل ؟

(١) البسيط احدى نواحي اللاذقية . سكانها من الاتراك السوريين ،

وتقع على الساحل ، الى الشمال .

— ومن قال انني لا احسب حساب الامور !؟

كان قد سمع الناس يقولون عنه « يده والضربة » وها هم البحارة يصدقون هذا الكلام ويعتبرونه من الغامرين المتهورين ، وهو يرفض هذه التهمة ، ولئن كان كذلك فيما مضى ، او في المسائل الخاصة ، فهو غير ذلك في المسائل العامة ، خاصة في السنوات الاخيرة . وتساءل في ذات نفسه وهو يفكر بهذا : « ترى ، هل اثر العمر فاصبحت كثير انحدر؟ »

قال احمد مبددا الصمت :

— حدثني الرحموني في سفرتنا الى الاسكندرية انك اشتركت في تهريب الزعماء من جزيرة ارواد (٢) . وقال ان هذه القصة يعرفها الجميع ، ومع ذلك لم اسمع بها انا . — لا تسمع بها احسن .. مسألة صغيرة ومضت ، والذين هربناهم اصبحوا في الشام ، وكانوا يومها منفيين . — ليست مسألة صغيرة ابدا .. قال الرحموني انها كبيرة . لا يعملها الا الرجال .

كان ظاهرا ان احمد يستدرجه الى الكلام ، وربما يتملقه ليكسب المزيد من أعجابه ، وهذه القصة لا يعرفها الكثيرون بعكس ما يقول ، ومع كل عزوف الطروسي عن التحدث عن نفسه فقد احس بفرحة غامرة في ان يسمع الناس يتحدثون عن اعماله البعيدة ، البعيدة حتى كان ينساها هو نفسه .

قال بحار :

— كل انسان يذكر باعماله ، لا شيء في الدنيا ينسى . مرة اخرى اغتبط الطروسي «لا شيء في الدنيا ينسى؟»

(٢) ارواد جزيرة صغيرة تبعد ٣ كم عن طرطوس . فيها قلعة اثرية جعلها المستعمرون الفرنسيون منفى للزعماء الوطنيين . سكانها ٣ - ٤ آلاف نسمة . تردد اسمها كثيرا في سياق الرواية .

— فكر في هذه الجملة — « واذن فان حادثة الرحموني لن تنسى .ولن انسى كأنني لم آت الى هذه الدنيا ، ما هذا الذي اسمعه الليلة ؟! »

شط به الخيال الى ماضيه . كم في ماضيه من اعمال لا تنسى ؟ عمل ؟ عملان ؟ ثلاثة ؟ تهريب الزعماء ، وانقاذ الرحموني ، ونقل السلاح ، فهل سيذكر الناس هذه الاعمال ؟ « وقال في نفسه » بلى ، لا بد ان يذكروها ، ولا بد ان يذكروني . . سيذكرني البحر والبحارة والصيدون ، وسيحدثون عني وهم يتحدثون عن المهنة ، قانا نفسي تحدثت عن الذين مضوا ، عن البحارة الذين تمنيت ان ابلغ نصف ما بلغوا من صيت وجاه .

لقد اكتشف ذاته على غير قصد ، وها هو بدوره حلقة في السلسلة : تحدث عن اعمال الذين عملوا ، وسيحدث الناس عن اعماله ، تعلم الصنعة وعلمها ، اكل زرع الآخرين وزرع لياكل الآخرون . . ما اروع هذا !

فكر في خليل العريان وحكاياته « اذن ليست هسي خرافات كما كنت اظن ! لا بد ان تكون قد حدثت يوما ، والناس يريدون ان يعرفوا ما حدث ، ويحبون الحكايات فيجتمعون حول خليل ويصفون باهتمام . لقد كنت أستفرب واقول : ما اصفر عقولهم ! وانا نفسي كنت صغير العقل ، لاني كنت احب خليل العريان وحكاياته في بعض الاحيان . . ما اطيبك يا خليل العريان ! انت راوية البحر بحق ، وغدا تروح ويأتي غيرك ، وفي المستقبل يذهب الطروسي والرحموني و خليل العريان ويأتي غيرهم ، والحكايات تكثر لان الناس يحكون ما يجري معهم ، ويسمع الصغار من الكبار ويحكون بدورهم ، ولعل السندباد كان بحارا ايضا ، او لعله من الذين اولعوا بالبحر وسافروا وراوا ، ومن يدري اذا لم يكن السندباد خليل العريان ذلك الزمان . . »

تنبه الى وجوده على الفلوكة فالفى نفسه قد انفصل عن البحارة وغاص في تأملاته . وكان البحارة ايضا يتحدثون في الطرف الاخر من الفلوكة ويتضحكون ، وعاد الى موضوع الزعماء فتذكر كيف حدث ذلك : « نزل هو وبعض البحارة مع الرئيس ابو مسعود في قارب صغير من جنوب طرطوس ، وساروا في الظلام وبدون صوت حتى الجزيرة ، فوجدوا ثلاثة ينتظرون تحت صخور القلعة على البحر ، فأركبهم ونقلوهم بأمان الى النبر ، ولم يعد يعرف عنهم شيئا ، وان كان قد سمع باسمائهم فيما بعد . لقد كان الرئيس ابو مسعود بحارا مشهورا ، وكانت معهم ثلاث « بواريد » وجفت بعين واحدة و « برايللو » ، فهل يعرف خليل العريان ابا مسعود ؟ وهل حفظ حكاية عنه ؟ لا بد ان يحدثه بقصته حين يعود ، ولا بد ان بحارة طرطوس يعرفون هذه القصة ، اما بحارة ارواد فلا تخفي عليهم خافية من اخبار البحر . . هؤلاء هم البحارة ، بل هؤلاء اسيااد البحر ، فيه يولدون وفيه يموتون ، ويسبح اطفالهم فيه كما تسبح الاسماك في قلب التيار ، وكان لهم عز يوم كانت عدة البحر الخام والزند القوي ومعرفة الطريق بواسطة النجوم لا البوصلة . لقد كانت الرحلة من ارواد الى قبرص او مرسين او رومانيا رحلة حقيقية ، تستغرق الاسابيع والشهور ، فيشتاق البحارة الى اهلهم ، ويشتاق اهلهم اليهم ، وينتظرون عودتهم على الشاطئ ، ومنهم من يعود ، ومنهم من لا يعود ، ومع ذلك لا يخافون ولا يكفون ، بل يواصلون الابحار صيفا وشتاء وفي كل الشهور ، غير ان زمن الشراع ولى ، لم يعد الخام خاما ولا الشراع شراعا وحلت « البوابير » محل المراكب . . تغير كل شيء حتى اخلاق البحارة وفقدت المهارة قيمتها ، فيا عجبا ، هل ينتهي عهد المجذاف ايضا ؟! »

نظر حواليه فالفى اشياء الشاطيء تلوح كاشباح عن

بعد ، ومعنى هذا ان الرحلة توشك ان تبلغ غايتها .
قال :

— اقتربنا يا اولاد ، استعدادا !

وانحنى الى القاع واخرج رشيشا من تحت الشباك ،
بينما الفلوكة تتحول الى الشاطيء وتسير بقوة التجذيف .

انه لا يعرف المكان بالضبط ، وقد جرى الاتفاق على ان
يسيروا بمحاذاة الشاطيء ، حتى اذا رآهم اصحاب السلاح
اشعلوا ضوءا فأجابوهم باشعال ضوء مماثل ، ويعود الذين
على البر الى اشعال الضوء ، ومعنى هذا : اقربوا .

قال الطروسي مداعبا البحارة :

— اخطأنا فلم نأت معنا بواحد من المجاهدين ، هؤلاء
يعرفون استعمال السلاح ..

فقال بحار اسمه عبدالسميع .

— انا ابو السلاح .. خدمت في العسكرية سنتين ،

هات الرشاش ..

— خدمت في العسكرية على راسنا ، ولكن اشتغلت

بالتهريب ؟

— لا .

— اذن لا اسلمك الرشاش ، هل تحسب المهريين اوادم

مثل تجار سوق البالستان ؟!

ضحك البحارة لذكر تجار سوق البالستان الذين

يبيعون الاقمشة والعمود والثياب النسائية وكل اصناف
المانيفاتورة ، ويحلفون باولادهم من الصباح الى المساء دون
ان يرف لهم جفن .

قال الطروسي :

— نحن نتعامل مع مهريين يا عم ، مهريين لا عندهم

ذمة ولا عهد ، قد يسلموننا السلاح ويقبضون الثمن ، ثم

ماذا ؟ يسلبونه منا اذا لم نعرف كيف نحمله ، فما رأيك ؟

— الى هذا الحد ؟

— واكثر ! المهرب مهرب دائما ، وهو مخبر في نفس

الوقت ، يسلمك المهربات ويحاول استردادها ، فاذا لم يستطع
اخبر عنك الجمارك وقبض حصته من الاخبارية .. دود الخل
منه وفيه ، ولو لم يكن المهربون مخبرين لما استطاع رجال
الجمارك ضبط عشرة بالمئة من عمليات التهريب .

نظر احمد فزعا الى الطروسي وتساءل :

— هل يراس عصاة تهريب ايضا ؟

وسرعان ما اطرح هذا الخاطر وعزا معرفة الطروسي

بهذه الامور الى البحر ، لان التهريب جزء منه ، والميناء تعج
بالمهريين ، وفي المقيى تظهر المهربات كل يوم وتختفي ، ويأتي
الممولون و « المدمرون » فيدفعون وينقلون ويتفقون من جديد .

وانتهى الطروسي من تفحص الرشيش فقال لعبدالسميع :

— يا اخونا العسكري اتقديم ، قررنا تسليمك الرشيش

كيف تستعمله ؟

— انت هاته وما عليك ، قوصت بالرشيش على عدد

شعر راسي ، ولي نشان لا يخيب ، اعطني انت ، هه

(وامسك الرشيش كما يمسك به كل عسكري) .

قال الطروسي :

— ما قلت لك يا عبدالسميع حرب التهريب غير حرب

العساكر ؟ هذه الطريقة في حمل السلاح تنفع في الجبهة لا مع

المهريين . وماذا يقولون عنا اذا رأونا نحمل السلاح ؟ خائفين !

لا ، ضع عقب « انتومي » تحت ابطك ، وانزع بطانة

جيب الجاكيت وامسك الزناد بيدك الممدودة منها ، وابق على

جانبنا ، لا امامنا ولا ورائنا ، ولا تنظر الى ما نصنع ، ولا

يلهيك الحديث ، ولا تحمق فيهم ، استرق النظر ، وتظاهر

بانك تتفرج ، فاذا بدأنا نقل السلاح راقب كل حركة تصدر

عنهم ، واذا رأيت سلاحا يشهر في ظهورنا فاخرج سلاحك ،

وعندئذ يفهمون اننا ابناء كار . .

فرك بحار كفيه متحمسا ، بينما اخرج الطروسي مسدسه وقال له :

— اما انت فسنعطيك المسدس وتظل في الفلوكه ، ولكن احترس يا شيخنا ، ولا تجرب ان تتعلم « النيشان » الليلة . اذا مد احد يده الى السختورة فحطم دماغه ، وفيما عدا ذلك لا تهتم بشيء ، ومهما لعبت الفلوكه لا ترم الياطر ، يكفي الحبل الذي نربطه بالشاطيء ، وعند الاقتضاء اقطع الحبل فتتجه الفلوكه مع الريح . . سمعت ؟ هذه مجرد احتياطات !

كانوا قد انزلوا الخام قليلا . . جعلوه بشكل مستطيل مائل لافراغ الهواء ، وتولى الطروسي توجيه الدفة وطلب من احمد ارسال المدرى في الماء لاكتشاف الصخور والابتعاد عنها .

وساروا ايضا مسافة قصيرة ، ثم اشتعل عند منفرج صخرتين ، ضوء ، وتم التعارف فاقتربت الفلوكه من الشاطيء .

قفز الطروسي واشعل المصباح الكهربائي ، ثم شد الحبل لتربص الفلوكه على حافة الصخر ، وبدا استلام السلاح وتسليم الثمن ، حتى اذا انتهى نقل شوات البنادق والذخيرة قفز الطروسي وبحارته الى الفلوكه ، فقطعوا الحبل وشرعوا بالتجذيف ونشر الخام مبتعدين عن الشاطيء . . وفي الوقت الذي قال فيه عبد السميع « نجونا » آتته رصاصة وسقطت في الماء ، فقال الطروسي « هذه للذكرى والوداع » وضحك . .

وابتعدت بهم الفلوكه الى قلب الماء ، فشمروا عن ساعديه وقال :

— ستكون الريح مؤاتية بعد قليل ، هات الدفة يا احمد .

ثم التفت الى البحارة و اضاف :

— يجب ان نبلغ الطايبات قبل الفجر ، مهمتنا اصبحت

اصعب الآن .

١٠

قلائل فقط علموا بما حمل الطروسي من « البسيط » الى « الطايبات » ، ومن بين هؤلاء نديم فظهر والاستاذ كامل . وربما كانت المصادفة المحضة ، او الثقة الارادية ، هي التي دفعت الطروسي الى البوح بذلك للاستاذ كامل ، وفيما عدا ذلك حاول نديم اظهار العملية كشيء خاص ، كعمل من تدبيره الشخصي ، وشاء استغلالها لصالح الشعبيين .

ولم يكن الطروسي ليهتم بهذا الجانب من الموضوع ، فقد اثبت جدارته امام نديم ، واتي غملا يعتبره واجبا . وتخفف من شعور المسؤولية على نحو ما ، ولم يعد ثمة ما يحول بينه وبين السفر الآن .

لقد تعزز هذا اليقين في نفسه بما سمع من ثناء الاستاذ كامل عليه . وكان قد اعتاد الركون الى آراء صاحبه والتماس مشورته ، وربما احوجه ان يعرف مقدار الخطا والصواب في عمل ما ، فينظر الى موقف الاستاذ منه ويقول : ليس هذا سيئا ما دام قد وافق عليه . ما دام قد حبذه .

والتقى به بعد ايام ، فعرض عليه مسألة السفر طالبا رايه : قال الاستاذ :

— هذه مسألة خاصة . . هذا عملك انت ، وفي كل

الاحوال ليس في البلد ما يوجب ترك الاعمال الآن .

واطرق الطروسي مفكرا . كان واضحا انه يحتاج الى دعم معنوي ، وانه ازمع السفر ولن يتأخر اكثر مما فعل ، ولكنه يريد ان يعرف راي الآخرين ، ويسمع مزيدا من الكلمات

الطيبة. وكان، في الواقع ، يبحث عن يقطع له جبل الشراع
من البطرنة .

وادرک الاستاذ هذه الحقيقة . فهم الطروسي على
حقيقته واحبه واحترمه ، وفكر بالطريق التي جاء منها ،
وبالطريق التي يسير فيها، وبالتحول السذي طرا عليه ،
وبالجراة التي يتحلى بهما فهتف في ذاته : هذه هي الصخرة
التي ينهض على امثالها البناء . صحيح انه ليس عاملا ولا
فلاحا ، ولكنه من الشعب ، من ابناء الشعب المخلصين ، من
فروع سندیانتنا الضاربة جذورها في الارض . وتذكر كلماته
« انا وطني بدون فلسفة » وتساءل: ما قيمة الفلسفة بدون
وطنية ؟ ان يكن الانسان وطنيا فذلك هو الاساس . الفلسفة
تأتي مع الايام، اما الوطنية فشيء من ذات النفس ، انها
الشعلة الاولى المقدسة ، والباقي هو الرفد ، هو الزيت .. »
سأله :

— وهل قررت ان تترك المقهى ؟

— من كل بد .

— ولن تعدل عن العودة الى البحر ؟

— ولماذا انا على الشاطئ اذن !؟

كان جوابه هادئا ، ومع هدوئه لا يخلو من عتب « حتى
انت ! » وكانت نظراته ترسم علامة استفهام كبرى : هل يمزح،
ام انه لم يفهمه حتى الآن، او يشك في حقيقة حبه للبحر !؟

وفطن الاستاذ اني عدم جدية موقفه من مسألة لها في
نفس الطروسي هذه الحرمة ، فقرر ان يعطيه الجواب الذي
يبحث عنه، وان يقطع له جبل الشراع لينطلق به حيث يشاء،
ما دام هناك جبل آخر ، اقوى وابقى ، هو جبل الفكر . قال
له بلهجة صريحة حازمة :

— سافر .. سافر . انت لم تخلق للمقهى كما قلت ، ولا

بد ان تعود الى البحر ، فعد بسرعة اذن ، عد منذ الغد . ولا
تقلق على شيء ، ولكن لاتنس شيئا ، وفي وسعك ان تكون
معنا وان كنت بعيدا عنا .. فحيثما كان الانسان يستطيع ان
يساهم في خدمة الوطن والشعب .

وافترقا عند هذه النقطة .. ذهب كل منهما في سبيله،
شاعرا ان الخيط الذي يشده الى رفيقه اصبح اشد وامتن .

ولاول مرة ، منذ بروز مسألة السفر ، فصل الطروسي
بأمرها بشكل جاد ، قال : سأسافر ! لقد تركت الكلمات اثرها
العميق في نفسه ، ولم يعد الحاجز الفاصل بين البحر والبر
قائما الآن .. ان العالمين متصلان بخلاف ما كان يتوهم .

سار فرحا مستشارا الى ام حسن : انتهى كل شيء ،
سأسافر . وتصورها وهو يلقي اليها بهذا النبا تغتبط لغبطته،
وتنضح جوارحها استجابة لجوارحه ، فتشبهت غريزة الذكر
في ارضاء الانثى لديه، وايقن ان قيلولة ممتعة تنتظره ، ودعابا
تشتيه حواسه يستحث خطاه . انه ما كان يقبل على
وصال اذا لم تقبل عليه سعادة من دنياه ، فالامر المفضل
لديه ان يتم كل شيء في جوه ، وجوه الآن جو وصال ، جو
غبطة ، جو انشراح ولذاذة .

واسلمته خواطره الى احبابه البعيدين : هل علموا
بقصته يا ترى ؟ وهل سمعت ماريا بهذه القصة ؟ ومن يخبرها
بها ويبلغها انه قادم ، وانه ريس ، كما عرفت ، واكثر مما
عرفته مكانة وشوقا ؟

لئن بلغها ذلك فما هي فاعلة ؟ اتأتي اليه ؟ لا ، لو كانت
تدري لاتت او لكتبت ، ولكنه ، في حياتها ، كما هو في حياة
غيرها ، ذلك المجهول الذي لا يعرف له مقر ، يأتي ويذهب
كالطير الموسمي ، وهو مثل هذا الطير عرضة لسهم اي صياد
يكمن وراء اي دغل على الطريق .

« اما وقد نجوت من سهام الصيادين - قال في نفسه -
ونبت على جانحي الريش ، فما قعودي بعد اليوم عن الطيران؟
وهل اتلكأ ؟ لا ، ابدا . . »

اطلق هذه الصرخة الباطنية وهو على عتبة الباب . وكان
عليه ، وهو يدخل ، ان ينسى كل شيء الا ام حسن ، فلا
يتترك مجالا لاختلاطات عاطفية في ساعة يريد بها خالصة
الصفاء .

وقد افلح ، موقتا ، فيما اراد . كانت له ، وهو في
احضانها ، ساعات قلب . فلما عاد الى المقهى ، في حمرة
الاصيل ، وجلس على صخرته المفضلة ، عادت خواطره تلح
وصورة ماريّا تتراءى له ، وحينئذ اليها يحرك الساكن من
عواطفه نحوها .

ايقن انه لن يقوى على تركها اذا رآها ثانية . انما ، في
حال كهذه ، « كيف اجمع بين الاثنين في وقت واحد ؟ ماريّا
وام حسن ، في بيت واحد ومدينة واحدة ، كيف يكون ذلك؟
ومن اترك منهما ؟ هل استطيع ان انسى ماريّا ؟ وهل يمكنني
ان اترك ام حسن وقد اختبرت اخلاصها ؟ واذا لم اتركها
فكيف اوفق الى ارضائها ؟ يا للمشكلة الجديدة التي لم احسب
حسابها ، كيف ورطت نفسي بهذا الشكل ؟ »

اسقط فكرة ترك ام حسن من حسابه اسقاطا ، واعتبرها
انما ما كان يجوز اقترافه ولو على هذه الصورة من التساؤل .
« اذهب الى رومانيا فأرى ماريّا واطفئ شوقي اتيها ، ثم اعود
الى ام حسن فأصطفئها شريكة عمر . . وقد لا ارى ماريّا ابدا
فمن يدري اين اصبحت ، وفي اي بلد تقيم ، وهل ما زالت
تنتظرني ام استبدلتني برجل آخر » .

« من المرجح ان الايام الطويلة قد غيرت كل شيء »
- فكر بهذا ايضا - ثم اعترف بغير تحفظ انه احبها وما يزال ،
فمن بين كل النساء اللواتي عرفهن في موانئ المتوسط استأثرت
هي بقلبه دون سواها . انها اميرة . وقد احب هو الامارة
في الجمال والوقار وكرههما ، او لم يابه لهما ، فيما عدا ذلك .

والى هذا فانه لا يعرف امارة الا مجازا . لم يعيش
الامراء ولا خبر حياتهم ، وان كان يحب ان ينادي الاشخاص
الذين يعجب بهم بهذا النداء : « آه يا امير » ان للامارة نسي
ذهنه معنى السمو ، معنى الهيبة والوقار والترفع عن المياذل
والسفاسف ، وقد كانت ماريّا تجمع كل هذه الصفات . ومن
يدري ، فقد تكون اميرة حقيقية ، ما دامت كذلك في وقتها
ومشيتها ومعاشرتها وطريقة حبها .

لقد ارسلت اليه تدعوه في احد الايام وهو في مرفأ
كونستانزا . لم يكن يفكر بالنساء وليس به حاجة اليهن ، ومع
ذلك لبى الدعوة ، اذ وجدها غريبة وجريئة معا .

وحين دخل بيتها شعر أنه في جو غريب . اجلسه الخادمة في غرفة الاستقبال ، وجاءته بعلبة التبغ ، وكانت الغرفة انيقة ، مترفة، وفيها لوحات وتماثيل بديمة ، ورائحة بنفسجية تهفف في جوانبها وتعبق في فضاءها ، فاشعل سيكارة وانتظر ، وطال انتظاره حتى شعر بأنه اهين عن عمد، وهم بالخروج لحظة انشقت الستارة المخملية الزرقاء وخرجت من خلفها امرأة فارعة القامة ، صبوح الوجه ، ذات خصر طويل منحوت يتوسط جذعا ممشوقا بكتفين عريضتين وردفين معتلئين ، ويكسو الجسم « روب دي شامبر » وردي، مفتوح من اعلى الى اسفل ، مربوط على خصرها ، عند السترة ، بزناز ينتهي طرفاه بشرابتين ، ولها عينان سوداوان وقرطان كبيران مستديران ذكراه بنساء اسبانيا .

تقدمت منه فوقف لها مأخوذا ، وصافحته وجلست قربه ، واشعل كل منهما سيكارة ، وتبادلا النظرات كأن كلا منهما يروز صاحبه عن كذب . كان يلبس شروالا من « الست كروزه » ، وقميصا من حرير القز فوقهما زناز حريري ، وله هيئة بحار من بلاد الشرق .

ولم يفهم عليها ولا فهمت عليه . كلمته بالانكليزية فما فهم ، وكلمته بالفرنسية فأشار لها انه لا يعرفها ، وعمدا بعد ذلك الى التخاطب بالنظرات ، ويبضع كلمات رومانية حفظها في سفراته الى رومانيا .

وجاء الخادم بصينية عليها قدحان وزجاجة مبردة . لم تكن الخدمة على الطريقة الاوروبية هي التي اثارت فضوله لمعرفة حياتها ، بل نوع الشراب ، وطريقة التصرف ، والجلسة الفاتنة ، والنظرة الواثقة والجسم المشوق ، ودلال المرأة التي تطلب لجمالها احتراماً يتكافأ معه .

ولما سألتها : « اين رايتني؟ » قامت الى النافذة وسحبته من يده ، وأشارت باصبعها الى المقهى القريب ، ولوحت

بذراعيها كانسان يتعارك ، فتذكر كل شيء ، وادرك امام اي نوع من النساء هو .

لقد وقعت له في هذا المقهى واقعة طريفة . فحين وصل مركبه الى مرفأ كونستانزا ، علم اكثر من كان فيه بوضوله : كانوا يطلقون عليه اسم « ارابو » ويشربون التبغ اللاذقي الذي يحمله ، ويحضر معه بعض الهدايا وبعض صناديق الفاكه فيوزعها على اصحابه ، ويقضي وقتا طيبا قبل ان يبحر عائدا الى الوطن .

ولقد خرج من المركب تلك المرة ، وجلس مباشرة مع البحارة في المقهى ، وطلب قهوة ولف سيكارة من التبغ « القره ضروراني » الاشقر كشعر النساء نيت جبال اللاذقية « ومشروبه » الخاص ، ودارت العلبة على البحارة ، فلفوا منها ودخنوا ، واصبح وصوله معروفا ، فما بال هذا الفتى الايطالي الجالس الى « البار » يشرب ويسخر من بحار مصري عميق السمرة فلغلي الشعر ؟

حقد فيه الطروسي مفتاظا فازدادت وقاحته ، وبدأ يهزأ بطربوشه هو ايضا ، فيا للواقعة السوداء ! انعم النظر فيه وفكر « اي نوع من الرجال هو ؟ قرصان ؟ مجرم ؟ نذل ؟ مسلح ؟ اعزل ؟ هل يعرفني ؟ وهل هو معذور اذا كان لا يعرفني ام أنه تعمد استفزازي لانه مخلب قط لاخريين يريدون بي شرا !؟

انها حياة البحر هذه ، والمعارك فيها شيء ملازم لها ، ولا بد للبحار ان يخوض معركة في البحر ومعركة في البر كي يظل محترما ومرهوبا ، كي لا يأكله الآخرون .

قرر في نفسه « لأسأله أولا ، فلعله يرعوي ، وقد يكون مخطئا فيكتشف خطاه ويعتذر ، ولئن كان ، بعد ، رجلا فلا بد ان يعرف قيمة الرجال . . انهض يا طروسي وجربه ، كن هادئا كعادتك ولا تقع في الفخ » .

نهض وتقدم نحوه . الشروال « الست كروزه » فضفاض بين رجله ، والقميص الحريري يخفق مع الهواء ، والزناز مشدود على الخصر وفيه السكين ، وخيزراته في يمينه « ويا مرحبا بالموت في ساعته » .

تفرس فيه فحكم قورا بانه نذل عشير نساء ساقطات . فتى ميناء من فئة القوادين . فهل يليق به ان يضربه ، لا ، ليصبر عليه قليلا ايضا ، وليتكىء على المشرب .

وتعمدى الايطالي في مجونه فصاح « فيفا دوتشي » و اشار اليه وقال : « ارايو ! » وتف وتلفظ بكلمة ايطالية لم يفهم معناها ولكنه ادرك انها شتيمة .

كانت ايطاليا تهاجم الحبشة ، ومقتل عمر المختار على يدها ما زال حديث عهد ، وقد اعتبر الطروسي الهتاف بحياة موسوليني على هذا الشكل المقصود اهانة قومية مقصودة اليه والى كل بحار عربي في الميناء . ثم هذه السخرية ، وسمعته ، وسمعة المنصورة ، والتحرشات المقبلة اذا « اخذوا ساحته » هذه المرة ؟

دارت هذه الخواطر في رأسه بسرعة . كان يتروى لان البحارة الايطاليين زملاؤه وهو يحترم الزمالة ، ولا يريد الاعتداء ، الا انه لا يقبل ان يعتدي عليه احد ، وهذا الايطالي قد اعتدى وبدا والباديء اظلم ، وعليه ان يدفع الثمن .

قال الطروسي في سره « الآن سيقوم المقهى ويقعد فاحذر القدر . اذا رفع يده فاكسرهما بسرعة ، بضربة خيزرانة يسقط بعدها كل ما في يده ، مسدسا كان ام سكيما . اضربه على الزند ، انت تعرف اين ، هذه شفتك فقد كنت فتى ميناء ، ولكن فتيان الميناء في بلدك يصبحون بحارة لا قوادين . اضرب ولا تلتفت وراءك فان بحارتك مدربون ويعرفون واجبه . كن خفيف الخطى وانت تتقدم ، وكن هادئا شأن الواثق من ذراعه ، واسأله ماذا يريد ، بل واجعل سؤالك عمليا فاسحب

الكرسي من تحت قدمه ، وانتظر رد الفعل . انك في مواجهته الآن ، ولن يستطيع ان يمد يده الى جيبه ، وكل من هم قبالتك محسوب امرهم ، وظهرك محمي من وراء ، فادفع الكرسي برجلك لان هذا ادعى للاحتقار وضمن لبقاء يديك طليقتين .

دفع الكرسي من تحت قدم الايطالي وانتظر . ولم يزد هذا على ان اعاد الكرسي وهو يضحك « انه نذل اكثر مما كنت تنتظر يا طروسي ، ولكن لا بد من تأديبه ، فادفع الكرسي بعيدا هذه المرة » .

لبط الكرسي فتهاوى وسقط بعيدا . وضع الامر . تم السؤال وعلى « ابن الفاعلة » اعطاء الجواب . وجاء الجواب زجاجة امسك بها الايطالي من عنقها ، فعاجله الطروسي بضربة اطارتها من يده فسقطت وتحطمت وراء المشرب ، واثارت انتباه جميع الجالسين في المقهى .

تناول الايطالي كرسيه وقذف به الطروسي ، فمال هذا عنه ، ومع ذلك اصاب كتفه ورضه ، وعندئذ انهال عليه بضرب رصاصي محكم ، متتابع ، فوق الذراعين وعلى الرأس ، حتى شل قدرته على الضرب وكاد يعود الى مكانه وقد شفي قلبه منه .

لم يتدخل احد من بحارته رغم انهم وقفوا وراءه . ذلك انهم يعرفون ان الرئيس يأخذ بصدرة ثلاثة من امثال الايطالي ، ثم ان من شرف المعركة الا يتدخلوا اذا لم يتدخل الآخرون . وكان واضحا ان الطروسي اكتفى ، غير ان المعركة تطورت فجأة . انفتح احد ابواب المقهى عن رجل كان يشرب في حجرة خلفية يجالس فيها البحارة البنات عادة . وفي نفس اللحظة اصابت زجاجة صدر الطروسي بضربة قوية امتقع لها وجهه حتى خيل الى بحارته ان عظم الضلع قد انكسر ، وتساقطت عليه ، من الايطاليين الذين خرجوا من الغرفة ، الزجاجات والكراسي ، وعندئذ صاح بحارته صيحات الفضب مقرونة

بالشتائم ، وقفز واحد منهم عن المشرب الى باب الغرفة ، فعاجله ايطالي بلمكة ترنج اثرها وسقط وتطايرت اشياء المقهى في الفضاء ، وانقلبت وتبعثرت انكراسي وزعق الطروسي ببهارته « ارجعوا يا شباب » وانسحب الى الخارج .

ظنوه ، بادىء الامر ، قد اصاب وتعطل . لكنه كان يتراجع بحذر ويتفادى ما استطاع الزجاجات والكراسي ، فلما اصبح في الشارع ، وجر اليه الايطاليين الذين حسبوه قد انهزم ، كر عليهم من جديد ، وانحط بخيصرانته على سواعدهم وروؤوسهم ، ولاحقهم بالضرب السريع الجارح ، وعاونته بحارته واستبسلاوا معه ، حتى سال الدم وصبغ الارض ، وتراكم كل من في الميناء على ضوضاء المعركة .

تمزق قميص الطروسي وجرح ساعده بضربة اتته من جهة ما ، وعندئذ استقتل حتى لم يعد يميز اين يضرب . كان يعرف ان خصومه يعتمدون على قبضاتهم وعلى الزجاجات والكراسي ، فلما اصبحوا في الشارع لم يعد لديهم لازجاجات ولا كراسي ، واصبحت المسافة بينه وبينهم ملائمة لرجل يتقن فن الخيصرانة ، وهكذا صار يطالهم ولا يطالونه ، ويضربهم ولا يمكنهم من الاقتراب منه ، ونجحت خطته وضمنت له التفوق ، وغدا قادرا على التحكم بالموقف ، فاذا واجه مهاجما هشمه بضربات عنيفة بارعة ، متعددة المواقع ، كأن خيصرانته « ساطور » جزار صناع ، حتى اذا ضاقت حلقة المهاجمين من حوله قفز وانتقل الى مكان آخر ، وجرحهم واحدا واحدا اليه ، وتمكن منهم بشكل افضل .

في قلب هذه المعركة وصل رجال الشرطة ، واطلقت عيارات نارية لا يدري من اين ، ووجد نفسه محاصرا ، فكف عن الضرب ، وانزل ساعده الذي تصلب لشدة ما توترت اعصابه ، واستسلم مرغما ، فاقتيد هو وبهارته وبعض

الايطاليين الى دائرة الشرطة ، واجريت الاسعافات الطبية للجرحى وهم قيد التوقيف .

لم يكن ثمة قتلى ، ومع ذلك سجن شهرا وخرج بكفالة ودفع غرامة جعلت سفرته كلها خاسرة ، الا انه ربح تأديبه « ابن الفاعلة » فعاد الى المقهى يجلس فيه متحديا ، لكن الايطاليين كانوا قد سافروا ، وتحاشى الآخرون العراك ، بل انهم باتوا ينتظرون اليه باحترام ، وغدا كل من في المقهى يخطب وده ، حتى البنات العاملات كن يتركن الزبائن وبائين اليه اذا طلب احدهن لمجالسته . وكان يجلس بعد ذلك وخيصرانته تحت ابطه الايسر ، ومن حوله البحارة العرب في حلقة لها مجلس معروف ومرهوب ..

هذه الواقعة لا بد ان ماريا شهدتها من نافذتها . وربما حدثها بها محدث حلو اللسان خصب الخيال فابلغها انه بحار من الشرق ، من بلاد الف ليلة وليلة وموطن السندباد ، ففتنها واغراها بالتعرف اليه ، وربما كانت امرأة ذات نزوات ، تهوى البحر وتسمع بالشرق وتريد السفر اليه . وقد تكون ملت ابناء جنسها وشاءت الدخول في مفامرة صغيرة مع رجل غريب . ومهما يكن من امر فان الحادثة نفسها كانت السبب المباشر في جذبها اليه ، وهذا واضح كل الوضوح .

عادا الى مجلسهما واستأنفا الشرب ، والتقت عيناه بعينيها في نظرة كان مستعدا بعدها ان يخوض معركة مماثلة . ولقد تذكر بعد ذلك كثيرا هذا اللقاء ، واعتبره حادثا نادرا من حوادث الحياة ، واحب ماريا حبا قويا جارفا ، وشعر نحوها بخنين لم يشعر به نحو امرأة قبلها ، وبات يعد ايام السفر اليها ويتعجلها كلما كان في ارض الوطن .

واحبته هي ايضا بمثل ما احبها وزادت ، واذاقته من حلاوة الليالي ما جعله يلزمها حتى غرقت المنصورة وانقطع عن السفر ، واذ ذاك اقام منها على ما يقيم عليه العاشقون

إذا نأت بهم أندار وشط المزار . وقد رغب في السفر إليها
مرارا ، في أية سفينة أو أي مركب وكيفما اتفق ، إلا أنه
كان مخلصا لرجولته أكثر من إخلاصه لشهوته ، وقد أثر
أن يسافر إليها ريسا أو لا يسافر ، ريسا يمشي بحارته
وراءه ، لا بحارا يمشي وراء ريسه وربما حمله هذا الرئيس
شيئا من أشياء المركب ، وعندئذ كيف يذهب إلى « أميرته »
وبأية حال يلقاها ؟ أن هذه الخواطر قد طافت في مخيلته ،
وعذبتة ، وحرمتة من السفر كلما سنحت فرصته .

وفي أيام الشدة ، وفي ليالي السهد ، حين كان يجلس
على صخور البطرنة ويرنو بقلبه إلى مرفأ كونستانزا ، كان
يراها وكأنه بقربها . كل تفصيلات لقاءهما ، كل أوضاعهما في
خلوات الصبابة ، كل ما في بيتها وغرفة نومها تراءى له
واستثار حنينه واشجانه ، ومع هذا امتنع عن السفر باصرار .
كان في أعماقه يمارس لذة بمعاندة كل ما يعتقد أنه يسيء إلى
رجولته ، وحتى الحب نفسه كان يريده متعة وجدانية أكثر
منه عملية جنسية مجردة . أن متعة الوصال شعور بعنفوان
الحب ، ولن يلقي ماريا بهذا الشعور إذا ذهب إليها مجرد
بحار ، لا مركب ولا رياسة ولا شروال « ست كروزة » أو
قميص قزي ، وأنه ليرضى بكل شيء إلا أن يكون صغيرا في
نظر نفسه ، وأن تستعبده شهوته وتحطم كبريائه على عتبة
صاحب مركب أو عتبة امرأة . ولو كانت ماريا ذاتها .

لقد أحبته رجلا معتدا بقوته ومركبه ، ولن يذهب إليها
إلا بهذا الاعتداد . . بزهو الرئيس الذي يلقي « الياطر » إذا
وصل ، ويفتسل ، ويبدل ثياب السفر ، ويخرج إلى الميناء وكل
من فيها يقول : « وصل الطروسي » فيسير وبحارته من
حوله ، ويلجسون في المقهى قيدخون ، ويفرغون حمولتهم
ويشحنون غيرها ، ثم يقلعون من جديد في سفرة جديدة ،
كانهم ما خلقوا إلا للبحار والسفر ، وكان حياتهم سفرة طويلة

لا تنتهي .

هكذا سيذهب إليها . بهذا الشعور . بشعور الرجل
الفخور المقتدر . فتستقبله بشعور الانثى التي تنتظر رجلا
محبوبا ومعبودا ، واذ ذاك يحس بأنه إنسان عزيز يضع قدمه
على عتبة بيت يعرف أن كل من فيه سيفتبط لدخوله ، أما
بخلاف ذلك فلن يكون احساسه إلا كاحساس بحار بائس ،
يحمل في جيبه قروشا أقتطعها من طعامه ليقتضي بها لذة
عابرة بعد أن طال بعده عن زوجته وبلده . ثم أن ماريا ستكون
أكثر استجابة له وهو ريس كما عرفت ، لا لأن مركز الرئيس
أشرف ، بل لأن المرأة تحب أن ترى رجلها في صعود .

وما دامت قد عرفت ريسا فمن المحال أن يعود إليها
بحارا .

وها هي سنوات عشر تنقضي ، يعود بعدها ريسا كما
كان ، فيسافر إلى رومانيا ويلقى المرأة التي أحبها ، ويطير
إليها من يخبرها أنه جاء ، ويدفع هو الحلوان بكرم ، وترتدي
هي ، كما عهدا ، ثوبا ثمينا ، رائعا ، وتتعطر ، وتلمع
أسنانها البيضاء فتزيد من عذوبة ابتسامتها ، ويتهدل شعرها
الأسود على كتفها ، ويهتز قرطاسها الكبيران ، المستديران ،
وتجلس على الأريكة قربها ، أو تتمدد عليها في وضع مفر .
وخوان الشراب جاهز ، مكافأة للرئيس الذي قاد مركبه من
شواطئ سورية إلى شواطئ رومانيا ، وطار على شراع الحب
إلى لقاءها ، هازئا بالأنواء ومصاعب الطريق .

أما قد لا تكون ماريا حيث فارقها ، وعندئذ - قال في
نفسه - يصبح الفراق أبديا ، وينتهي كل شيء ، ويختم على
ذكرها في قلبه ، ويمنح كل عاطفته لام حسن ، ويتخلص من
عذاب مبرح يتسلل إلى ضميره ويعذبه كلما فكر بأنه أصبح
بين امرأتين : أحدهما بعيدة والأخرى قريبة ، ولكل منهما
على البعد والقرب ، حب وإثارة .

وتصرمت وقد حسبها لن تكرر ولن تنصرم ؟ الصبر ؟ نعم ،
الصبر ولكن بكبرياء ، بدون يأس ولا شك ، فاذا ثبت هذان
في ذاته اقتلعهما بمجهود تاجح في كل مرة ، وانتصر عليهما
بفضل ثقته بنفسه ، وأيمانه بأنه سيعود كما كان . ان
السجين ليتلف نفسه اذا نظر الى اعوام الحكم وحسبها يوما
يوما . ليدع هذا ، ولينظر الى الفرصة في باحة السجن ،
فسيراها قد كبرت بسرعة ، انها نفسها لا تدري . لقد
عاشت ، وهو ، السجين ، يجب ان يعيش ، وسيجد ايام
سجنه قد تقضت ، وجاءت الحرية تقرر عليه الباب .

وهاهي حرية الطروسي تقرر باب مستقبله من جديد .
انها المكافاة ! السماء تمنح المكافآت لمن يجاهدون لاجلها على
الارض ، ولقد نظر وهو في هول العاصفة ، والرحموني بين
يديه ، الى هذه السماء ، وسألها العون فاعانتته ، انما كافح
حتى حصل على عونها وانقذ الرحموني ، وكافح حتى ظل في
البطرنة وعاد ريسا كما كان .

« من الغد يجب ان اترك هذا المكان - صمم على هذا -
فاذا ضاعت الفرصة الان فقد لا تعود ابدا ، فالعمر لا يتجدد ،
وكل ساعة تنقضي محسوبة منه » .

ما كف دماغه عن التفكير لحظة . كان محموما بانفعالاته
الكثيرة المتباينة ، فهو سعيد ، مبتهج ، وهو متوجس ، حائر ،
وشعور مبهم يراوده ، وخشية من افلات سعادته من يديه
تساوره ، وعليه ان يبدأ العمل فورا ، من الصباح !

هبط الليل وهو يجتر ذكرياته . انه ليس بشاب ،
ولكنه لم يستنفد طاقة الشباب بعد . هو من اولئك الذين
يطغى استواء رجولتهم على كهولتهم ، فلا تبدو الكهولة عليهم ،
ويستمررون شبابا حتى الشيخوخة . ان نارا تستعر في
حناياه - بفعل يقظة عاطفية حادة - اذا هو ذكر مطارح
الهوى من حياته . يتمثل كل شيء في اقصى استثارته ،
ويخلد الى هذا التمثل منجذبا بمفناطيسية الخيال الذي اوانته
الاسفار ، ويمضي مع تداعي افكاره ، وبخاصة في السنوات
التي عاشها على هذه الصخور كحالم في اليقظة يصطنع لنفسه
عالما يستعيز به عن عالمه .

كان ذا شغف قديم بأمره عن يومه ، فما ان يرى
مركبا يقلع ، او بحارا يتحدث ، حتى تعتاده صورة الماضي ،
ويغدو مشوقا للقاء المشوقين .

ولم يكن يعرف ايها يهيجه اكثر : جبه للبحر أم جبه
للمرأة التي وراء البحر ، ولربما كان البحر والمرأة كلا واحدا
حيا مضرا في خياله الملهب بفعل الشوق ، ومع هذا كله
كان يجد عزاء مستمدا من ايمانه بالعودة يوما الى البحر ،
وكان هدفه واضحا حقيقيا لا يرقى اليه الشك ، جعله على
يقين ثابت بأنه سيتخطى العقبات ويصل الى ما يريد ..
وها هو ذا . قد وصل الى ما يريد .

السنوات الطوال الطوال كيف تقضت ؟ كيف كرت

في الصباح جاء الى المقهى وفاتح ابا محمد فسي
الموضوع .

كانا تحت الخيمة . ناداه الى جلسة يشربان فيها
قهوتهما ويتحدثان . ومع القهوة ناوله سيكارة لفها له بعناية .
وفي سره كان يقول : « لك عندي مفاجأة سترقص لها يا
ابا محمد » فلما خيل اليه ان الجو الذي نشده لالقاء مفاجاته
قد تهيأ ، ابلغ صاحبه ان المقهى سيباع ، وانه سيعود نهائيا
الى البحر ، وبأخذه معه . وقال له : « يا ابا محمد ، ابشر
بالفرج ، ستسافر معي بعد الآن . لن تكون ريسا ولا بحارا ،
ولكنك عندي وعند البحارة بمقام الرئيس وصاحب المركب .
ستسافر الى بعيد ، الى بلاد لم ترها عينك ، وستتعرف الى
حياة جديدة واقوام جدد ، وتنسى حياتك الشقية وغلظات
الزبائن ومتاعب المقهى . ربما دخت في السفرة الاولى ، ولكنني
سأعلمك كيف ستتقلب على الدوخة اذا تجنبت النظر الى
وراء المركب يسير . وسنأخذ معنا عدة الصيد ، وثيابا
بحرية ، ولك حصاة بحار ، وكل ما تريده خذه من هذه العين
قبل هذه العين (قالها وأشار الى عينه اليمنى ثم اليسرى) .
- تسلم عيونك يا ابني .

لفظها بصدق ولكن بغير ابتهاج ، وقرقف ورق النصار
فوق الخيمة ، وابتسمات طرية تحمل رائحة البحر المنعشة
الى وجه ابي محمد الكثيب بلا مبرر .

لقد ارادها الطروسي مفاجأة لابي محمد فاذا هي مفاجأة
له . توقع منه ان يبتهج ، ان يبارك له عودته الى البحر ،
ان يهنئه ، ان يشاركه الفرحة ، ان يقول له « ها قد تحققت
احلامك اخيرا ، وتحقق حلمي بالسفر معك » فاذا بالوجوم يلف
العجوز كان خبر سوء قد وقع عليه ، فما نطق بكلمة تعليقاً
على الموضوع .

سأله ثانية :

- ماذا قلت يا ابا محمد ؟

- مثل ما تريد يا ابا زهدي . انا معك حتى اموت
وتقبرني بيدك ، فانا مقطوع ، لا ولد ولا اهل ، وانت الوحيد
الذي سيسير وراء نعشي ، وهذا فضل من الله وسترة
لاخرتي .

- وما دخل الموت الآن؟ الا تريد السفر معي ؟ لماذا
انت ساكت هكذا ؟

- لا ادري والله ، انا مبسوط بنجاحك ، ومبسوط
بسفرك ، لكن المقهى ..

قال الطروسي :

- اذن انت لا تريد السفر معي ، بكيفك ، ابق على البر ..

- والمقهى ؟

- سأبيعه ، انا بحاجة الى المال لاجل المركب .

خطر له ان يسأله : « واذا غرق المركب كما غرقت
المنصورة ؟ اين تصبح انت واين اصبح انا ؟ وهذا المقهى الذي
اسسته ، وبذلت كل هذا التعب فيه ، هل تتخلى عنه بهذه
السهولة ؟ هل تتركه لسواك ؟ وهل نعود - حين نعود -
غرباء اليه ؟ وانا ؟ انا يا ابا زهدي ؟ انا العجوز ، هل اصلح
لاكون بحارا ؟ انا قهوجي ، انا واقوم واعمل في المقهى ،
واجد فيه شغلي وبيتي وحياتي ، فلماذا تحرمني منه ؟ ولماذا

تهدمه وتهدمني ؟ وهل تراني اصلح ، في آخرتي ، لركوب البحر والسفر من بلد الى بلد ؟ »

خطر كل هذا لابي محمد ، وخطرت له اشياء اخرى ، واراد ان يدافع ، هو الآخر ، عن مملكته ومهنته ودينه الصغيرة التي الفها ، ولكن كيف يقول ذلك ؟

وفهم الطروسي كل هذا دون ان يقوله ، وعز عليه الا يحقق رغبته ، واسف لان الحال لا تسمح بعدم بيع المقهى ، وانطوى على ذاته على رجاء ان يعوض ابا محمد عن دنياه هذه بدنيا احلى وامتع ، واعتبر ان اعلامه بعزمه قد تم ، ولا حاجة للافاضة في الحديث .

سؤال واحد طرحه عليه قبل ان ينهض :

— اذن لا ترغب في السفر معي ؟

— انا ؟ لا ارجب في السفر معك ؟ من قال ؟ هذه امنيتي منذ تعرفت اليك ، ولكن المقهى ! لو استطعنا ابقاء المقهى !

لف الطروسي سيكارة تعمد ان يلهو بتبفها وهو يفرشه وينسقه قبل ان يجمعه ويقتل الورقة عليه ويريقها ويلصقها بعناية المدخن صاحب المزاج ، والتفت الى ابي محمد وقال محاولا تغيير الحديث :

— اوصتني ام حسن ان ابعثك اليها .

وقبل ان ينهض ابو محمد اوصاه :

— ولا كلمة عن بيع المقهى هه !

ووافق ابو محمد وذهب ..

فما ان عبر الحديقة حتى هز راسه اسفلا ، وشرع يحاسب نفسه ، ويلومها لانه ازعل الطروسي ، ويعجب لحزنه على فراق المقهى الذي تبرم منه قائلا : « متى نخلص منه ونسافر ؟ » فلما جاء السفر لم يرحبه ، ولا شارك الطروسي فرحته فيه ، بل فاجاه بحقيقة حبه للمقهى اكثر من حبه للبحر ، وتمنى الا يباع المقهى ولا يفارقه .

مضى من امام الكازينو ، وانعطف الى طلعة الاميركان قاصدا بيت الطروسي ..

ولم تكن المسافة بين المقهى والبيت طويلة . لقد انتقل الطروسي بأم حسن الى بيت قريب ، وغادرا حي السجن ذات يوم ، وقال السجناء وهم ينظرون من طاقة « القاوش » العالية الى عربة الطنبر تنقل الاثاث « لن نرى للطروسي وجها بعد اليوم . » وذكروا بيوتهم وزوجاتهم واطفالهم وقالوا : « لا بد ما تفرج ونعود الى الدنيا » .

وكانت ام حسن تعجب للتغير الذي طرا على مشاعر الطروسي بعد خروجه من المستشفى . جعل يعاملها بأسلوب جديد ، فيه شعور بشراكة الحياة ورفقة العمر . وكان ، خلال فترة النقاهة ، يقضي اكثر اوقاته في البيت ، وقد ابدى رايه بعدة مسائل بيتية ، ودخل المطبخ وسأل عما ينقصه ، وجاء بزجاج وضع اطارات لبعض الصور وعلقها ، وكان يفتنم كل فرصة ليطمئنها الى انه لن يتركها ، وانهما سيقضيان العمر معا ، لانهما على وفاق يندر بين الزوجين ، واخذ يفتح قلبه لها ويستشيرها ، ويقص عليها بعض ما يجري معه .

وكان صادقا في وده لها ، وقد ازداد اعجابا بها لما لسه من حشمتها وسلوكها وعلاقاتها بجاراتها ، واكبر وفاءها يوم جاءها بخبر المركب فقدمت له ما معها واصرت ان يقبله منها ، فلما رضي احست انها أصبحت اكثر قربا منه ، وامتن علاقة به ، ولم تعد الجامعة بينهما جامعة جنس ، ولا حاجة بها الى ابتداء اغراء ، ولا الوسوسة والخوف ، والشيء الوحيد الذي اسفت لفقده هو الولد : « لو انجبت ولدا واحدا فقط ولا يهم اكان انثى او ذكرا ، المهم ان يكون لي ولد » .

ورغم قناعتها بانها لا تحبل ولا تلد ، كانت تنتظر برجاء امرأة عاقر ان تحدث الاعجوبة ذات يوم ، وان يلبي الله

نداءها ويرزقها ولدا ، وليس يهمها تسجيله على اسمه ام لا ،
انها تثق بشهامته وشرفه، وتثق ان ولدا من صلبه لن يتخلى
عنه، ولن يتخلى عنها بسببه ، وحتى لو تخلى فانها لا تبالي
بشيء .. انها غريقة والولد هو حبل النجاة .

ولشد ما تساءلت : « لماذا لا اربي لقيطا ؟ » انها تجد
من نفسها القدرة والحنان على تربية طفل ليس من احشائها .
وبغريزة العاقر ادركت ما في تبني الاطفال من لذة وعزاء . انها
فعلة الزوجين المعذبين نفسيا، القلقين ، المفتشين عن استقرار
روحي يحمله لهما طفل ، اي طفل .

ولئن كان الطروسي يخيفها ويأسرها بفراسته وصمته في
الماضي ، فانه لم يعد كذلك الآن . ان شجاعته التي تتعارض
مع خوفها قد انقلبت الى حنان متبادل منذ ان فتح عينيه
وابصرها الى جانبه في المستشفى .

وبخلاف ما كان يظهره من بأس في حياته العامة ، كان
رقيقا في حياته الخاصة ، ان القوي كان ضعيفا ايضا .. الا
يعيش على حب المرأة التي في كونستانزا ؟ الا تستبد ماريا
بعاطفته كما يستبد هو بعاطفة ام حسن ؟ وكيف يوارى ضعفه
العاطفي الا ان يجد له القوة عند عاطفته اضعف ؟ انها ام حسن
وليس غيرها ، وقد فهم الآن أنها شيء عزيز عليه ، لازم له،
فمنحها كل ما يجعلها سعيدة راضية ، وشعرت هي بهذا
الصدق يندى دفتا فيبدد قلقها .

وفي غمرة هذه الهناء الوافدة دخل عليها ابو محمد
محزونا . وبدأ على غير عادته ، وقد فشل في الكتمان فقرر ان
يصارحها ، وان يستعين بها على الطروسي ليحتفظ بالمقهى .
جلسا في ارض الدار : ام حسن تقشر البطاطا وهو
يتحدث اليها مهموما عن بيع المقهى :
- الطروسي لم يخلق ليكون قهوجيا، وانا لم اخلق لآكون

بحارا . البحر غدار ، اما رايت ما صننع بالرحموني ؟
والمقهى ، على كل حال ، باب رزق، فلماذا تغلقه في وجهنا ؟
ولماذا نخاطر بارواحنا ؟ واذا غرق المركب كما غرقت المنصورة
فماذا نصنع ؟ من رايت ان المقهى يربط الطروسي ، ويمنعه
من ... هجره .

اصفت ام حسن الى حديث ابي محمد باهتمام . بل
واضطربت عند سماع كلمة الهجران . وتمسكت من كل
الموضوع بفكرة ربط الطروسي بها عن طريق ربطه بالمقهى .
قالت :

- كلامك صحيح ، والله اذا ضاع المقهى ضعنا ، ولكن
الطروسي عنيد فكيف نفعل ؟

- كلميه انت . قولي له ان صحته لا يوافقها التعب
والسفر ، واقنعه بان يسافر مرة او مرتين ثم يعود الى
المقهى ، وسامح الله الرحموني بما دفع له ، نحن يا بنتي
لا نريد اي شيء ، شغل المقهى يكفي والرزق على الله .

- واذا رفض وعاند ؟
- تكون قد قمنا بواجبنا .. ولكنه يسمع منك ولا يكسر
خاطرك .. جربي ، الامر تله من قبل وبعد .

- سأجرب الليلة او غدا من كل بد ..
واتفق الاثنان على ذلك .

سبيح المقهى، وانه قد يجرها ، ويضعها على منحدر القاع من جديد ، حتى غلى تأثير غريب في ذاتها ، واستحال الى دمع تحير في مآقيها ، ثم انساب منها في نوبة كره شملت كل شيء من حولها : وجودها وبيتها وحياتها والقلق السذي يفترسها ، والوساوس التي عادت تعذبها ، وعاطفة الانثى التي تفننت في اظهارها لترضي رجلها ، فاذا هذا الرجل يوشك ان يتركها للخطيئة ويرحل .

وعاد الطروسي متأخرا فوجدها مستيقظة تبكي . ان صبرا غريبا واتاه فلم يثر عليها ولا على دموعها ، ولم يخرج عائدا الى المقهى في انقطاع يطول او يقصر ، شأنه سابقا . هو مثلها تأثر لغراق اشياؤه الاليفة في البطرنة ، بل هي اسعد منه حالا لانها نفست عن كربتها بدموعها ولهذا ظل واجما امام بكائها لا يدري ما يصنع ، فقد اصطدم بها حين جاء يستعيد صفاء عندها ، واستغرب ان تتورم عينها من البكاء وان تنفجر ناشجة في وجهه هو بالذات .

وازداد تعاسة بسبب من شعوره انه دخل في علاقات شخصية معقدة افقدته صفاء وغلت يديه عن العمل الحاسم الذي اعتاده . وفكر بان يقطع هذه العلاقات ويتحرر منها وينطلق وحيدا لاهيا على هواه ، متنقلا حيث يشاء في اي وقت يشاء ، لكنه لم يجد استجابة قورية من نفسه، ولاحظ انه بدأ يحن الى بيت يأوي اليه ، وقلب يستدفئه ، وصدر يضع رأسه عليه . انه تعب ، مشتت ، مستاء من ابي محمد، مقهور لبكاء ام حسن ، آسف لبيع المقهى ، وقد جثم على صدره ثقل باهظ .

كان يريد ان ينام، ولكن كيف ينام والى جانبه امرأة تبكي؟ ويريد ان يخرج ولكنه لا يجد حماسة للتشرد من جديد، وقد ادرك الآن ضعفه ، ورد كل ذلك الى العمر فقال « لم اعد شابا كما كنت ! » .

بكت ام حسن كما لم تبك من قبل . هي تعرف ان الطروسي ينفر من الدموع حين تكون وسيلة للاقناع ، وتعلم ان ذرفها سيزيد في توكيد ضعفها وتعزيز قوته ، لكنها وقد تفجرت عواطفها لم تعد قادرة على ضبطها ولا التفكير بما عسى ان يكون منها على مستقبلها .

ليست ام حسن هي التي تبكي الآن ، وفي هذا الوقت المتأخر من الليل ، بل هي « نجوى » التي تغسل بعبراتها كل آثام ماضيها ، كأنما الدمع كان حبيسا في مآقيها منذ عشرات الاعوام ، متجمعا قطرة قطرة في خزان الصبر ، وقد قار الان فانساح من عينيها وسال على وجنتيها غزيرا يبلل مندليها وقميص نومها ووسادتها . هي تبكي لانها تريد ان تبكي . تشتاق ان تفعل ذلك . وقد احست منذ زمن بهيد انها قادرة ، لو مات عزيز عليها ، ان تغسله بدموعها . لقد غدا الدمع حاجة بالنسبة اليها ، فلو بكت لاستراحت ، وعادت اعصابها الى الاسترخاء بعد طول توتر . وحين انفجرت باكية لم تكن تبكي شيئا معينا بالذات ، انها تبكي طفولتها ووالديها واخوتها ، تبكي بيتها وحيها والدروب التي لعبت فيها صغيرة وسلكتها كبيرة الى ان ضاعت خاطئة مجرورة بحبل مشدود الى قعر .

ولقد صبرت طويلا ، وحسبت نفسها سعيدة ، وخيل اليها ان الايام ستنسبها ماضيها ، فما بلغها ان الطروسي

ولو كانت ام حسن على فراصة كافية ، او لو سمحت لها اعصابها ان تهذا لوجدته هذه الليلة اقرب اليها من كل ليلة .
لقد اعتاد ، خلال هذه الاعوام ، الحياة البيتية المستقرة ، والفرح الزوجي ، الا انه لم يحسب حساب التعارض المقبل بين حبه للبحر وحبه للمرأة التي سيخلفها على البر ، فلما واجه مثل هذه الحال كان عليه ان يقف على احد جانبي الخط الفاصل بينهما ، وان يختار بحزم ، الا ان الخيار كان صعبا ، لا قبل له به ، فعمد الى المداراة ، مستسلما الى ضعف شقوق سيطر عليه في غفلة منه .

سألها :

— لماذا تبكين ؟

فاجابته من خلال دموعها :

— لماذا تريد بيع المقهى ؟ اذا كنت تريد السفر فانا لا اعارضك ، اما بيع المقهى فما وراءه ؟ تريد ان تقطع علاقتك بالبر وبالبيت ؟ تريد ان تهجرني ؟ اهجرني ، ولكن قل لي ذلك ، قل ان كنت تضحك علي وتخدعني ، قل انك تريد العودة الى المرافئ ونساء المرافئ .. لقد عاشرني في اوقات الشدة ، فلما جاءك الفرج ادرت لي ظهرك وقررت الرحيل .

ووثب من مكانه كان مدية حادة غارت في قلبه « انها تمن علي » قالها وهو يذكر حليها المباعة لاجل المركب ، وهم بان يصفعها ، ثم ارتد وقد افلح في الا يفعل ، وحدث فيها بعينين يتطاير منهما الشرر وصاح :

— قومي اخرجي من هذا البيت ولا تعودى اليه .

— كما تريد ، الله الذي خلقتني لا يتخلى عني ، الآن

عرفت قيمة الرجال ، ليس فيهم ..

— كفى ، ولا كلمة واحدة ، مصاغك يصلك غدا ، في

اي مكان تريدان ..

وتنبهت للاهانة التي صدرت عنها بدون وعي ، فم وجدت الا هذه العبارة للرد عليه :

— مصاغي ؟ انا امن عليك بمصاغي ، سامحك الله .

ودارت في البيت تجمع ثيابها ، وتجفف دموعها فلا تجد الا دموعا جديدة تنساب ، فلما انتهت من جمعها وقفت قبالتها وقالت « بخاطرك » فلم يجبها ، وقالت « ان نرى بعضنا بعد الآن ؟ » ومضت الى الباب وهي تنشج فانجرد وراءها وامسك بها من كتفيها وقال :

— لا تذهبي .. المرأة لا تذهب ، الرجل هو الذي يذهب .

وشرع يجمع ثيابه ، لاعنا حظه وحياته ومصمما ان يطرد ابا محمد ويبيع المقهى ويسافر ..

غير انه ما كاد يهم بالخروج حتى سبقته اليه وسدته في وجهه ، واحتضنته وبكت وهي تنتفض على صدره باستسلام انشئ ارادت ان تكون قوية فخانتها قواها وضعفت وعز عليها ان تفقد كل شيء في لحظة .

جرتة وهو يتظاهر بالمقاومة الى مقعد في صدر الفرفة ، فجلسا وقد هدأت فورتها معا ، ولف سيكارة واشعلها وهو ينظر الى دخانها مشققا على نفسه القوية ان تهون ، ودارى شعورا بالحنق والالم والرغبة في انهاء كل شيء والفرار الى بعيد ، الى حيث لا يرى احدا يعرفه .

مضت الدقائق بطيئة وسط صمت مطيق ، كانت تقطعه ام حسن بنشيج مخنوق ، وفي كل دقيقة تمر يفوض في ذاته جزء من شعور الغضب ليحل محله جزء من شعور الرأفة .

وارسل اصابعه تداعب شعرها . وامسك بذقنها ورفع راسها اليه ، صفا هذا الرأس الآن ، اغتسلت خلاياه وتطهر ، وراحت العينان المبللتان بالدمع تعكسان صدق الحب وحرارة الرجاء وذكريات الحياة المشتركة والعشرة الطويلة ، وجفونهما

ترمشان بتوسل لا تحفظ فيه « لا تتركني! » ومن عينيه ينعكس نفس الشوق والرجاء والذكريات . « انه الطروسي الحقيقي الجالس قربك الآن يا ام حسن .. الطروسي صاحب القلب الرحيم والمهجة النقية . انه على البر وليس في البحر وهو في بيته وليس في المركب، وهو مظلوم اذا كان خشنا في مظهره، عنيدا في مواقفه ومتهما بالقسوة في معاملته » .

ومن نظراته ، اذ التقت بنظراتها ، سال هذا العتاب « وانت ايضا يا ام حسن !! انت !! لماذا فعلت هذا !! لماذا دفعتني انى هذا التصرف الاحمق !! وابو محمد هذا ؟ الم اوصه الا يقول ؟؟ فكيف باح بما ائتمنته عليه، يا لوقعتك السوداء يا ابا محمد حين اراك غدا .

صاح الديك في الخارج معلنا انبثاق الفجر، وكان السهر قد اضاءهما وهما جالسان وقد اتصق كل منهما بالآخر ، والسكينة تحيط بهما ، وعاطفة ملتفة منددة بالحنان تتردد في صدرهما ، وتطل من حبة العينين ، مبهدة الجو للتفاهم والمصالحة .

طلب فنجانا من القهوة فلم تدع زكية تعده له ، بل قامت الى المطبخ فوجدت زكية جالسة على كرسي خشبي صغير ، فضحكت في وجهها ضحكة تستغفرها عن حماقتها ، ضحكة تقول « انتهى كل شيء .. بقينا لبعضنا » واشرقت اسارير زكية ، وانبسدت الغضون في وجهها وهي تتمتم بالدعاء الا يفرق بينهما .

ولما عادت ام حسن وضع يده على كتفها وسألها :
- لماذا فعلت هذا ؟

ماذا تقول ؟ السماء التي غامت امطسرت وصحت، رجعت زجاجية لا اثر فيها للقيم ولا شهوة للامطار . ويجمل بها ان تبسم ، وان تسطع بشمسها من جديد .

اكتفت بالابتسام وهي تمسح آخر قطرة علقست بمحجريها . وقال وهو يرتشف القهوة مخاطبا فيها عقلها :

« هل تريدان الا اسافر ؟ ان ابقى قهوجيا طوال حياتي؟ وهل خلقت لهذا ؟ لخدمة الناس ؟ فكري .. كيف يمكن ان اقضي حياتي اذن ؟! »

وقدم لها فنجان القهوة فجرعت منه رشقة وقالت مدافعة عن موقفها :

- انا لم اقل لك لا تسافر ، كل ما قلته لماذا تبيع المقهى ؟

- ومن اين ادفع حصتي في المركب ؟

- لا تدفعها ، سافر بدون ان تكون شريكا ، وانا وابو

محمد لا نريد منك شيئا ، المقهى باب رزق فكيف نغلقه بيدنا ؟

« نفس كلمات ابي محمد »

- هذا شغلي ، الرزق انا اجيبه ، وليس من عادتك

ان تتدخل في اموري ، فلماذا تتدخلين الان ؟

- وهل تراني اتدخل ؟ اذا بعث المقهى ستهجرني وتهجر

البر وتسكن البحر .

- ومن يمنعني من هجرك اذا كنت في البر او في البحر ؟

- لا احد ، كل ما في الامر انني خائفة من البحر .

- خوفك مجرد وهم ، انت لا تخافين من البحر (وهو

يتبسم) انا اعرف ماذا تخافين ، ولكنك واهمة ، الماضي مضى،

والعمر له حق ، والعشرة لها حق ، ومهما اسافر فسأعود

ولن اتركك ابدا .

قال لها اشياء اخرى كثيرة، حاول فيها افهامها بحبه وبقائه لها، وحاول تبديد شكوكها وافهمها انه لن يعود الى البحر الا وهو صاحب مركب وريس ، وما من قوة تحول بينه وبين ان يفعل ذلك ، وانه سيأخذ ابا محمد معه، وسيعود اليها بالهدايا من البلاد البعيدة، وسيبقى الى جانبها الشتاء كله ،

لان موسم السفر في الصيف والخريف فقط، ووعدنا وعودا
اخرى كثيرة كانت زكية العجوز تستمع اليها من وراء الباب،
وترفع يديها الى السماء طالبة ان تتحقق .

ثم جذبها اليه وقبل شفيتها المرتعشتين لفرط التأثر
والبكاء ، الدافئتين اكثر من كل ما سبق ، واحس وهو
يضع وجهه على وجهها ان الدمع يبلله ، وبينما كانا ينهضان
الى الفراش توقف وسط الغرفة وقال :

— اعطني تذكرة نفوسك .

— لماذا ؟

— احزري .

وارتمت عليه وهي تبكي فرحا . وقال لها وهو يمارس
نفس شعورها وفرحتها « ستصبحين زوجتي الشرعية باذن
الله » .

١٥

رجع الرحومني من سفرته الاخيرة ..
كان الطروسي قد باع المقهى وقبض الثمن . وقد بكى
ابو محمد وطاف يجمع اشياء ويرسل نظرات مودعة في
جوانب المقهى ويقول لخليل العريان : « اذكرنا يا خليل ! »

وكان قد زرع ، على جوانب الخيمة ، نباتات حبقة
وغرسات ورد ، فدار عليها يسقيها قبل فراقها ، واخذ يداعبها
ويشمها ، وسار الى الصخرة الكبيرة وجلس عليها ذاكر
الايام الماضية .

لم تعد يداد تمتدان الى شيء في المقهى . لقد اصبح ملك
الآخرين ، وعليه ان يعتاد وينسى ، وان يستعد لمفادته نهائيا .
فاذا عاد اليه عاد كغريب ، وربما تبدلت الاشياء الانيقة
الموجودة فيه فانكرها .

احس بحرقه لم يحسها من قبل . وفكر بالطروسي
فقال : « سامحه الله ووفقه » وامسك بالقط الذي رباه ومسح
بكفه على ظهره وناجاه قائلا : « هل تسافر انت ايضا ام تبقى
على البر ؟ »

وفي المساء مضى الى الحمام ، ودخل القيمين الذي يعمل
فيه ابو خضر ، وطفق يبثه شجونه قائلا :

— الطروسي باع المقهى !

— وانت ؟

— سأسافر معه ، هكذا قال .

– ولماذا باعه ؟

– تشارك مع الرحموني .

فتنهذ ابو خضر ومد يده الى زجاجة العرق ، وبعد ان نظر فيها على عادته ، جرع منها جرعة وقال غير مكتسرت :

– لو كانت خمارة لاسفت عليها ، اما المقهى ؟ لماذا تزعل انت ؟

– لان المقهى عزيز عليّ .. عشت فيه منذ تركت القمين ، وكان بيتي وكل دنياي ، وغدا يجري تسليمه فأحمل ثيابي واخرج ، وأنا لا اريد الخروج ، ولا اريد العودة الى القمين ، فكيف لا ازعل ؟

– وما نفع الزعل ؟ وما وراءه ؟؟ ما فائدته ؟ ازعل لنرى ماذا تكسب !! لقد زعلت انا ، وتألمت ، وتشردت واصبحت في القمين ، ولم ينفعني شيء ، فلماذا تزعل انت ؟ افعّل مثلي ، انني اعيش يوما بيوم ، لا ورائي ولا امامي ، من القمين اني الخمارة ، ومن الخمارة الى القمين ، وفي النهاية .. اعرف انهم سيأخذوني الى المقبرة ، ولن يبكي علي احد ، وهذا احسن ، انا ايضا لن ابكي على احد ، يكفي ما بكيت ، لولا هذه (ورفع زجاجة العرق) كنت القي بنفسي في القمين ، ولكنني اتحمل .. الحياة حلوة يا ابا محمد ، حتى ولو كانت مثل حياتي ، ويمكن ان يعيش الانسان ، ويسكر ، وينسى همومه ، وينسى انه مقطوع مثلي ومثلك ، فلا تزعل ، عندي لك مكان اذا اردت ، الم تعد تعجبك حياة القمين ؟

– لا تقلق علي ، الطروسي لن يتركني ..

– حظك كبير .. سأسمع اخبارك من خليل العريان . نحن نلتقي دائما في خمارة توفيق ، واسأله دائما عنك .

– وعدني خليل ان يأتي الليلة الى الحمام .

– وعدني قبلك واخلف ، خليل لا يأتي الى حمام السوق .

– وأنا لا اريد ان اتحمم الليلة .. لم تعد لي قابلية (وبعد وقفة) سأعود الى المقهى ، بخاطرك .

وضع شحاطته في قدميه واحنى ظهره وخرج من الكوة الصغيرة التي هي باب القمين . كان نمة ، في الموقد ، نار تشتعل ، ولهب القش يتسعر ويضيء ، وابو خضر ما ينفك يعطي النار غذاءها ، وزجاجة العرق تتناقص وغناء ابج متعّع يتصاعد مرة بعد اخرى في الجنبات الخربة لقبو القمين القديم ، والفراش القذر ، المشوش ، في الزاوية ، وابو خضر ، كانسان القابة في طول شعره ولحيته وقذارته ، يوقد ويوقد ، وذكريات تنثال ، وافكار تروح وتجيء ، وضحك لا مبرر له يتصاعد ، وصمت لا يلبث ان يعقبه ، وتنهذات ، وليل طويل ، وطريق قصيرة : من الخمارة الى القمين ، ومن القمين الى المقبرة .. اللعنة !

تلك هي حياة ابي خضر . وقد كانت صورتها ما تنفك تتراءى لابي محمد فتفزع ، وعلى انها لم تكن مفاجئة له ، وعلى انه عرفها ، فقد كان مجرد التفكير في انها قد تفرض عليه ثانية يثير فيه شعورا بالشقاء . وقد كان قي سعيه الى الخمام اليوم ، يسعى الى تفقد الحياة في القمين ، اشفاقا على شيخوخته ان تباغتها الاشياء مباغثة .

لقد كانت له ، هو ايضا ، اشياء حلوة في ماضيه : زوجة وولد وعمل ، غير ان « سفربرك » والفقر والبطالة كانت لها ضحاياها ايضا ، وبسبب منها اصبح وحيدا ، مسحوقا بقسوة . ثم تناوبه السعد وسوء الحظ زمنا ، وهو ، الآن ، ليس في مواجهة وضع شقي ما دام في صحبة الطروسي ، بيد ان نفسه منقبضة ، حتى ليحسد ابا خضر على لامبالاته بهذا الكون ، ويحسد خليل العريان على سكره واقباله على الحياة ، ويتمنى لو كان له عمل وبيت ، ويستشعر الاهمية الفائقة في ان يكون للانسان عمل وبيت .

واقبلت ليلة السفر . كان الطروسي قد سلم المقهى الى صاحبه الجديد ، وانهى اعماله ، واشرف على تحميل المركب ، ولم يبق الا ان يرفع المرساة ويقلع .

وقضى ليلته تلك الى جوار ام حسن ، يحدثها عن المستقبل ويمنيها بالعود ، ويقول لها سأجلب لك الهدايا ، واقتص عليك الاخبار ، ويوصيها ببيتها ، وكل ما له علاقة بحياتهما المشتركة .

واضطجعا بعد حديث طويل، فأغفت ام حسن راضية، قلقة ، مستسلمة ، راغبة عن كل شيء الا بقاء الطروسي لها. واغمض هو عينيه وقد استقر على جنبه الايمن ، ثم استدار الى جنبه الايسر ، ثم استلقى على ظهره ، وفتح عينيه واغمضهما وفتحهما ولم يؤاته النوم . كانت اعصابه متنبهة، وعقله مستيقظا ، وفرحته عارمة، وعقله اندخلي يمشور باحاسيس متباينة لا سبيل الى تجاهلها او اطفائها ، وقاع نفسه شغافا يعكس ادق المشاعر ويستدعي ابعد الذكريات: طفولته ، صباه ، المحروسة ، البطرنة ، الميناء ، علاقاته بالناس عشرته مع ابي محمد ، حياته مع ام حسن ، عداوته مع ابي رشيد ، صداقته مع نديم مظهر ، شراكته مع الرحموني ، سفراته الماضية ، سفرته المقبلة ، عمره الذي تصرم ، شعره الذي وخطه الشيب ، كهولته ، ماضيه ومستقبله ..

وارسلت الشمس ، من وراء القلعة ، اشعتها الاولى . وبدا الصباح نديا ، وزقزق عصفور على شجرة ، وتعالى صراخ رضيع ، وارتفعت اصوات الباعة ، وصفرت باخرة في الميناء ، ونفثت مداخن البيوت لهاثها الاسود، ووشوشت الامواج صخور الشواطئ ، وقال الناس بعضهم لبعض : صباح الخير !

وقال الطروسي لام حسن « صباح الخير ! » هل نمت؟

فضحكت وقالت « واستفرقت في النوم » ثم سألته : هل كنت تحلم ؟ قال « لم اعد اذكر ، احسب انني اغمضت عيني لحظة واحدة .. اعدي القهوة ريثما اغتسل والبس . »

ونفض مسرعا فاغتسل وارتنى ثيابه : لبس قميصه الحريري ، وشرواله الاسود : ولف زناره ، المعرق ، وانتعل حذاءه المعكوف ، واعتمر اللبادة الصوف ، ونظر في المراة : هذا لباس الرئيس اثناء السفر !

وتناول قهوة الصباح ، وافطر ، ثم ودع ام حسن ، وقال لها كلمات لطيفة ، اودعها كل ما يطمئنها الى عودته القريبة ، ووضع جاكيتته على يده وخرج، فلما تخطى العتبة امتلأت نفسه رهبة ، فتمتم بصوت مسموع : « يا ميسر يا الله ! » .

سار باتجاه الميناء ، في نفس الطريق التي قطعها مئات ومئات المرات . كان الشاطئ هادئا ، دافئا ، والبحر راكضا كأنه صورة على جدار ، وعلى سطحه قوارب صيد صغيرة ، وفوقه طيور بيضاء ، وفي اقصى الافق نديف قطن احمر مبهر .

لقد سكن البحر الآن .. فعل كل ما يمكن ان يفعله في الشتاء واخذ الى الراحة في الصيف . ومع انه خسر جولة مع الطروسي في شباط من هذا العام، ومع ان له معه ثارا ما يزال ، فان مرآه الان لا يدل على الحنق او الرغبة في الانتقام . لقد زحفت امواجه الى الشاطئ عاتية متحدية غداة انقاذ شختورة الرحموني، وكان ارتطامها على صخور البطرنة عنيفا رهيبا يدل على ان له ثارا وان له خصما تحداه واستخلص فريسته منه، خصما جاء من اليابسة فانتهك حرمة الماء ، داس البقعة الحرام بدون ان يخلع نعليه، قهر جيوش الملك واستذل كبرياء الملكة وطارد العاصفة القوية بشراعه المحطم،

ولكن احدا لم يجبه على تحديه آنذاك . كان الفارس قد
ترجل ونزع عدة القتال ، وللبحر ، اذا هاء ، ان ينتظره حتى
يعود ، فهو الذي سيناديه الى البراز .. وهاهو قد عاد ، وها
هو يناديه ، ويسير الى لقائه واثقا ، رائعا ، مطمئنا الى
النتيجة .

وتابع الطروسي سيره ، فرأى البحارة والعمال ينحدرون
الى المرفأ ، والصيادين يحملون شباكهم وصناراتهم ويذهبون
الى الصيد ، وكانت السماء ، من فوقه ، زرقاء ، صافية ،
مشوبة برقاق السحب في بعض ارجائها ، ملونة بالارجوان
في حوافها ، والشجر ، والورق ، والنبت في سكون متعب ،
وشيء ما يحس ولا يرى يغوص في الاعماق فيدغدغها ويهيجها
ويحمل المرء على ان يخفف الوطء وان يتملى الوجود ، ويصفي
الى تنفس الحياة ، ويرى الى تشاؤبها ، وغنجها ، فعل نائمة
تتخلص رويدا رويدا من اسر النوم ، وتستيقظ في كسل ،
وتتحرك عضوا فعضوا قبل ان تصحو وتنشط من جديد .

وجعل يتأمل هذا البهاء من حوله في غير دهش ولا
استخفاف . هذه اصباح الصيف على الشاطئ ، وهو بها
كلف ، وقد وهبها عمره ، واستوهبها جوارها ، وحلا له ، اذ
كان على البطرنة ، ان يستقبل الشمس ويودعها بفنجان من
القهوة على صخرته المفضلة ، في المقهى الذي انشأه ، وباعه ،
واحبه وكرهه ، ويريد ان يمر به الآن ليقول له : وداعا !

وما كاد يجوس حديقة المنشية حتى هفت اليه رائحة
الصخر والعشب والملح ، وابصر رجلا يسبح عريانا ، وصيادا
ينظف فلوكته ، وبدأت جلبة الميناء تبلغه ، كلما تقدم من حافة
الماء ، واعمدت الرافعات تبين له ، ومر به خفير جمر ك انهى
حراسته ، وخرج عجوز على ظهره كيس من كهف يسن
الصخور ، وبعد ان دب عليها ليتسلقها توقف قليلا في الشمس
كانه يستدفي من رعدة برد .

ولما بلغ الطروسي البطرنة مضى الى صخرته ووقف
عليها ، ثم تلفت وتنهد وابتسم : هنا كان مجلسه ، هنا كان
عالمه : يديه مهد الارض ، وبهما جوف الصخر ، ونظف الكهف
ورفع الخيمة . هنا عاش السنوات ، وعرف معنى الحياة .
لقد حسب الزمن لا يدور ، ولعن الزمن الذي لا يدور ، ولكن
الزمن كان يدور .. اين ؟ اين ؟ كل شيء اصبح قديما ، بعيدا ،
قريبا ، ماضيا ، لا يعرف كيف يحدد موقفه منه . كان يكرهه
وكان يؤثره ، كان يلعنه وكان يباركه ، وهو لا ينكر منه شيئا ،
ولا يعق شيئا . لقد نسي السيئات ، وبقيت الحسنات .
ترسب الكدر وطفا السماح ، وامتلات النفس بنشوة الظفر ،
ولم يعد فيها متسع الا لجميل الذكريات ، وانه ليحن الى تلك
الذكريات ، ويعجب لنفسه كيف تحن الى تلك الذكريات ،
وكيف تناست تلك الالام .

وهذا مقهاه ، انه امامه ولكنه ليس ملكه ، وقد تغير
منذ امس ، فانتهى عهده بالشباك والمراسي والجبال وسلال
السكك ورائحة القلقون والقطران ... سيصبح مقهى آخر ،
اكثر نظافة ، واحسن ترتيبا ، ولكن اكثر بعدا عن البحر ،
واقرب الى البر ، وربما صار ادعى الى الراحة ، ولكنه سيفقد
اجلب للوحشة ، وابعث على الملل ، وهو لذلك لا يريد ان
يدخله ، ولا يريد ان يرى ما صار اليه ، ويكفيه ان يمر
به ويمضي ..

دار من ورائه ، وانحدر الى الميناء ، وقطع المسافة
القصيرة الباقية بينه وبين عالمه الجديد القديم ، فلما رأى
الركب استعداد بهجته ، واحس باعتداد وفرح ، انه صاحب
مركب الآن ، ريس مثل جميع الرياس ، بيد انه لا يريد ان
يزهو ، ولا يحب الخيلاء ، ويعرف انه بحار في الاصل ، وان
قيمة البحار في مهارته ، وعليه الا يبدو خفيفا ، والا تخرجه

الفرحة عن طوره ، وان يراعي احساس من حوله ، ويستمتع بسعاداته ويترك المظاهر لسواه .

اقبل على الميناء في غير تعجل ولا ابطاء : مشيته الهادئة ذاتها ، ونظرته النشيطة وكتفاه المنضمتان ، وجسده المطاوع ، ووافته ، وطيبته ، وكل سمات البحار الهادئة كالبحر ، المزبد مثله عند اللزوم .

دخل منطقة المرقا وسار الى مركبه راسا . كان يعتزم ان يبدأ العمل كسابق عهده : يتفقد شئون الرحلة ويشرف على حمولة المركب ، ثم يخرج الى مكتب رئيس الميناء فيسجل ويودع ويقلع ..

الا ان ابا رشيد تلقاه على غير ميعاد . عجوز الميناء هذا اين يكون واين يصير ؟ متى يختفي ومتى يظهر ؟ بل متى يعادي ومتى يصادق ، ان الطروسي ليكرهه ، ولكنه لا يستطيع الا ان يعجب به . هذا رجل بحر من نوع آخر ، هذا هو الدهاء بعينه .

وتصافحا . لم يدعه الطروسي يشعر بأي تفوق ، ولا اظهر ارتباكاً امام بادرته ، ولم يجامله الا بما يقضي الموقف والخلق ، بينما اظهر ابو رشيد عطفاً ووداً حارين . كان يلثغ ، وتبرق عيناه ، وبرتجف شارباه عند الكلام ، ويبدو ، بالنسبة للطروسي ، شيخاً ، اقصر قامه ، وارق بنية ، الا انه يختبئ في ثيابه ، ويعتمد على عزيمته بأكثر مما يعتمد على ساعده ، ويعرف كيف يتصرف ، وكيف يتصرف بصورة طبيعية ، وبصدق وحرارة احيانا .

دعاه الى تناول القهوة ، وكذلك دعا الرحموني ورئيس الميناء ، وقال كلاماً طيباً فيه تقدير واطراء ، حتى عجب الحاضرون مما يسمعون . اما الطروسي فقد ادرك مغزى الكلمات ، وفهم سببها جيداً . ليس بينهما شيء الآن ، فما

دام الطروسي مسافراً فليس لابي رشيد عليه حقد ولا نذر . انه يريد الاحتفاظ بسيطرته في الميناء ، فاذا انتفى اي عمل ضد هذه السيطرة اصبحت الامور سهلة ، وعرف كيف يعبر من عواطفه صادقا . انه يدفع الخنجر في الظهر ، ثم يوقفه قبل ان ينفذ ، اذا رأى الاداعي لنفاذه . لقد اراد قتل الطروسي في يوم ، وها هو يكرمه في يوم ، ومن يدري ، فقد يعود الى قتله في يوم ثالث ، فان امثال ابن برو كثيرون في الميناء « ولكن امثالي كثيرون ايضا ، فاذا سافرت فلن يسافر الجميع ، ولا بد ان ينتهي الاستبداد » .

استوى صعود المد ، وبدأت حركة الاقلاع ، ووقف الطروسي مستعداً لاعطاء الاشارة ، وهرع اليه احمد قائلاً :
- لننتظر قليلاً ، فربما اتى ابو محمد .

وتطلع اليه الطروسي مبتسماً ، مقهوراً ، تكاد الدمعة تظفر من عينيه . لقد احب ابا محمد ، واحب لهفة احمد عليه ، وشاركه فيها ، وود لو جاء هذا العجوز وعاش كما يعيشون ، الا انه هز براسه وقال :
- ابو محمد لن يأتي ..
- وكيف عرفت ؟!

- وهل ذلك صعب ؟ البحر جديد يا احمد بالنسبة اليه ، ومن الناس من يخافون الجديد ، ولا يعرفون كيف يحيون فيه .. لقد حزرت ذلك سلفاً ، وايقنت انه لن يأتي فأوصيت نديم مظهر به ..

وفكر نديم مظهر : هل يعتني حقاً بأبي محمد ؟ انه واثق من مساعدته له ، انما لا يمكن ان يعيش الانسان على المساعدة ، ولا بد له من عمل ، فماذا في وسع هذا العجوز ان يعمل ؟ وهو ، ماذا في وسعه ان يفعل لاجله ؟ وهب انه استطاع ان يمنع بؤس هذا الشيخ ، فهل يستطيع منع بؤس

جميع الشيوخ ؟ « صدق الاستاذ كامل .. القضية ليست قضية فرد بل مجتمع ، ينبغي اصلاح المجتمع » .

اعطى اشارة الاقلاع فتحرك المركب ، ومضى هو الى المقدمة فوقف عليها ولوح الى الواقفين على الرصيف ، ورنأ الى البر والميناء والمراكب والفلائك ، وذكر في لحظة كل اشيائه ، كل اصحابه ، واستشعر الرغبة في ان يكون معهم ، وان يعود اليهم ، وتساءل : « ماذا سيكون حالهم ؟ وهل تتغير الظروف وتحسن الاحوال ؟ » واجاب على نفسه بنفسه قائلا : « حتما ! » ثم تحول الى بحارته ، وصاح فيهم « همتكم يا شباب » وامسك بالدفة وراح يعمل ، وراح المركب يشق طريقه ، وثلم ازرق ينفث امامه ، وثلم مزبد يرتسم وراءه ، وطيور تحوم حوله ، والميناء تنأى ، تنأى ، والمدينة تتكشف ، تتكشف .

بانت « الطايبات » اولا ، ثم القلعة ، ثم المآذن ، فالقبيب ، فالابنية ، ولاحت البطرنة والمقهى والصخرة ، وتجمع المنظر ، وتجسم ، وبدا اكبر ما يكون .. ثم اخذ يضيق ويصفر ، وغابت الشوارع ، وتداخلت اليبسوت ، وتوارت المآذن ، واختفى حي ، ثم آخر ، واختفت المدينة كلها بعد قليل .